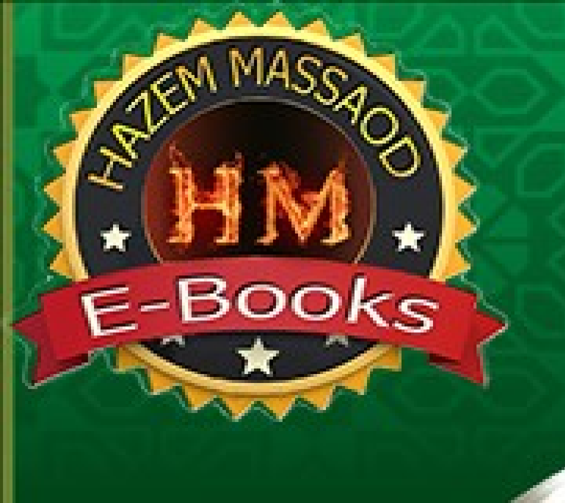


أسس العروبة القديمة

د. ابراهيم علوش





أسس

العروبة القديمة

د. ابراهيم علوش


أسس
العروبـة
القديمة

أسس العروبة القديمة

دراسة

إبراهيم علوش

ISBN: 978-9957-30-340-2

الطبعة الأولى: 2012

أسس العروبة القديمة – إبراهيم علوش - الأردن

دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي

عمان - شارع الملك حسين-مقابل سينما زهران

تلفاكس: 4650885 (6 -962+) هاتف جوال: 911431-777(962+)

ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن

:Dar_fadaat@yahoo.comE.mail

:http://www.darfadaa.com Website

التوزيع في تونس

فضاءات للنشر والتوزيع – فرع تونس

شارع الهادي نويرة. النصر II- تونس 2037

تلفاكس: 21 65 82 70 (216+) - الجوال 39 42 29 98 (216+)

E.mail: fadhahet@yahoo.com

:http://www.darfadaa.com Website

تصميم الغلاف: نضال جمهور

الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

مقدمة

ينكر كثيرون وجود عروبة قديمة، وقد وضع هذا الكتاب للرد على هؤلاء، ولتعريف شباب الأمة ببعض روافد وأسس العروبة منذ أقدم العصور التي جاء الإسلام ليصقلها ويكملها ويصنع لها دولة.

ولعل الأخطر بين ناكري العروبة القديمة هم المستشرقون وأتباعهم ممن يعتبرون الوجود العربي خارج الجزيرة العربية احتلالاً جاء مع الفتح الإسلامي، مما يجعل العروبة الحديثة مجرد احتلال لا بد من الإطاحة به، أو هوية مفروضة لا بد من التنصل منها بالحد الأدنى. وهذا الرأي المناهض للعروبة القديمة، وبالتالي المعاصرة، الذي يتم الترويج له على نطاق واسع ليس مجرد وجهة نظر أو نظرية أخرى في التاريخ، بل هو أساس تدمير الهوية الثقافية العربية هنا والآن، أي أنه جزء من حرب، لأن تدمير القاسم المشترك العروبي بين أبناء الأمة العربية هو شرط تدمير الهوية العربية الواحدة مما يمهد لتفكيك أمتنا أشتاتاً.

لكن المستشرقين الغربيين ليسوا وحدهم من ينكر العروبة القديمة. فهنالك أيضاً:

1) الشعوبيون القدامى والجدد الذين أنكروا العرب وفضلهم على العالم في سعيهم للسيطرة على السلطة والأرض والثروة باسم الدين،

2) بعض الإسلاميين ممن يظن أن الاعتراف بوجود عروبة قديمة يقلل من الرسالة الإسلامية، مع أن العكس هو الصحيح، لأن القرآن نزل بلغة العرب، والرسالة حملها العرب،

3) بعض المفكرين القوميين الناصريين ممن يعتبر أن الأمة العربية تشكلت مع بداية الدعوة الإسلامية فحسب، وهو الأمر الذي نتطرق إليه أيضاً في كتاب "أسس الفكر القومي: مختارات لرؤية نقدية"،

4) دعاة الحركة الصهيونية الذين لا يستطيعون الزعم بأن المنطقة الممتدة بين الفرات والنيل هي "أرض الميعاد" إذا اعترفوا بهويتها التاريخية العربية، ولا يستطيعون بالتالي تبرير احتلالهم لفلسطين وأطماعهم بجوارها إذا اعترفوا بعروبة الأرض منذ التاريخ القديم،

5) دعاة الانفصال والتفكيك في الوطن العربي، ممن يزعمون أن الأقباط والفينيقيين والأمازيغ والسريان والآراميين وغيرهم من الأقوام القديمة التي سكنت بلادنا هي أقوام ذات تاريخ وهوية منفصلة عن العروبة ليبرروا دعواتهم الانفصالية،

6) بعض الماركسيين العرب الذين يعتبرون أن الأمة العربية هي أمة لم تتشكل بعد، أي أنهم لا يعترفون بعروبة حديثة، ناهيك عن العروبة القديمة،

7) بعض المثقفين والكتاب المتغربين في الوطن العربي ممن يردّدون المزاعم الاستشراقية الغربية بسبب استلابهم الثقافي والفكري.

كل هؤلاء ينكرون وجود العروبة القديمة، ويسهمون بدرجات مختلفة بالتالي، عن حسن أو سوء نية، بالهجوم على القومية العربية، أو على القاسم المشترك الذي يوحد أرضنا وشعبنا العربيين.

ومع أنَّ الدراسات العلمية والتاريخية التي تثبت وحدة العروبة منذ أقدم الأزمان متوفرة بغزارة في بطون المجلدات الثقيلة، فإنَّ مثل تلك المجلدات يقتصر الاهتمام بها وبما جاء فيها على حفنة من كبار المثقفين القوميين ما برح عددهم يتناقص يوماً بعد يوم. لهذا جمعنا في هذا الكتاب الصغير الميسر صفحات من دراسات بعض الكتاب والمؤرخين، وهي صفحات تم اختيارها بعناية وبتسلسل منهجي، وكان قد تم تداولها كجزء من "سلسلة التثقيف القومي" في "لائحة القومي العربي" على الإنترنت. ونتمنى أن ينجح هذا الكتاب التثقيفي الصغير في قدح اهتمام عدد أكبر من الشباب العربي بالمجلدات التي استقينا منها هذه الصفحات، وبالحد الأدنى، نتمنى أن ينجح بإيصال الرسالة حول العروبة القديمة لأكبر عدد ممكن.

ورسالتنا واضحة: أن نقدم لمحة عن العروبة القديمة التي نُعتبر نحن عرب اليوم استمراراً لها، وأن نظهِر أن الوطن العربي من عربستان إلى سبتة ومليلة كان عربياً منذ أقدم العصور، وأن العرب ليسوا كماً بشرياً فائضاً عن الحاجة كما يصورهم المستشرقون والشعوبيون، بل أنهم أساس الحضارة البشرية، وأن دماء أجدادنا لا تزال تجري في عروقنا، وأننا قادرون على النهوض اليوم كما نهضنا عندما لم ينهض غيرنا.

هدفنا واضحٌ إذن: إثبات الوحدة التاريخية والجغرافية والثقافية واللغوية لبلادنا منذ آلاف السنين، وهو ما مهد للإسلام أصلاً، ولحركة القومية العربية الحديثة.

باختصار، نقض العروبة القديمة يشكل أساساً لنقض كل العروبة، وبالتالي لنقض العروبة الحديثة. والأهمية المعاصرة لإثبات العروبة القديمة تتعلق بالمعركة الوجودية للدفاع عن الهوية العربية، وبالتالي فإن الصفحات التالية تشكل مقولة سياسية راهنة، أو سمه علم تاريخ مسيّس إن شئت، مع الالتزام الكامل بما تحمله كلمة علم من معنى من ناحية سوق الدلائل والحوادث التاريخية وتحليلها منهجياً وموضوعياً.

الهوية العربية

هذا الاستفحال الظاهر أو المستتر لنزاعات الهويات الفرعية والمفتعلة والمفبركة، من صعدة للعراق للأردن لدارفور إلى الصحراء الغربية الخ...، لم يأتِ صدفةً أو بلا سياق. فالحملة ضد الهوية القومية والحضارية لأمتنا، أي على العروبة والإسلام، قديمة قدم الاستشراق نفسه، لكنها تبلورت كإستراتيجية سياسية ذات معالم ملموسة بالأخص في حقبة المعاهدات في التسعينات، ثم بشكل مكشوف بعيد احتلال العراق. وكان اسم تلك الإستراتيجية: "الشرق أوسطية".

ويبدأ نفي الهوية العربية في العقل الاستشراقي والمتغرب بمحاولة إظهار الوجود العربي خارج الجزيرة العربية كاحتلال أو كوجود طارئ منقطع الجذور، وبتقديم الفتح الإسلامي في حدود الوطن العربي الحالية كغزوٍ غاشمٍ لأقوام من الجزيرة العربية على أقوام أصيلة لا يرتبطون معها برابط.

وهو خلطٌ وتهويمٌ يتراوح ما بين الجهل الفاضح، والتوجيه المشبوه سياسياً والمخترق ثقافياً، لأنه يتجاهل عمق الرابط اللغوي والحضاري، وحتى العشائري، ما بين الجزيرة العربية وبقية أجزاء الوطن العربي. فمناذرة العراق، وغساسنة بلاد الشام، جاؤوا من شبه الجزيرة العربية كما هو معروف، وكذلك أظهر د. عثمان السعدي أن الأمازيع جاؤوا من اليمن قبل عدة ألفيات، ووضع قاموساً يظهر ترابط اللهجة الأمازيغية، بالعربية وبالفينيقية-الكنعانية القديمة، وهي من جدات اللغة العربية المسماة زوراً "السامية"، و"السامية" طبعاً هي اللفظة التي استحدثها المستشرقون من أجل

إلغاء ذكر أي شيء عربي من تاريخ حضارة الإنسان كما يوضح د. أحمد الداوود في دراساته وغيره. وهناك أيضاً دراسات د. عكاشة الدالي عن عروبة مصر القديمة، ناهيك عن مجلدات محمد عزة دروزة التي وثق فيها عروبة العراق وبلاد الشام ووادي النيل المتصلة منذ أقدم العصور.

وعلى كل حال، المراجع التي تؤكد العروبة المتصلة لبلادنا منذ أقدم العصور متوفرة لمن يبحث عنها، ونقول المتصلة، لأن العروبة لا يخل بها احتلالٌ عابر، ولو طال به الأمد. وفي مادة بعنوان "الفتح الإسلامي لم يكن غزواً" في مجلة البيان الكويتية، عدد شهري 7 و8 لسنة 1998، يظهر د. فؤاد المرعي أن اندفاع سكان العراق وبلاد الشام ومصر للانضواء تحت راية الإسلام، بعد ألف عام من الاحتلالين الرومي والفارسي، يعود أساساً لعدم قدرة الاحتلالين على اجتثاث العروبة التاريخية للمنطقة.

وتظهر نفس المادة للدكتور المرعي أن المسلمين دخلوا بلاد الشام والعراق ومصر محرِرين لا مستعمِرين، وأن المسلمين الأوائل كانوا يعرفون أن مسيحيي الشرق، أبناء عمومتهم بالنسَب، كانوا مضطهَدين من الروم، وبالتالي أنهم سيؤيدونهم على أساس قومي عربي، ولو لم يدخلوا في الإسلام، فذلك حساب إستراتيجي واثق، لا عمل مغامر، يقوم على شعور غريزي بوحدة الأرض والثقافة والإنسان العربي في وعائه الجغرافي الطبيعي الذي لا يميز بين جزيرةٍ عربية، وهلالٍ خصيب، ووادي نيلٍ، ومغربٍ عربي، وهي العروبة التي هيأت لانتشار الإسلام نفسه كحركة وحدة وتحرير ونهضة للأمة العربية. وثمة سبب، بالمقابل، لعدم تخلي فارس عن لسانها بعد الإسلام!

وقد بات من الضروري أن نذكر اليوم بهذا في مواجهة غزاةٍ جدد يحاولون إظهار العروبة والإسلام في بلادنا كاحتلال طارئ، وفي مواجهة هويات التفكيك الدموي المدعومة غربياً.

وتأتي التتمة الصهيونية المباشرة للرواية المؤسسة لـ"الشرق أوسطية" من خلال نفي عروبة القدس قبل الإسلام، وهو ما يؤسس لزعم هوية يهودية مزيفة لها قبل الرومان. وهو أمرٌ من أخطر ما يكون في ظل مشاريع تهويد القدس الحالية.

وباني القدس هو "ملكي صادق" ملك قبيلة اليبوسيين الكنعانية. فمن لا يصر على دور اليبوسيين العرب في تأسيس القدس وعلى عروبة الكنعانيين الناجزة عروبةً لا ريب فيها، وبالتالي عروبة أرض كنعان، فإنه يقدمها مع الأقصى لقمةً سائغة لليهود بذريعة ملكيتهم التاريخية لها. فإذا مر العبرانيون يوماً بأرض كنعان كما يزعمون، فإنهم يكونون قد مروا بها كأي احتلال، وقبلهم ومعهم وبعدهم بقي الكنعانيون ليحافظوا على عروبة الأرض، وتلكم هي الهوية العربية المتصلة التي لا يبدلها أي احتلال.

ملاحظة أخيرة: عندما نتحدث عن هوية عربية متصلة للمنطقة، فإن ذلك لا يعني أن كل عناصر تلك الهوية لم تتبدل أو تتطور عبر المراحل التاريخية المختلفة. فالعروبة كائن حي لا صنم من الحجر، وقد نتجت العروبة عن تفاعل جماعة مشتركة من الناس على بقعة جغرافية مشتركة على مدى آلاف السنين، فمن البديهي إذن أن تمر بمراحل وأطوار، ومن البديهي أن ترتقي حقيقة الوجود القومي التي تشكلت قبل الإسلام إلى مستوى أعلى أكثر تماسكاً ووضوحاً بعد الإسلام، ومن البديهي أن تكون عروبتنا المعاصرة مضطرة لاستيعاب كل التحديات والمخاطر والظروف التي يأتي بها عصر العولمة. فالعروبة القديمة لا تساوي العروبة التي تبلورت في ظل الإسلام، وتلك لا تساوي

العروبة المعاصرة، كما أن الحفيد لا يساوي الأب الذي لا يساوي الجد بدوره. لكن مشكلتنا هنا هي مع من ينكر علاقة الأبوة المتسلسلة بينهم.

سلسلة التثقيف القومي

الجزء الأول: المفهوم التاريخي لتسمية العرب وموطنهم/ د. أحمد داوود

- الخليج العربي كان "جنة العرب" قبل أن تغمره مياه البحر مع ذوبان كتل العصر الجليدي الأخير قبل آلاف السنين.

- الوجود العربي في جنوب العراق وضفتي الخليج العربي والبحرين مستمر دون انقطاع منذ 14 ألف عام قبل الميلاد.

- شبه الجزيرة العربية كانت خضراء قبل تصحرها، وفيها أنتج الإنسان العربي أسس الحضارة البشرية.

تقـديـم

لطالما شكّك بعض السطحيين والمغرضين بفكرة الهجرات الكبرى من شبه الجزيرة العربية على مدى آلاف السنين باتجاه بلاد الشام والعراق ومصر ووادي النيل والمغرب بذريعة أن المناطق المقفرة الجرداء لا تحتمل مواردها نشوء فوائض سكانية ضخمة إلى درجة تجتاح معها المناطق الخصبة الخضراء وتسيطر عليها، ويزعم هؤلاء أن منطق الأشياء يتطلب أن يتكاثر السكان أكثر في المناطق الخصبة، لا الصحراوية، وبالتالي، يرفض هؤلاء المشككون فكرة الهجرات الكبرى من شبه الجزيرة العربية إلى بقية الوطن العربي، وينتج عن ذلك الموقف طبعاً اعتبار الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي احتلالاً، واعتبار كل الوجود العربي خارج الجزيرة العربية احتلالاً أيضاً، وهو المنطق الذي سنبين تهافته في الأجزاء التالية من سلسلة التثقيف القومي، كما نبين أن الأمازيغ والأقباط والسريان وغيرهم من الأقوام المتواجدة خارج شبه الجزيرة العربية هي أقوام عربية قديمة توجد بينها وبين العرب المحدثين روابط لغوية وعرقية وتاريخية وثقافية عميقة وعريقة.

أما في هذا الجزء من سلسلة التثقيف القومي، فإن د. أحمد داوود من سوريا يكشف فيما يكشفه لغز الهجرات الكبرى من شبه الجزيرة العربية باتجاه مشرق الوطن العربي ومغربه وباتجاه وادي النيل... فشبه الجزيرة كانت قبل ألفيات عدة شديدة الخصوبة تجري فيها الأنهار وتتساقط عليها الأمطار على مدار السنة، وتمتد فيها المراعي والغابات، وكان ذلك في الوقت الذي امتد فيه الجليد القطبي حتى وسط فرنسا وما يعادلها في خطوط العرض، وبالتالي تشكلت في شبه الجزيرة العربية الكتلة البشرية العربية الرئيسية وأنشأت أسس الحضارة البشرية هناك، ومن الخليج العربي قبل أن تغمره مياه البحر ذهب السومريون باتجاه العراق مثلاً، ومع ذوبان الجليد وانتهاء العصر الجليدي الأخير، وبدء تصحر الجزيرة العربية الذي لم يكتمل حتى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد تقريباً، بدأت الموجات العربية تجد نفسها مضطرة للبحث عن أراضٍ أكثر اخضراراً، كانت قبلها مكتظة بالغابات التي نجد القلة القليلة الباقية منها في جبال المغرب العربي وجبال بلاد الشام... فعلم المناخ

والتقلبات المناخية باتجاه التصحر التدريجي هو ما يفسر الهجرات العربية الكبرى من شبه الجزيرة العربية باتجاه بقية الوطن العربي على مدى آلاف السنين.

النقطة المهمة الأخرى في مادة د. أحمد داوود أدناه تتعلق بالجهود الحثيثة المبذولة من قبل جهات عدة، غربية خاصةً، لطمس الهوية العربية الموحَدة لبلادنا من خلال تفتيتها إلى عشرات الهويات الفرعية (كالآشورية والبابلية والسريانية والفينيقية والقبطية والبربرية الخ...) التي يجمعها قاسم مشترك واحد بالأساس هو العروبة. وترتبط محاولة طمس الهوية الحضارية العريقة للمنطقة أيضاً بمحاولة إلغاء المساهمة العربية الجوهرية في تأسيس الحضارة البشرية من أجل نسبتها قسراً للإغريق والرومان، وبمحاولة فرض مركزية الحضارة الغربية في التاريخ البشري والفكر الإنساني، في الوقت الذي بنى فيه الإغريق والرومان على الإنجازات العربية أصلاً، وكان العرب القدماء هم الذين نقلوا حضارتهم غرباً باتجاه اليونان وشرقاً باتجاه الهند...

وثمة نقاط كثيرة أخرى في مادة د. داوود أدناه تتحدث عن نفسها بنفسها، لكن يكفي أن نقول أنها بمجموعها تترك كل من يقرأها حتى النهاية فخوراً بأصله وبعروبته في وجه محاولات مسخ هذه العروبة وتقزيمها.

(مقتطفات من الفصل الأول من كتاب "العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود" للدكتور أحمد داوود، الصادر في دمشق، سوريا، كانون الثاني 1991)

فقرات

من مقدمة الكتاب (بتصرف):

لقد صار من الواضح والثابت اليوم أنه لم يلق تاريخ أمة من الأمم أو شعب من الشعوب من ضروب المسخ والتشويه والتزوير مثل ما لقيه تاريخ الشعب العربي. وأكثر من هذا نقول: إن تاريخنا العربي، الذي هو دونما أية مبالغة، تاريخ التمدن البشري على هذا الكوكب، يكاد يكون الوحيد الذي تضافرت عليه جهود الدول الكبرى بكل مؤسساتها وإمكاناتها من أجل مسخه وتقزيمه. وإن مثل ذلك التزوير الهائل لم يكن ليتم بالصورة التي هو عليها اليوم لولا أن واقعاً كارثياً تعيشه مؤسساتنا الثقافية والتعليمية في الوطن العربي منذ بداية عصر الاستعمار وحتى اليوم.

لقد عمدت الدول الاستعمارية إلى إحداث مؤسسات استشراقية... بترت العربي عن ماضيه الحضاري المجيد، الأساس الحقيقي الراسخ الذي قامت عليه حضارات كل الأمم الأخرى فيما بعد، وحولته إلى وجود هامشي بدائي، متخلف، متطفل منذ القدم على حضارات الآخرين.

وصار على العربي اليوم، لكي يعرف لغته وتاريخه، أن يذهب إلى معاهد وجامعات تلك الدول التي عممت ورسخت ذلك التزوير، فيجري تلقينه تلك الصورة الشوهاء المقزمة لتاريخ شعبه، ثم يتحول في وطنه إلى مجرد وسيط يحصر دوره في نقل تلك الصورة وترسيخها في أذهان الأجيال العربية المتعاقبة.

إن بلداً عربياً واحداً لم يأخذ على عاتقه، حتى هذا اليوم، إنشاء معاهد مركزية قومية حقيقية لتدريس اللغة العربية القديمة بكافة لهجاتها وكتاباتها وبتسميتها الصحيحة، فيتولى خريجوها قراءة هذا التراث الزاخر الهائل الذي تزخر به الأرض العربية. لقد بقيت هذه المهمة حتى اليوم منوطة بالأجانب وحدهم، بمن فيهم اليهود الصهاينة. إن دور مديريات الآثار لا يتعدى، في معظمه، تسلم بعض ما يجود به الدارسون الأجانب، لتوزعها، دونما أي بحث أو مناقشة أو دراية، على معاهد التعليم ومؤسسات الإعلام والثقافة والسياحة، وكثيراً ما يستبق القائمون على الآثار نتائج الاستكشاف، ليقرروا نتائج وأحكاماً ومقولات هي في صميمها صهيونية أو مغرضة، كما حدث في عملية إطلاق تسمية "الحثية" على الآثار المكتشفة في شمال سوريا دون أي مستند تاريخي أو آثاري، وكما أطلقت تسمية "سيميرا" التوراتية على تل الكزل جنوب طرطوس قبل استكشافه وجرى تعميم ذلك على الكتب الجامعية بتدبير محكم، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى...

إن المكتشفات الآثارية ما تنفك تؤكد يوماً بعد يوم أن تاريخ الوطن العربي هو تاريخ التمدن البشري على هذا الكوكب. فقد أثبتت، بما لا يبقي مجالاً للشك، أن إنساننا كان أول من عرف الزراعة وفن البستنة، وأول من بنى المدن، وشيد الحصون والقلاع، وأول من عرف المعدن واستخدمه وأتقن فن التعدين وصناعة الأدوات، وأول من صنع الفخار والدولاب، وأول من عرف وأسس علوم الطب والفلك والحساب والهندسة والجبر والمساحة، ووضع المقاييس والمكاييل والموازين، وأول من اكتشف، ومن عهد بابل، أن الأرض كروية، وأنها هي التي تدور حول الشمس، فدرس بناءً على ذلك ظاهرة الخسوف والكسوف، ووضع المواقيت والتقاويم لأول مرة، ووضع النظام الستيني منذ

عهد بابل الذي ما زال مستخدماً حتى اليوم، فقسم بموجبه النهار إلى 12 ساعة، والساعة إلى 60 دقيقة، والدقيقة إلى 60 ثانية. وأول من صنع السفن وأبحر في البحار والمحيطات، وأوجد خطوط التجارة الدولية في البر والبحر، ودار حول رأس الرجاء الصالح وبلغ الشواطئ الأمريكية منذ الألف الثاني والأول قبل الميلاد (أي قبل كريستوف كولومبوس بما ينوف عن ألفين وخمسمائة عام). وأول من أبدع عقيدة الخصب الزراعية بكل تقاليدها وتعاليمها وآدابها وفنونها، وأول من أبدع عقيدة التوحيد، وأول من عرف الكتابة واخترع الأبجدية، وصنف الكتب والمكتبات، وبنى المدارس، ووضع القواميس منذ الألف الثالث قبل الميلاد (كما أثبتت مكتشفات ماري)، وأول من صنع النول والمكوك وعرف الحياكة والنسيج، وأول من بنى دولة مركزية كبرى بالمفهوم الحقوقي والإداري والسياسي والاقتصادي والعسكري، فوضع الأنظمة، وشرع القوانين، وضرب النقود، وبنى الجيوش، وأول من وضع تشريعات الزواج وبناء الأسرة، وأول من شرب الخمور، وصنع العطور، وأحدث مجالس الشراب، والشورى والندوة، وأول من وضع مجلسين استشاريين للشيوخ والشباب، وأول من تزين بالحلي والكحل ولبس الجوارب، وعرف الشطرنج والنرد والداما...

نعود لنقول: بالرغم من هذا كله، فقد تحول تاريخنا العربي القديم اليوم، على أيدي المزورين في الخارج و"النقلة" في الداخل، إلى تاريخ مجموعات من القبائل البدوية الرعوية، نتيجة للروح التعصبية التزويرية التي سادت كتابة التاريخ على يد الغرب الاستعماري، فانقلبت كل الحقائق رأساً على عقب، وصارت أثينا وروما، اللتان كانتا جزءاً من إنجازنا الحضاري، كما صار يتأكد اليوم، مرضعتين للحضارة على الأرض.

وفوق هذا كله، فقد مُزقت وحدة الشعب العربي اللغوية والحضارية، فجرى عن عمد وتصميم تغييب الهوية العربية عن كل مكتشف آثاري، وصار كل تل يكشف مشروعاً لشعب جديد، ولتسمية جديدة، وحضارة جديدة، ولغة جديدة، يلصق بها أحياناً تسمية المكان، وأحياناً كثيرة تُفرض عليها تسميات قسرية من مدونات التوراة، ليبقى الطابع البدوي العشائري الضيق الذي عكسته التوراة هو الطابع الوحيد لهذا الشعب، من جهة، ولخلق الذرائع التاريخية المصطنعة والكاذبة للأطماع الاستعمارية والصهيونية في المنطقة، من جهة أخرى، ومنه افتراض وجود هندو أوروبي مزعوم في تاريخنا الحضاري، حتى تصير التسميات مقرونة بأسماء شعوب وأقوام عدة، فنتعرف على ما يدعى بـ"العهد الحثي"، و"الآثار اليونانية" أو "الهلنستية"، و"الآثار الرومانية"، و"الآثار البيزنطية"، والآثار الإسلامية... الخ في سوريا مثلاً. المهم هو ألا يكون في متاحفنا أو في كل ما يقال عن آثارنا أي ذكر لشعبنا صاحب ومبدع تلك الحضارة وحده على أرضه، قبل أن ينقلها بنفسه إلى أراضي الآخرين.

المفهوم التاريخي لتسمية العرب وموطنهم:

مقتطفات بتصرف من الفصل الأول:

يعتمد تحديد الهوية التاريخية القومية والحضارية لهذا التجمع البشري أو ذاك، لهذه الظاهرة التاريخية أو تلك، على ثلاثة أسس رئيسية هي: السكان، اللغة، والأرض أو الجغرافيا، مع قناعتنا الأكيدة بأن هذه الأشياء الثلاثة لا توجد الواحدة منها في معزل عن الأخرى، بل بشكلها المترابط عضوياً، المتفاعل جدلياً.

وقبل أن نتحدث عن المفهوم التاريخي لكلمة العرب نرى أن لا بد، أولاً، من أن نرسم لوحة مبسطة للجغرافيا، في مرحلة تاريخية سابقة، التي على مسرحها عاش وتطور وأبدع هذا الشعب الذي نعرفه اليوم بـ"العربي".

السكان والجغرافيا:

من المحتم علينا حينما نتحدث عن تاريخ هذا الشعب أو ذاك في مرحلة تاريخية قديمة أو موغلة في القدم، كما هو شأننا مع الشعب العربي، أن نحيط بجغرافيا المنطقة، بما فيها علم المناخ، التي كانت مسرحاً لنشاط هذا الشعب في تلك الحقبة التاريخية المعينة من الزمن، وبغير هذا يصير التاريخ ضرباً من الفرضيات أو التخمينات العاجزة عن تفسير كثير من الظواهر السكانية أو الحضارية، وهذا ما هو سائد اليوم في كل الكتب أو معظمها التي تؤرخ لشعبنا العربي انطلاقاً من الواقع المتصحر لشبه جزيرة العرب اليوم.

أما نقطة البداية التي نختارها للحديث عن جغرافيا المنطقة فهي حوالي الألف الرابع عشر قبل الميلاد.

يجمع علماء التاريخ والجغرافيا والمناخ في العالم اليوم على أن نهاية أخر عصر جليدي مرت به الكرة الأرضية كانت في حوالي الألف الرابع عشر قبل الميلاد التي معها كانت بداية عصرنا الدفيء الحالي والذي قد يستمر عشرات الآلاف من السنين (هشام الصفدي، "تاريخ الشرق القديم"، جامعة دمشق، 1983-1984، الجزء 1، ص 78-79).

في تلك الحقبة تحديداً كانت كتل الجليد بسماكة مئات الأمتار تغطي مساحات شاسعة من الشمال وحتى الخط الذي يمر في وسط فرنسا، وكان الحزام الحي "أي المفعم بالحياة وبشروط تطور الإنسان والحضارة"، هو الممتد من جزيرة العرب وعبر ضفتي المتوسط الشمالية والجنوبية وصولاً إلى الشواطئ الأمريكية الوسطى والجنوبية. لقد كانت "طبقات الجليد السميكة تغطي أمريكا الشمالية وغرب أوروبا مثل الجزر البريطانية والأراضي المنخفضة وفنلندا والدانمارك ومنطقة الألب، وكانت روسيا مركز الإشعاع الجليدي في شرق أوروبا حيث وصلت المجلدات إلى أوكرانيا والدانوب وشمال ووسط الأورال على جبال تايمير ومناطق أخرى من سيبيريا، وزحفت مجلدات عملاقة من جبال جوكوتكا وجماكاتكا وآسيا الوسطى وظهرت المجلدات في جبال أستراليا والشيلي ونيوزلند" (أ. كوندراتوف، "الطوفان العظيم بين الواقع والأساطير"، دار وهران، ترجمة د. عدنان عاكف حمودي، الطبعة الأولى، دمشق 1987، ص 62).

أما شبه جزيرة العرب فقد كانت أخصب بقعة على سطح الكوكب وأكثرها ملاءمةً لوجود الإنسان والحيوان والنبات ولنشوء الحضارة. ففي الشرق منها كانت جنة العرب الأولى قبل أن تغمرها مياه

البحر وتشكل ما يعرف اليوم بالخليج العربي، تجري من تحتها أنهار دجلة والفرات وبيشه لتصب جميعاً في بحر العرب بعد أن غذت تلك المنطقة عبر عشرات آلاف السنين بطبقات لحقية وفرت لها درجة من الخصوبة لم تعرفها أية بقعة أخرى. وكان يغطي منطقة صحراء الربع الخالي بحر من المياه العذبة ما تزال بقاياه قائمة حتى يومنا هذا في أربع بحيرات متصلة جوفياً عمق إحداها 400 قدم (أحمد سوسة، "ري سامراء"، الجزء 2، ص 539).

وكان وادي بيشه الذي يتحد مع وادي الرمَة وتثليث ورنيا والثرات والدواسر يخترقها من الغرب إلى الشرق جنوب البصرة ثم يتابع سيره في منطقة الجنة (الخليج العربي لاحقاً – إ. ع) ليصب أخيراً في بحر العرب.

يقول تشايلد: "في الوقت الذي كان فيه شمال أوروبا مغطى بطبقات الثلوج إلى مسافات بعيدة، وكانت جبال الألب والبيرنيه مغطاة بكتل الجليد، كان ضغط القطب الشمالي الشديد يسوق أعاصير الأمطار التي تهب على أوروبا الوسطى، ويجعلها تجتازها وتعبر إلى حوض البحر المتوسط، وتستمر في سيرها دون أن تستنزفها الجبال السورية فتصل إلى العراق وجزيرة العرب... فكانت الصحارى التي يلفحها العطش الآن تتمتع بأمطار منتظمة، ولم تكن الأمطار الذاهبة بعيداً إلى جهة الشرق أكثر مما هي عليه الآن فحسب، بل إنّها كانت موزعة على جميع فصول السنة بدلاً من أن تكون مقصورة على فصل الشتاء، وكان يعيش في شمال أفريقيا، وربما في جزيرة العرب أيضاً، حيوانات من نوع ما يوجد الآن في زيمبابوي وروديسيا" (تشايلد، "الشرق القديم"، طبعة 1964، ص 15-16).

وتؤكد نتائج أبحاث سفينة الأبحاث الألمانية "ميتيور" في قاع الخليج أنه "نتيجة لانخفاض مستوى مياه البحر خلال العصر الجليدي الأخير إلى حوالي 110 أمتار عما هي عليه اليوم، كان الخليج العربي أرضاً يابسة تتكون من منخفض يبلغ طوله حوالي 1100 كيلومتر، ووسطي عرضه 180 كيلومتراً، ولا يتجاوز عمق غوره 30-100 متر، وتشق قاع الخليج قناة حفرتها مياه النهرين تبدأ قرب الفاو لتصب في خليج عُمان. ومن الجدير بالملاحظة أن تضاريس قاع منطقة الخليج تشبه إلى حد كبير طبيعة الأرض التي يجتازها نهر الفرات في سوريا إلى درجة دفعت الباحثين للاعتقاد بأن حوض الخليج يكاد يكون استمراراً للأرض السورية، فلا يفصل المنخفضين إلا السهول الرسوبية المنبطحة المعالم، واعتباراً من أواخر العصر الجليدي الرابع "الأخير"، أي منذ حوالي 14000 قبل الميلاد تأخذ مياه البحر بالارتفاع بفعل مناخ دافئ يسود الكرة الأرضية خلال عصر الهولوسين "الدفيء". وباستثناء انقطاعين عارضين حدث الأول حوالي 10000 سنة ق. م والثاني حوالي 8000 سنة ق. م بفعل التذبذبات المناخية، تابع ماء البحر ارتفاعه واستمر يغمر منطقة الخليج، حتى استقر مستواه تقريباً اعتباراً من حوالي 4000 ق. م على وضعه الراهن في القرن العشرين. وبذلك انفصلت المرتفعات التي ستعرف فيما بعد باسم البحرين وفيلكا وبوبيان وغيرها من الجزر عن الأرض العربية التي تحولت بدورها إلى شبه جزيرة وبلغ ارتفاع منسوب المياه إلى 120 متراً" (هشام الصفدي، المرجع السابق، ص 76 و81).

(لاحظ أن هذا يثبت الوجود العربي في محيط الخليج العربي، خاصة في البحرين والجزر الثلاث طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى، ناهيك عن الأحواز، منذ ما لا يقل عن 14 ألف سنة قبل الميلاد حتى اليوم دونما انقطاع – إ. ع).

تلكم هي لوحة جزيرة العرب الجغرافية والمناخية التي كانت مهداً للحضارة على هذا الكوكب، والتي كانت تمتد حدودها من ضفة الخليج الشرقية شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، ومن البحر الأسود شمالاً "البحر الأعلى" إلى بحر العرب جنوباً "البحر الأدنى" (لاحظ أن هذا التوصيف يضم كل هضبة الأناضول في تركيا الحالية – إ. ع).

ومنذ أن تأسست أول دولة مركزية في المنطقة، وهي دولة سرجون الأكادي في الألف الثالث قبل الميلاد، وحتى نهاية عهد الملكة زنوبيا، حافظت الدولة على هذه الحدود دونما أي تفريط أو تجزئة خلال ما يقرب من ثلاثة آلاف عام.

السكان واللغة:

بعد هذا الرسم التوضيحي الموجز للخارطة الجغرافية والمناخية التي بها نشأ وعاش وتحرك وتطور وأبدع أول حضارة في العالم الشعب الذي نعرِّفه اليوم بالشعب العربي يصير من اليسير علينا أن نحل كل الإشكالات المفروضة، وأن نفسر بسهولة كل تلك التحركات السكانية العربية سواء على هذا المسرح أو في خارجه. ولم تعد – بعد هذا – مسألة خروج العرب السومريين من منطقة الجنة في أرض الخليج إلى الجنوب العراقي لغزاً يسهم المستشرقون في جعله محيراً رغم كل الدلائل والمكتشفات. إذ إنَّ منطقة ما قبل الخليج كانت جزءاً من ثقافة كبيرة معاصرة – كما أكدت النتائج التي قدمتها بحوث سفينة الميتيور – انتشرت مراكزها في الجنوب الرافدي وجواره قبل أن تجبر مياه البحر الصاعدة أهلها على الرحيل تدريجياً إلى مواطن جديدة.

لقد صار ثابتاً اليوم أن هذه الظاهرة هي التي أجبرت سكان الجنة العربية القديمة في أرض الخليج إلى أن ينتشروا إلى الجوار الشرقي، فنقلوا إلى شواطئ الهند الغربية ما دعي بحضارة ما قبل الهندية والتي تعود إلى الألفين السادس والخامس قبل الميلاد. وقد دعيت اللغة المكتشفة هناك بـ "الدرويدية"، وهي عربية شقيقة للعربية السائدة حينذاك في شرق شبه جزيرة العرب.

يقول كوندراتوف: "ويجد اللغويون معالم التشابه بين لغة الدرويديين ولغة العبيديين الذين عاشوا في وادي دجلة والفرات قبل السومريين وكثيراً ما كانوا يتحدثون عن الوطن الجد الغريق وعن "مملكتهم التي ابتلعتها مياه البحر" (أ. كوندراتوف، المرجع السابق، ص 62).

كما أنَّ الظاهرة نفسها هي التي أجبرت العرب الآخرين الذين حلوا في أرض سومر من جنوب العراق ودعوا بالسومريين ناقلين معهم تراثهم وقصصهم وذكرياتهم عن "الوطن الغريق" و"بحر الوطن" و"الجنة المفقودة تحت الماء" وجنة "دلمون" البحرية.

يقول البرفسور "جاك لابيري" أكبر علماء المناخ في أوروبا اليوم بهذا الصدد ما يلي: "إن حضارات القدامى بزغت وتلاشت بفعل حركة ارتفاع أو انخفاض منسوب البحر والمياه فوق مستوى الأرض. لنأخذ مثلاً السومريين، لقد ظهروا فجأة منذ حوالي ستة آلاف سنة عند نهري دجلة والفرات. كانوا يملكون أسلحة متطورة بالنسبة إلى ذلك الزمان، ويعيشون حضارة ناشطة، فمن أين جاؤوا؟ إن علم المناخ والأرصاد يدل على أنه حين كان سطح المحيط منخفضاً، أي أقل ارتفاعاً عما هو بمئة متر. فالسومريون كانوا موجودين في مكانٍ ما، من المؤكد أنهم كانوا قرب نهر يؤمن لهم الشرب واستمرارية الحياة. آنذاك، كان البحر يغطي مدخل الخليج العربي الحالي، وكان نهر دجلة والفرات نهراً واحداً يسير وسط منطقة الخليج "الحالي" ليصب في المحيط الهندي. إذن كان بحر الخليج أرضاً يابسة يجتازها النهر المذكور. كان سهلاً واسعاً وخصباً، وفي هذا السهل ومنذ آلاف السنين حيث كان مستوى البحر منخفضاً 100 متر حدثت حتماً عملية انتقال الإنسان من حالة العصر الحجري القديم إلى حالة العصر الحجري الأخير "المزارعين الثابتين". لقد تم ذلك منذ 8 أو 9 آلاف سنة، وقد ظل سطح البحر يرتفع منذ سبعة آلاف سنة دافعاً بالسومريين الأوائل إلى منطقة الشمال الغربي. فبلغ البحر، ومنذ خمسة آلاف سنة، المستوى الحالي الذي نعرفه. فاستقر
السومريون في مدينة أور وضواحيها، والمعروف أن المدن الكبرى القديمة في بلاد الكلدان توجد على بعد 140 كيلومتراً تقريباً من هذه الأراضي. وهذا المستوى كان الأقصى الذي بلغته مياه البحر منذ 5500 سنة، وحين انحسرت مياه البحر في ما بعد بقي السومريون حيث كانوا" (لقاء مع د.

جاك لابيري، مجلة "الصفر"، عدد أغسطس/ آب 1987، تصدر عن شركة إنترسبايس للنشر بالتعاون مع المركز العربي للدراسات الدولية، ص 41).

وهذا أيضاً ما أكده عالم الآثار الأمريكي جوريس زارينس الذي ظل يعمل في الآثار في المنطقة الشرقية من الأراضي السعودية زهاء عشرة أعوام... فتوصل من خلال المكتشفات إلى النتائج نفسها. وقد أجرت معه إحدى المجلات الأمريكية لقاءً مطولاً في عددها الصادر في أيار 1987 تحت عنوان "هل تم العثور أخيراً على موقع جنة عدن" أكد فيه أن الموطن الأصلي للعبيديين هو الطرف الشرقي لشبه جزيرة العرب وأنهم أسلاف السومريين الذين خرجوا من أرض الخليج حيث "جنة عدن" العربية، وكانوا هم، لا السومريون، بناة المدن والحضارة في جنوب العراق" (ريبورتاج حول نتائج أعمال عالم الآثار الأمريكي "جوريس زارينس" في العربية السعودية ضمن بحث: "هل تحدد أخيراً موقع جنة عدن؟"، مجلة Smithsonian الأمريكية عدد مايو / أيار 1987، ص 127 – 134).

اللغة وعروبة السكان:

يجمع المؤرخون اليوم أن علم "الألسنيات" هو أصلح الأشياء لمعرفة الأصول السكانية والأعراق ومركز نشوء الحضارة الذي منه انتقل الإشعاع إلى غيره من الأنحاء، فاللغة هي وحدها القادرة على تحديد الهوية القومية لهذا الشعب أو ذاك. لكنه لكي تتمكن اللغة من الاضطلاع بهذا الدور لا بد لها من أن تعيش عملية ما يدعى بالتواصل التاريخي، وهو ما لا ينفصل عن التواصل التاريخي للشعب الذي يتكلم تلك اللغة، كما أن أي احتلال يفرض لغته على شعب ما يبقى ظاهرة طارئة مؤقتة يستمر التواصل اللغوي القديم بعده. ولما كانت اللغة تلازم الإنسان منذ أن بدأ العيش في جماعة وتتطور معه حاملة كل هواجسه وفكره ومعاناته وإبداعاته فهي بالتالي وحدها التي تحمل ملامحه النفسية والثقافية والحضارية، وتحدد بالتالي هويته القومية.

بالإضافة إلى ذلك، لا بد من التذكير بالأمور التالية:

1 – أن اللغة شيء، والكتابة شيء آخر، فالأولى تنشأ وتتطور قبل الثانية بآلاف السنين، وقد تبتكر عدة كتابات في آنٍ واحد للغة واحدة كما حصل مع اللغة العربية، كما شرحنا في كتاب "تاريخ سوريا القديم" (أحمد داوود، "تاريخ سوريا القديم، تصحيح وتحرير"، دار المستقبل، دمشق 1986، ص 585-600).

2 – لهجات أي لغة قد تقل أو تكثر، لكنها تبقى لهجات، ولا يصح أن يطلق عليها اسم "اللغة"، لأنها تنتمي جميعها للغة أم واحدة.

3 – كثيراً ما يفرض تطور الحياة موت كلمات وسقوطها من الاستعمال اليومي وولادة كلمات جديدة من صلب الخميرة اللغوية نفسها، وتبقى الكلمات الميتة، رغم ما قد يبدو عليها أنها غريبة وغير مفهومة، منتمية إلى اللغة الأم، وعلم تاريخ اللغة هو الذي يحفظ لها هويتها سواء في القواميس أو كتب فقه اللغة الأخرى.

4 – إن الكتابة الأبجدية وحدها أي الكتابة التي تحلل الكلمة إلى أصوات، وترسم علامة لكل صوت، هي وحدها التي تكشف لنا حقيقة هذه اللغة وهويتها.

5 – أما ما قبل الكتابة فإن الأسماء المحفوظة منذ القدم للمدن والأرباب والمواقع الجغرافية وللمتميزين من الأفراد هي أفضل ما يمكن أن يميز انتماء أصحابها القومية أو اللغوية.

6 – ينبغي ألا يغيب عن البال أن ما دعي بالكتابة التصويرية التي تصور فكرة ما لا صوتاً، والكتابة المقطعية التي تضع رموزاً وعلامات لمقاطع كثيرة يجري الاتفاق على معانيها فيما بين واضعيها، وهما المرحلتان الأوليان من مراحل اختراع الكتابة ما قبل الأبجدية، لا تبين هوية هذه اللغة أو تلك لأنها لا تصور أصواتها، بل تبقى نوعاً من "الشيفرة" التي تستخدم ضمن أطر جدّ ضيقة كدائرة الحكام ورجال المعبد في التاريخ القديم.

بعد هذه الملاحظات توجب علينا الآن أن نقترب مباشرة من موضوع المنطقة العربية وهوية سكانها القومية منذ القدم كما تحدّده اللغة.

"سر" و"مر" و"رب" أشهر مشاهير الآباء العرب الأقدمين

منذ أن بدأ إنسان هذه المنطقة أول ثورة زراعية في العالم، كما يؤكد اليوم جميع الباحثين الذين يختلفون على تحديد زمن بدايتها ما بين الألف الثاني عشر والألف الثامن قبل الميلاد، بدأت معها أول عقيدة للخصب في العالم التي تعتمد في جوهرها على تقديس الخصب بأقانيمه الثلاثة: الرجل – الزوج – الأب – المخصب، والمرأة – الزوجة – الأم – حاضنة الخصب ومتعهدته إلى عطاء وثمرة، والابن نتاج الخصب – الثمرة... فقدست الخصب، الإثمار، الوفرة، التكاثر، ولعنت العقم.

ولما كانت الأرض هي الرحم الذي يحتضن البذور ويتعهدها بالإنماء والاطلاع والإثمار والإكثار فقد تقدست الأرض في عقيدة الخصب وصارت الأم الكبرى ترمز إلى الأرض، ولما كانت السماء، أو السحاب، أو المطر هي التي تخصب الأرض، والشمس تدفئها وتطلع النبات والزرع، فقد صار الأب أو الزوج رمزاً للسماء أو الشمس في عقيدة الخصب التي تعتمد دائماً على قطبين: الذكر والأنثى، الرجل والمرأة، السيد والسيدة الخ...

ولم يكن ذلك ليحدث دون أن يجد له انعكاساً في اللغة التي تحتضن كل فكر وإبداع هذا الإنسان منذ القدم. فلقد تميز من بين الآباء العرب القدامى الذين تقدسوا في عقيدة الخصب الزراعية مجموعة كبيرة من الأسماء كان من بين أبرزها جميعاً ثلاثة هم: "سر" و"مر" و"رب" وكل منها يعني "السيد".

أما "سر" الذي تؤكد كل الدلائل على أنه كان متميزاً في منطقته الشرقية، فيعني السيد العلي، ومؤنثه "سرت" و "سري" ويعني السيدة العلية. وما تزال اللغة العربية تحتفظ لنا بالأصل حتى اليوم فكلمة "سري" تعني السيد، العالي، وسراة القوم سادتهم، والسراة الجبال المرتفعة، والسروات القمم، والسرو الشجر المرتفع، و"سارة" هي السيدة والملكة، وإذا ما أضفنا نون الجمع تصبح "سرن" وتعني السوريين أو السريان لأن العربية القديمة لم تكن تكتب الصوتيات "أ، و، ي". وقد اكتشفت المدينة التي سميت باسمه وفي موطن إقامته وهي "سار" قرب البحرين وتعود إلى آلاف السنين قبل الميلاد، وقد عثر فيها مؤخراً على لؤلؤة هي الأكبر من نوعها في العالم حتى اليوم، وإلى جانبها مدينة "سارة" أو "تارة" وتعود للفترة نفسها، وقد انتشر أبناؤه وأحفاده في المنطقة الشرقية من الأرض التي دعيت فيما بعد بالأرض العربية، وكانوا جميعاً يتكلمون العربية بلهجتها الشرقية التي دعيت "سريانية"، ولما أقيمت الدولة المركزية وجعلت عاصمتها "أجادا" ثم بابل وأشور ونينوى سادت العربية بلهجتها السريانية الشرقية كلغة رسمية في شتى أرجاء الدولة كلها واستمرت زهاء ثلاثة آلاف عام. وبالرغم من أن المستشرقين أخذوا يسمونها مرة أكادية، وأخرى بابلية وآشورية وكلدانية، فقد ثبت أخيراً أنها لغة واحدة هي العربية القديمة بلهجتها الشرقية السريانية، وصار السكان يعرفون بالسوريين أو السريان، وصارت الأرض سوريا من "سري" أي السيدة و"سورية" من "سرت" أي السيدة.

ويؤكد لنا "كريمر" الحقيقة التي أكدها غيره وهي أن الأكادية هي نفسها البابلية والآشورية، وهي نفسها التي دعيت خطأ بـ "الكلدانية". أما "مر" و"مرت" أي السيدة، وما تزال قواميس اللغة تحتفظ لنا بهذا المعنى حتى اليوم إذ نجد في القاموس أن "ماري" تعني السيدة والسيدة البيضاء تحديداً، كما أن "مرْت" ما تزال تستخدم في العربية الدارجة حتى اليوم، وما تزال كلمة "مار" مستخدمة مع

ألقاب الآباء المقدسين في المسيحية حتى الآن، فيقال: مار إلياس ومار يعقوب، أي السيد إلياس ويعقوب، الخ...

وقد كانت سكنى الأب "مار" في الغرب، وكانت تسمية مدينة "ماري" في الشمال السوري وعمريت على الساحل تجسيداً لهذا الوجود ودعي أبناؤه وأحفاده فيما بعد بالآموريين أو العموريين، وقد حكم منهم في عاصمة الدولة المركزية كثير من الملوك نذكر من بين أهمهم آمورابي "حمورابي" الذي جعل بابل عاصمة الدولة المركزية وكثير من الملوك من بنيه وأحفاده الذين حكموا من بعده.

وكما انداح العرب السريان شرقاً إلى أن بات يذكر اليوم أنهم هم مؤسسو حضارة وادي السند، انداح الآموريون غرباً، ومن بينهم الفينيقيون، عبر شطآن المتوسط وصولاً إلى الشواطئ الأمريكية، فسمي البحر المتوسط باسمهم "بحر آمورو" وأطلقوا أسماءهم على القارات والجزر والمدن والجبال، فأوروبا سميت باسم الأميرة الفينيقية بنت ملك صور، وليبيا كانت تطلق على أفريقيا، وهو اسم أمها أو جدتها لأبيها.

وأما "رب" فتعني "السيد" أيضاً، ومؤنثه "ربت" وتعني السيدة، أما منطقة سكناه وبنيه وأحفاده ففي جوف شبه جزيرة العرب، وأطلق على بنيه وأحفاده اسم "آربي" أو "عربي" والمنطقة أربت أو عربت وهي ما يعرف اليوم ببرية شبه جزيرة العرب بعد أن أصابها التصحر، وهناك في جنوب عسير تحديداً توجد مدينة "الربة" حتى اليوم. (ومدينة "ربة عمون"، كناية عن عمان، الأردن، قبل أن يغير اسمها الإغريق إلى فيلادلفيا – إ. ع).

وإذا ما أخذنا بعض أسماء المدن التي تعود إلى عصور ما قبل الكتابة لوجدنا أن التسميات هي عربية أيضاً. لنأخذ واحدة من الشمال وهي شتال أيك، وتكتب أحياناً "شتال إيوكو"، فتعني مزرعة الربة، النظيرة، المثيلة، القرينة للرب. إن كلمة "شتال" واضحٌ اشتقاقها من "شتل"، أما "إيكو" فهي من "ايك" في العربية القديمة وتعني مثل نظير، ومنها كان اسم ميكا إيل أي المماثل لإيل، نظير الرب، وهي مدينة عربية اكتشفت آثارها في قونية في تركيا حالياً تعود للألف الثامن قبل الميلاد، اكتشف فيها تماثيل ربة الخصب السورية الأم الكبرى.

والمثال الآخر من الجنوب وهو مدينة "أريحا" في فلسطين الحالية التي يعود زمن بناء سورها أيضاً إلى الألف السابع قبل الميلاد، وكلمة أريحا و"أرحتا" تعني حرفياً الاستراحة وليس مدينة القمر من "يرحو" وهو الهلال أو القمر كما يزعم البعض اليوم. وعلى أية حال فالتسمية في كلتا الحالتين عربية صميمة. ولو انتقلنا الآن إلى مرحلة اختراع الكتابة بالأبجدية الحرفية التي كان لأجداد العرب فضل اختراعها، فحققوا بذلك ثاني أهم ثورة في تاريخ التمدن البشري بعد الثورة الزراعية، لوجدنا أن الصورة أضحت جلية لا لبس فيها. لأن لغة هؤلاء السكان التي ظلوا يتكلمون بها شفهياً آلاف السنين قبل اختراع الكتابة تتكشف لنا الآن حقيقتها العربية الصميمة من خلال تصويرها بالكتابة الأبجدية الحرفية، لأن هذه الأخيرة لا تترك أي لبس في الأمر، إذ هي تصور أصوات الكلمة حرفاً حرفاً، وبالتالي فإن كلمة "شمس" مثلاً، التي أجد فيها ثلاث علامات لثلاثة أصوات هي الشين والميم والسين، لن يبقى ثمة مجال لأن أقرأها: نجم، نور، ضوء، يطلع، يضيء، الخ... كما كان الأمر مع الكتابة التصويرية، فانجلى بذلك كل غموض كان يكتنف حقيقة اللغة التي تكلم بها سكان الوطن العربي القديم، فالأبجدية العربية، منذ أن وضعها أجدادنا الأقدمون هي: أبجد هوز حطي

كلمن سعفص، قرشت... اثنان وعشرون حرفاً واثنتان وعشرون علامة، كان أعظم اختراع أبدعه شعب في تاريخ التمدن البشري. ولو عدنا إلى أسماء حروف أبجد مثلاً لوجدناها: ألفا، ويعني ثور، بيتا، ويعني البيت، جاما، ويعني الجمل، دلتا، ويعني باب الخيمة "شكل المثلث".

ولا بد هنا أن نلفت الأنظار إلى نقطة لغوية كبيرة الأهمية تؤكد وحدة الشعب العربي اللغوية منذ أقدم العصور، وهي أن جميع هؤلاء الآباء الأوائل اقترنت عملية تقديسهم بتقديس الخصب. فالأب الأكبر والأم الكبرى تجسيد لعملية الإخصاب الكونية العظمى المقدسة. ولإيضاح ذلك يكفي أن نضيف إلى أسماء أولئك الآباء أول حرف بالأبجدية العربية القديمة وهو الألف الذي يعني الثور، والثور رمز الخصب في عقيدة الخصب، والذي كثيراً ما يتبادل مع العين الموقع والعمل والوظيفة، لنلتقي فوراً بالصورة الكونية الأولى المقدسة لدى القدماء: صورة الخصب الكوني. والطريف في الأمر هو أن لغتنا العربية ما تزال تحفظ لنا في صدرها هذا الكنز العقائدي الأصولي الصميم منذ آلاف السنين وحتى اليوم. إن كلمة "سر – أ" تعني أخصب، وسرأت السمكة باضت، والمرأة كثر أولادها، وأسرأت أيضاً أخصبت وحان أن تبيض.

وكلمة "مر –أ" أخصب وألقح وجامع، والمروءة في أصلها كمال الفحولة والإخصابية وكمال الرجولية، والمرء هو الذكر والمرأة الأنثى. أما "مر – ع" فتعني أخصب أيضاً. ومرع الوادي أكلأ وأخصب بكثرة الكلأ. وأمرع القوم كانت مواشيهم في خصب. والمريع الخصيب، والأمروعة الخصبة، والممراع الخصيب، ورمعت (بالإبدال بالقلب) المرأة أيضاً ولدت.

وكلمة "رب – أ" زاد وكثر ونما.

وكلمة "رب – ع" بالإبدال بين الألف والعين تعني أيضاً أخصب وأربع فلان أكثر من الجماع، وربيع رابع أي مخصب، والربيع أي الخصيب، وهو فصل الخصب.

أما إذا أضفنا الألف إلى أول تلك الأسماء ليصبح نداً لكل من الحرفين في الاسم تألفت أقانيم الخصب الثلاثة الزوج والزوجة الابن، ويصبح معنى الكلمة كما يلي:

"أ – سر" أي ابن سر أو أبناؤه. "أ – مر" أو "عمر" بالإبدال الشائع بين الألف والعين، أي أبناء "مر"... "أ – رب" أو "ع – رب" ابن رب أو أبناؤه...

وبناءً على هذا فقد توزعت اللغة العربية القديمة إلى ثلاث لهجات رئيسية هي: السريانية في الشرق، والأمورية في الغرب، والعرباء أو "النقية الشديدة العروبة مثل ليلة ليلاء" في جوف جزيرة العرب.

وبينما كانت اللهجة الشرقية تضيف الصوت "و" إلى آخر الأسماء كانت الغربية أو الأمورية كانت الغربية تضيف الصوت "أ" والعرباء تضيف التنوين. إن كلمة "جمل" مثلاً كانت في الشرقية "جملو" وفي الغربية "جملا" أو "غملا"، إذ كان الأموريون الفينيقيون يلطفون أحياناً حرف الجيم إلى "غ".

وهذه هي اللهجة التي ما تزال تتحدث بها قرية معلولا حتى اليوم ويدعوها المستشرقون آرامية، بعد أن زُوِرت جغرافيا الأحداث التوراتية، وهذا غير صحيح. (كما يرى د. أحمد داوود في الأجزاء اللاحقة من كتابه – إ. ع).

وحينما كان يريد سكان أجادا زمن سرجون، أو سكان بابل زمن حمورابي أن يقولوا بلهجتهم الشرقية مثلاً "الجمل يرعى العشب"، كانوا يقولون "جملو روعي عسبو" بينما كان الفينيقيون يقولون "غملا روعي عسبا" الخ...

وهكذا يتبين لنا بوضوح بعد كل ما تقدم، كيف أن اللغة كشفت هوية السكان القومية العربية منذ أن ظهرت النصوص والرقم المكتوبة بالأبجدية الحرفية، وتبين كيف أن العربية هي اللغة الأم الموزعة إلى لهجات رئيسية تتفرع هي الأخرى بدورها إلى لهجات فرعية كثيرة، وهذا أمر طبيعي.

ولقد أضافت اللهجة العرباء في وقت متأخر الأحرف الستة "ثخذ ضظغ" إلى الأبجدية الكتابية ودعيت بلغة الضاد تمييزاً لها عن شقيقتيها السريانية الشرقية والآمورية (والفينيقية جزءٌ منها) الغربية، ودعينا بالعجميتين أي الصعبتين على الفهم لأن عجم واستعجم ما صعب فهمه ولو كان عربياً، وليس نسبةً إلى أية لغة أجنبية أخرى، ولقد كانت كل من السريانية الشرقية والعمورية الغربية تستعيض عن الضاد بحرف العين في أغلب الحالات. إن كلمة "ضأن" أو "غنم" كانت بالشرقية "عانو" وبالغربية "عانا"، وكلمة "بيضة" كانت "بيعتو" و"بيعتا"... ولسنا هنا في مجال الاستطراد خلف الأمثلة والشواهد الكثيرة.

أما لماذا لم يسجل هؤلاء الأجداد لنا في مدوناتهم انتماءهم العربي أو لماذا لم يطلقوا على دولتهم نعت العربية، فإن ذلك لم يكن يشكل مسألة قائمة في ذلك الزمن، فقد كانت دولتهم هي الوحيدة سواء في سوريا، أم في وادي النيل، وكانت العروبة شيئاً يعيشونه ويمارسونه من خلال اللغة الواحدة كما يتنفسون الهواء ويشربون الماء دونما أي ما من شأنه أن يشعرهم بأن عليهم أن يؤكدوا هويتهم، إذ

إنّهم كانوا أينما تنقلوا وحلوا من الخليج شرقاً إلى الأطلسي غرباً ومن شواطئ البحر الأسود شمالاً إلى بحر العرب جنوباً يجدون أن لغتهم هي لغة التفاهم والتواصل الوحيدة.

فكان التمايز والتنافس ليس مع دولة أجنبية ولم يكن لها بعد من وجود، بل مع منافسين داخليين، وكانت ألقابهم في بلاد اليونان مثلاً "السادة، المعلمون، أبناء الآلهة"، وهذه الظاهرة نفسها تنسحب على الدولة الأموية أو العباسية ولم تنفِ عنهما صفة العروبة، وتجدر الإشارة هنا إلى أن أولئك السوريين الفينيقيين الذين حكموا في الخارج، ولاسيما في روما، وشعروا بالتنافس الخارجي سرعان ما كانوا يعمدون إلى الإصرار على إبراز أصلهم العربي، فها هو "سبتيمو سفيرو" إمبراطور روما، وهو فينيقي من لبدة، أي طرابلس الغرب حالياً، أصر على أن يكون "العربي" من بين ألقابه الثلاثة (جان بابلون، "إمبراطورات سوريات"، ترجمة يوسف شلبي الشامي، دمشق 1987، ص 80 – 81).

وقد حكم سبتيمو سفيرو وزوجته الحمصية جوليا دومنا (ودومنا يعني بالفينيقية المثيلة، النظيرة) وقد عبدها الرومان فتحولت من إمبراطورة إلى ربة، ثم جاء ابنها جيتا (ومعنى اسمه بالفينيقية "نعيم")، ثم ابنها كراكلا (ويعني اسمه "حصن الرب")، ثم ابنة اختها جوليا ميزا ثم جوليا سميا ثم جوليا ماميا. كما أن فيليب العربي من شهبا في حوران كان الإمبراطور العربي السابع الذي حكم روما هو الآخر على أن يكون لقبه الأوحد "العربي"، فدعي "فيليبو أربيو"، وترجم إلى اللغات الأخرى Philip the Arab، ولم يكن ذلك سوى إحساس أكيد من أولئك الفينيقيين العظام بانتمائهم العروبي الأصيل وهم يبنون حضارة روما. ويؤكد كثير من المؤرخين اليوم، كما أكد المؤرخون الأقدمون والمحدثون، أنه حكم روما جيلان من الأباطرة: جيل من النبلاء المثقفين السوريين، وجيل من الهمج اللاتين.

بقي أن نشير هنا إلى أن شبه جزيرة العرب زمن الخصب لم تكن مسرحاً للبدو، وكانت تضاريسها تتوزع بين السراة أي الجبال وبين البادية أي الأرض المكشوفة، ولم تصبح كلمة "بادية" مرادفة لـ "صحراء" إلا بعد أن أصابها التصحر وغلب عليها في حوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد فصارت برية العرب "عربت سابقاً" مسرحاً للعرب البداة الرعاة المنتقلين وشبه المستقرين، ثم ما لبثت كلمة "عرب" أو "أعراب" تطلق على سكان تلك البرية من سكان "عربة" تحديداً دون سواهم، وقد التصقت بهم صفة البداوة، وسكن الصحراء. لكن هذا يجب ألا يجعلنا نغفل عن عروبة البقعة التي كانت تمتد من البحر الأعلى إلى البحر الأدنى، ومن الخليج العربي إلى المتوسط فشاطئ الأطلسي والتي غذت بالعنصر العربي أفريقيا الممتدة من الحبشة والصومال شرقاً مروراً بوادي النيل والسودان وصولاً إلى شاطئ الأطلسي غرباً، تشهد على ذلك اللغة والفكر والثقافة والديانات والأساطير والتقاليد والآثار المكتشفة، وبتعبير آخر: وحدة السكان والثقافة والحضارة على مدى سبعة آلاف من السنين.

الإنسان العربي هو الأصل والأرض العربية هي المهد:

قبل أن ننتقل إلى الحديث عمن دعوا بـ "الساميين" نرى أن لا بد لنا من التوقف قليلاً عند الحقائق التالية:

1 – لقد ثبت علمياً وتاريخياً ووثائقياً أن الأرض العربية هي مهد الإنسان العاقل الأول على هذا الكوكب، وأن وجوده عليها بقي مستمراً دونما انقطاع خلال عشرات الآلاف من السنين. هذا ما أكده مؤخراً جميع علماء إنسان ما قبل التاريخ، وقد أغنى البروفسور "كون" الأستاذ في جامعة بنسلفانيا هذه الحقيقة بالنتائج التي توصل إليها من خلال حفرياته في "غاري" (ثنية البيضا) و"جرف العجلا" القريبة من تدمر مؤكداً أن سوريا والصحراء العربية التي كانت جنة من الخصب على الأرض قبل أن يصيبها التصحر في العصر الدفيء الأخير إنما هي مهد إنسان الهومو سابيانس Homo Sapiens جد الإنسان الحالي، والمكان الذي انطلقت منه كل الأقوام التي سكنت كل القارات، فقد عثر في المكانين المتقدم ذكرهما على أدوات صوانية وبقايا عضوية من العهدين الأشولي والموستري الليفالوازي، ويعود تاريخ الزمن الأول إلى 60 ألف سنة قبل الميلاد، والزمن الثاني إلى 30 ألف سنة قبل الميلاد، مما جعل الأستاذ "كون" يقول أن هذا الإنسان أقام في تلك البقعة 30 ألف سنة متعاقبة، وهذه المدة الطويلة لم تتحقق لأية إقامة بشرية في أية بقعة أخرى من العالم، وقد وجد الإنسان العاقل في غابات المنطقة المكتظة والمندثرة حالياً، ومراعيها الخصيبة الزائلة، خير مكان يقطنه ويتطور فيه خلال الأزمنة التي كانت فيها الحياة متعذرة في أماكن أخرى بسبب الجموديات والثلوج...

وكل الدلائل تشير إلى أن عناصر عربية هائلة يطلق عليها المؤرخون اسم الآكاديين أقامت خلال الألف الرابع قبل الميلاد في العراق وصحراء الشام وسورية (الحالية) وأسهمت في إنشاء وتطوير جميع المدنيات التي نعرفها من مكتشفات موقعي تل حلف والعبيد وغيرهما. (سليم عادل عبد الحق، مدير الآثار العام الأسبق في سوريا، "سوريا أرض عربية تطفح بروائع الآثار"، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد السابع 1957، ص 10-11).

2 – إن التراكمات الحضارية الكمية للتجمعات البشرية لهذا الإنسان هي التي أدت بالضرورة إلى تطورها النوعي، فكانت منشئة أولى قرى الصيادين في العالم وكانت أول من عرف التدجين والزراعة والتجارة والدين والحرفة والفن والعلم والأسطورة وغيرها. وذلك منذ أن أنجزت أول ثورة زراعية في العالم حوالي الألف الثاني عشر قبل الميلاد.

3 – إن عقيدة الخصب الزراعية التي أبدعها إنسان هذه التجمعات قد تركت لنا تراثاً هائلاً زودنا بمعطيات أساسية قد مكنتنا من الكشف عن حقيقة هويته القومية العربية من خلال أسماء الأرباب والمدن والأبطال الخالدين من أبنائه، فمن المعروف أنه ما إنْ انتقل هذا الإنسان من حياة الصيد والتنقل إلى حياة الزراعة والاستقرار حتى انتقل التقديس من القمر راعي الرعاة إلى الشمس راعية الخصوبة والإنبات وإنضاج المحاصيل. فصارت أسماؤها والصفات المقترنة برب الشمس هي السائدة في كل أرجاء الوطن من الخليج العربي إلى البحر المتوسط، ومن أعالي الفرات إلى أعالي وادي النيل. ومن أسماء الرب الشمس في ديانة الخصب العربية: الرائي، الراعي، العلي، الرقيب، الحامي، البهي، السني، المنير، المعجز، أو صاحب الآيات والأعاجيب، فكانت كل منطقة تتوجه إلى الشمس بأحد أسمائه هذه، "أنو" في منطقة السراة والخليج، و"رن" (الرائي البصير، الشفوق) في

منطقة السراة، و"رع" (الراعي، الرقيب، الحامي المعتني) في وادي النيل، و"أل" أو "عل" (العلي، السامي) في كل ما يدعى اليوم بشبه جزيرة العرب، ومن ألقاب "إيل" أيضاً "جرونو" وتعني بالعربية القديمة البهي، المنير، الساطع، و"زيو" وتعني البهي، السني، المتلألئ، الساطع، وهي الصفة أو اللقب الذي انتقل مع العرب السوريين إلى ما دعي فيما بعد ببلاد اليونان وتقدس هناك (تحت اسم "زيوس").

4 – وبالنسبة لعلم الآثار، فإن المتخصصين فيه وفي جميع العلوم المساعدة له من علم قراءة الخطوط القديمة أو الباليوغرافيات إلى علم اللغات، وعلم الشيفرة، وعلم الوثائق، وعلم النقود، وعلم الأختام، وعلم النقوش، وعلم الأسماء، وعلم الأقوام والعروق وغيرها قد تعاونوا معاً في قراءة آثارنا الغنية كماً ونوعاً، والتي توزعتها متاحف الدول الغربية، فشكلت تسعين بالمئة من محتوياتها المتعلقة بالعصور القديمة، وهذا طبيعي، لأن تاريخ حضارات العصور القديمة، مثله مثل تاريخ حضارات العصور الوسطى، هو في غالبيته الساحقة لا يخرج عن إطار الحضارة العربية. نعود فنقول: إن معطيات كل تلك القراءات الآثارية تؤكد جميعها وحدة الحضارة للشعب العربي في الأرض العربية كلها بكل تسمياتها: عبيدية، أو سومرية، أو آكادية، أو بابلية، أو آشورية، أو فينيقية، أو مصرية، أو غيرها.

5 – في الوقت الذي تؤكد فيه هذه المعطيات جميعها أن الوطن العربي هو مهد الإنسان العاقل ومهد حضاراته المتنوعة عبر العصور، فإنها تؤكد، في الوقت نفسه، عدم وجود أية حضارة أخرى عاقلة متواقتة مع حضاراته أو سابقة لها، وبالتالي فقد استحق بجدارة أن يسمى "مهد الحضارة" وتسقط عنه تلك التسمية المغرضة "ملتقى الحضارات"، كما تسقط معها المقولة المغرضة الأخرى حول "الحضارات الوافدة على المنطقة" ومنها حضارة السومريين، بعد أن أكد جميع العلماء المنصفين والموضوعيين في العالم بطلان مثل هذا الزعم، ومنهم إدوارد دورم الذي كتب يقول: "إن علاقات هذه الأقوام بالأمم التي كانت قبلها مقيمة هناك، وهي من نفس المنشأ، كعلاقات سكان السهوب بسكان السهول، أو العلاقات التي تعكسها الأسطورة السومرية بين أنكيدو وجلجامش، فالعربي الجديد قبل عصر التاريخ مباشرة هو أنكيدو، والعربي القديم المتمدن المقيم هو جلجامش، والاتفاق بين البطلين كان اتفاقاً بين سكان السهوب الرحل وسكان السهول من الحضر، وسيصبح نموذجاً للاتفاق الذي يجري بين فترة وفترة، وسنة وسنة، ويوم ويوم، منذ ذلك التاريخ وحتى عصرنا هذا أثناء قدوم العناصر العربية من شبه جزيرة العرب، وترشحها إلى العراق وسوريا والأردن وغيرها، كما يقول العالم رنيه دوسو" (المرجع السابق من سليم عادل عبد الحق).

إن أنكيدو في الأصل هـ نقيدو، فالهاء أداة التعريف العربية القديمة كانت تلفظ كالهمزة في كثير من الأحيان، أما "نقيدو" فهي في القاموس الأكادي أو الكلداني، أو السرياني، أو الفينيقي: راعي الغنم، ورئيس الرعاة، وفي قاموس "محيط المحيط" نجد: "النقد أيضاً جنس من الغنم قبيح الشكل صغير الأرجل يكون بالبحرين، ومنه المثل أذل من النقد، وقال الأصمعي أجود الصوف صوف النقد، وقال الشاعر:

لو كنتم ماءً لكنتم زبداً

أو كنتم ضأناً لكنتم نقدا

وهذا دليل لغوي آخر على أن أصل السومريين من منطقة الخليج حيث جنتهم الغريقة في دلمون عند البحرين.

أما "شجرة الهلبو" فهي "الحلفا" إذ إنَّ العرب القدامى كانوا يلفظون الفاء P. وهي الشجرة التي قطعتها "أنانا" لتصنع منها ال"بكو" وال"مكو" اللذين احتار كريمر في معنييهما، ثم افترض أنهما "الطبل" و"مضرب الطبل" فنقلها عنه النقلة العرب كحقيقة لغوية علمية ثابتة في الوقت الذي وضعها هو افتراضاً (صموئيل نوح كريمر، "من ألواح سومر"، ترجمة طه الباقر، مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجي بالقاهرة، دون تاريخ، ص 324).

ونحن لو فتحنا أياً من القواميس العربية القديمة لوجدنا:

"بكو" تعني النول، نول الحياكة، و"بكت" تعني نسج، حاك، أما "مكو" و"مكوكو" فتعني المكوك، وهكذا نجد أن "إنانا" قطعت شجرة "الحلفا" لتصنع من الجذع "نولاً" ومن الفرع "مكوكاً" كما هو وارد في القصة، وتظهر حقيقة اللغة التي تكلم وكتب بها العرب السومريون عربية صميمة لا تختلف عن بقية شقيقاتها العربيات إلا باللهجة. فالسومريون كانوا يلفظون القاف قريبة من الجيم المصرية كما يلفظها عرب المناطق الشرقية حتى اليوم.

من كل ما تقدم نخلص إلى النتيجة الحاسمة، وهي أن الوجود العربي في الأرض العربية سابق لوجود أي شعب آخر، وقد أبدع على هذه الأرض أولى حضارات العالم، ومنها انتقلت إلى باقي أصقاع العالم القديم.

الجزء الثاني: محمد عزة دروزة يوثق عروبة وادي النيل والعراق وبلاد الشام منذ أقدم العصور

تعريف بالكاتب محمد عزة دروزة

لم يأخذ محمد عزة دروزة الموضع الذي يستحقه بعد بين كبار الكتاب القوميين العرب بالرغم من أن مساهمته في وضع أسس الفكر القومي العربي التقليدي أو الكلاسيكي، وفي الحركة الوطنية الفلسطينية، في النصف الأول من القرن العشرين، لا يمكن إغفالها.

ولد محمد عزة دروزة في نابلس العربية المحتلة في 21/6/1887، وتوفي في دمشق في 26/7/1984. وتنتسب عائلته لعشيرة الفريحات في لواء عجلون في شرق الأردن قبل انتقالها إلى نابلس قبل حوالي ثلاثة قرون من ولادة محمد عزة، مع العلم أن مثل هذه الحركة السكانية الكثيفة عبر أجزاء الوطن العربي المختلفة كانت أمراً طبيعياً ومألوفاً منذ التاريخ القديم حتى وضِعَت الحدود المصطنعة بين "الدول" العربية في القرن العشرين، كما نرى مثلاً من أحد كتب دروزة نفسه، وهو "تاريخ الجنس العربي" (ثمانية مجلدات منشورة بين عامي 1958-1964، وثلاثة غير منشورة حتى 1988).

وقد ألف محمد عزة دروزة في زمانه عشرات الكتب والمجلدات، والكتابات الصحفية والترجمات (عن التركية بالأخص)، وكتب في التاريخ العام والتاريخ العربي والإسلامي، وفي القضية الفلسطينية وشؤونها وشجونها، وفي اليهود والصهيونية، وفي الفكر القومي والحركة العربية الحديثة، كما وضع حوالي أربعة عشر كتاباً، بعضها من أكثر من مجلد، في تفسير القرآن والسيرة النبوية، ناهيك عن ستة مجلدات فقط تمثل سيرته الذاتية وتكشف الكثير من خفايا وخبايا تاريخ فلسطين الحديث. وكان من أول كتاباته عام 1911 "وفود النعمان على كسرى أنو شروان" التي وضعها كرواية. وكذلك وضع رواية عام 1913 عنوانها "السمسار" عن اليهود والسماسرة العرب الذين يساعدونهم في شراء الأراضي... كما وضع بعض كتبه للناشئة وبطريقة تربوية، ومنها مثلاً "دروس التاريخ العربي" من جزئين (عام 1932).

دروزة لم يكن مفكراً كبيراً فحسب، بل كان مناضلاً حقيقياً انخرط في العمل السياسي، وله باع طويل في العمل السري والعسكري، خاصة في ثورة الـ36 التي يعتبر من قياداتها المباشرين. وقد انضم عام 1916 لجمعية "العربية الفتاة" القومية العربية، وكان من قيادات المؤتمر العربي الفلسطيني الأول عام 1919 الذي دعا لضم فلسطين لسوريا، وكان من مؤسسي وقادة حركة "الجمعيات الإسلامية المسيحية" التي واجهت البريطانيين واليهود قبل ثورة الـ36، ومن أعضاء قيادة "الهيئة العربية العليا لفلسطين"، ومن أقرب المقربين للحاج أمين الحسيني، في الوقت الذي كان يمثل فيه الجناح الأكثر جذرية وصلابة في الحركة الوطنية الفلسطينية، أو الخط القومي الجذري فيها. لكنه كان في السر أيضاً، مع رفاقه، من مؤسسي جمعية "فتى فلسطين" التي سعت

للإعداد للعمل المسلح منذ العام 1919 تقريباً. وكان عام 1932 من مؤسسي حزب الاستقلال ذي التوجه القومي العربي الذي كان الشيخ عز الدين القسام عضواً فيه أيضاً (فرع حيفا).

وعلى الرغم مما قد يوحي به ما سبق، لم تنحصر دائرة نشاط دروزة في نطاق فلسطين أبداً، وكان متصلاً بقوة بسوريا ولبنان بالأخص، وبمصر بدرجة أقل، حيث عمل في سيناء منذ نعومة الأظفار، وعندما رحلت الإدارة العثمانية عن بلاد الشام، تنقل دروزة بين بيروت ودمشق وعمان ونابلس، وأصبح لفترة قصيرة كاتباً في ديوان الأمير عبد الله سنة 1920، وكان قبيل النكبة مندوباً للهيئة العربية العليا لفلسطين في الجامعة العربية، ولدى حكومتي سوريا ولبنان، قبل أن يستقيل منها.

وقد سجن الفرنسيون محمد عزة دروزة عام 1939 في سجن المزة بدمشق بتحريض من البريطانيين، وبقي في السجن عامين ثم هرب حال الإفراج عنه إلى تركيا حيث بقي لاجئاً أربعة أعوام، وطارده البريطانيون هناك، فنفته الحكومة التركية للأناضول، وعاد إلى سورية عشية استقلالها، ليعود بعدها إلى فلسطين لينخرط في العمل السياسي اليومي من جديد، في الهيئة العربية العليا وغيرها، حتى عام 1948، عندما ألم به مرض كما ألمت بفلسطين نكبة، وكان قد جاوز الستين من العمر، فتقاعد عن العمل السياسي ليتفرغ للكتابة والتأليف. وقد نشرت له لجنة التأليف والنشر القومية في الجمهورية العربية المتحدة في ظل عبد الناصر مثلاً كتاب "عروبة مصر قبل الإسلام وبعده" من جزئين عامي 1960 و1961...

ومن يقرأ تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية بدقة وبين السطور، من خلال عبد الوهاب الكيالي في "تاريخ فلسطين الحديث" مثلاً، أو ناجي علوش في "الحركة الوطنية الفلسطينية أمام اليهود والصهيونية" أو "المقاومة العربية في فلسطين"، سيجد أن دروزة كان يتصف بصفة نادرة بين القيادات الفاعلة في العمل السياسي العربي وهي أنه في الوقت الذي كان يدفع فيه التوجه العام بقوة بعيداً عن التفريط والتنازلات ونحو اتجاه أكثر جذرية ووحدوية في العمل الوطني الفلسطيني، وفي الوقت الذي كان يتجشم فيه المخاطر ويتكبد المشقة، وفي الوقت الذي كان يفني فيه الساعات في العمل الدؤوب ويقضي الأيام في السفر، فإنه كان يختار دوماً أن يترك الصفوف الأمامية لغيره، ليس فقط بسبب ذوبانه في القضية التي التزم بها، بل ليورط أكبر عدد ممكن من القيادات التقليدية والمحلية محدودة الأفق، على ما يبدو، في الأطر الوطنية أو التنظيمية التي أسهم بخلقها.

وهي عملة نادرة هذه الأيام بين الناشطين السياسيين، ناهيك عن ندرة المثقفين والمفكرين الذين ينخرطون في العمل السياسي المباشر بهذا القدر من الجدية ونكران الذات، وناهيك عن ندرة الناشطين الميدانيين الذي يقدرون على إنتاج هذا الكم والنوع من الفكر...

لم يكن محمد عزة دروزة يبحث عن تميز فردي، ولذلك كان في العمل منصهراً دوماً في جماعة، كما كان في الفكر منصهراً دوماً في قضية ذاب فيها. فحق علينا في ذكرى وفاته الخامسة والعشرين عند كتابة هذه السطور أن نلفت النظر لمساهمته الجدية في تأسيس الفكر القومي العربي التقليدي، تمييزاً له عن المجدد أو الحديث المتأثر بالتيارات الحداثية أو اليسارية، في النصف الأول من القرن العشرين. أما من يرغب بمعرفة المزيد عن سيرة حياة دروزة الذي لم يكتب عنه إلا قلة تعد على الأصابع، والذي تبقى بعض كتبه مخطوطات غير مطبوعة، فيمكنه أن يطلع على المقدمة الطويلة التي كتبها ناجي علوش عن حياة دروزة لمجلد "مختارات قومية لمحمد عزة دروزة" الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية في آذار 1988.

مختارات من كتاب محمد عزت دروزة "تاريخ الجنس العربي في مختلف الأدوار والأطوار والأقطار":

تقديم: نعرض أدناه مقتطفات من هذا الكتاب المنشور بين عامي 1958 و1964 في ثمانية مجلدات كما جاء أعلاه، تأكيداً على عروبة كل أجزاء الوطن العربي، ورداً على محاولات شطب الهوية العربية وتحويلها إلى "شرق أوسطية"، ورداً على مزاعم القائلين بأن الوجود العربي خارج الجزيرة العربية هو احتلال. ونعتبر هذه المادة عن عروبة مصر والعراق والشام متممة للمواد الأخرى التي ستمر معنا في هذا الكتاب حول عروبة الوطن العربي خارج الجزيرة العربية منذ القدم، مع الإشارة أن دروزة ربما لم يكن قد درس أصل الأمازيغ جيداً عند صدور كتابه، وبالتالي لم يتطرق لأصلهم العربي - اليمني بقوة كما فعل غيره ممن كتبوا بعده، وهي نقطة ضعف طبعاً، لكنها لا تقلل من أهمية المادة أدناه حول مصر والعراق وبلاد الشام والجهد العلمي الحقيقي والجدي المبذول فيها.

ونلفت النظر أيضاً أن مصطلح "الجنس العربي" الذي يستخدمه دروزة كان المقصود به "القومية العربية". فكما قال د. محمد عمارة في "معنى القومية العربية": "وعندما بدأت هذه اليقظة القومية في القرن التاسع عشر، كان الأدب السياسي العربي يستخدم مصطلح "الجنسية" بدلاً من مصطلح "القومية"، نسبة إلى "الجنس" الذي يطلق على الجماعة من الناس. ولكن عموم هذا المصطلح الذي قد يطلق على كل الناس، قد جعل الأدب السياسي، وخاصة في حقل الدراسات القومية يستخدم مصطلح "القومية" للدلالة على هذه الظاهرة المتمثلة في الجماعة البشرية العربية التي امتلكت قسماتها القومية الواحدة والساعية إلى إغناء وإثراء المحتوى التوحيدي لهذه القسمات، والخلاص من العقبات التي تحول بينها وبين أبناء وحدتها القومية الجامعة".

"ولقد كان شيوع مصطلح "القومية" في أدبنا السياسي الحديث، بدلا من مصطلح "الجنسية" – والأول أدق في التعبير عن الظاهرة موضوع الدراسة- إحدى علامات النضج في الحركة والدراسات القومية العربية" إ.ع.

1 – عروبة مصر القديمة: تمهيدات في سكان مصر الأقدمين والموجات العربية الجنس التي انساحت إليها، مختارات لمحمد عزة دروزة:

جاء في كتاب تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي لجمس هنري بريستيد، من مشاهير علماء الآثار المصرية، والتاريخ المصري، وترجمة الدكتور حسن كمال أن جماعات من الليبيين والجالا والصومال والبجا، كانوا يطرأون على مصر منذ أقدم الأزمنة، وأن من المعروف إلى هذا، أن أقواماً ساميين من عرب آسيا، طرأوا على وادي النيل، وعمموا فيه لغتهم، وصبغوه بصبغتهم، كما هو ظاهر من النقوش المصرية القديمة، وأن لغتهم حافظت على ساميتها (عروبتها) بمرور الزمن، بالرغم مما طرأ عليها من تغيير وتحريف باختلاط السكان، وأن تاريخ الهجرات السامية الأولى، يرجع بلا مراء إلى ما قبل العصور التاريخية المعروفة، وأن من الثابت أن هذه الهجرات قد تكررت مراراً في العصور التالية، وأنه إذا كان من الصعب معرفة الطريق التي سلكوها، فإن الأقرب للذهن أن يكونوا أتوا من برزخ السويس، كما فعل العرب في بداية الإسلام.

ولقد جاء في كتاب تاريخ السودان القديم للدكتور كمال حسن أن المصريين والسودانيين من أصل واحد، وأنهم جاؤوا إلى وادي النيل من بلاد العرب، عن طريق الصومال، إلى ما تدل عليه البحوث

والاستقراءات، وقد نقل هذا المؤلف عن ديودور الصقلي، أن أصل المصريين القدماء هم من بلاد العرب الجنوبية، نزلوا على شواطئ أثيوبيا، ثم تقدموا نحو الشمال حتى دخلوا مصر، وبسبب ذلك يقول الأثيوبيون أن مصر مستعمرة من مستعمراتنا، على اعتبار أن سكانها القدماء جاؤوا إليها من ناحيتهم. وقد نُقل كذلك عن العالم الأثري المشهور أحمد كمال، أن أصل اللغة المصرية القديمة واللغة العربية واحد، وأن الاختلاف الظاهر بينهما ليس إلا نتيجة إسقاط بعض الكلمات في بلاد العرب، وبقائها في وادي النيل، أو العكس، ثم نتيجة لما يعتري بعض الكلمات من القلب والإبدال، وما يطرأ على اللغات من تغيير بمعاملة الأجانب.

ولقد جاء في كتاب الأثر الجليل لسكان وادي النيل للعالم الأثري أحمد نجيب: "ومن تأمل في التماثيل المصرية القديمة، المحفوظة بدار التحف، علم يقيناً أن هذه الأمة من الجنس الأبيض القاطن في آسيا، وأن كثيراً من أصول لغتهم مشتق من اللغة العبرانية والآرامية، كما أن الضمائر المتصلة والمنفصلة منهما متشابهة". وخلاصة القول أن أصل المصريين من الجنس (السامي) – العربي حسب اصطلاحنا – وقد أتوا إلى هذا الوادي من برزخ السويس، وربما وجدوا فيه طائفة من الزنوج.

ولقد قال العالم الأثري المشهور أحمد كمال في كتابه العقد الثمين: "إن المصريين القدماء كانوا يطلقون على بلاد حضرموت واليمن اسم بون. وكانوا يعتقدون أن أصلهم منها". ولقد قال المؤرخ التركي أحمد رفيق، في الجزء الأول من كتابه التاريخ العام الكبير، نقلاً عن مصادر ألمانية، مثل تاريخ مصر القديم لأدوار ماير، ومصر وحياتها في العصور القديمة لأدولف أرمان وتاريخ مصر لويدمان، وتاريخ مصر في حكم الفراعنة لبورغش، والتاريخ العام لشبامر، وتاريخ الأمم القديمة لماكس دوفكر "أن معظم علماء تاريخ مصر يقررون أن المصريين القدماء قد جاؤوا من آسيا الغربية، منهم من جاء عن طريق باب المندب من الجنوب، ومنهم من جاء عن طريق برزخ السويس من الشمال. وأن بين لغتهم واللغات السامية في مفرداتها وصرفها ونحوها مشابهة كبيرة". ومع أنه لم يقل صراحة أنهم جاؤوا من جزيرة العرب، أو أنهم من الشعوب السامية، فإن هذا الوصف يعني ذلك كما هو متبادر.

ولقد قال غوستاف لوبون في كتابه الحضارة المصرية: "إن كل جذور اللغة المصرية القديمة، ومعظم قاموسها، يتركب من عناصر سامية، حتى أجروميتها فيما يتصل بتركيب المؤنث والجمع. والكلمات البعيدة عن الأصل السامي، ترد إلى الجنس الأسود الذي طرأ على مصر".

ولقد جاء في تاريخ مصر إلى الفتح العثماني لسفيد ج. الإسكندري: "إن أرجح الآراء أن مؤسسي حضارة مصر الأولى، التي ترجع إلى ما قبل الأسر الملكية – أي إلى ما قبل خمسة وأربعين قرناً أو أكثر – قومٌ لوبيو الأصل، غير أن حضارتهم ليست هي أساس مدنية المصريين الذين تكونت منهم الأسر المختلفة، والذين وصلوا بمصر إلى أعلى درجات الرقي. وقد ثبت أن هؤلاء قومٌ ساميون قدموا إلى مصر من آسيا. ولا يُعلم يقيناً من أين دخلوا. فهناك من يقول أنهم دخلوا من برزخ السويس، وهناك من يقول أنهم جاؤوا من طريق الجنوب. وعلى كل حال، فالمعلوم يقيناً أن الذين نشأ منهم (الملك مينا) – وهو أول من عُرف من ملوك المملكة المصرية المتحدة قبل نحو أربعين قرناً – كانوا قبل ظهوره يقطنون الجهة الجنوبية من مصر. ومما يدل على أن أجداده من الساميين، أن أقدم ما وصل من لغتهم، يغلب فيه العنصر السامي على الأفريقي. وقد دخلوا ومعهم حضارة أرقى مما كان في مصر. وهم الذين جاؤوا بفن التحنيط والكتابة الهيروغليفية".

ولقد جاء في كتاب الأساس في الأمم السامية ولغاتها، لعطية الأبراشي ورفاقه: إن المدنية الإنسانية العامة قد ابتدأت في وادي النيل. وسكان هذا الوادي، وإن كانوا مزيجاً من عناصر مختلفة، فالعنصر السائد فيها، والذي أنتج أول مدنية إنسانية، هو العنصر السامي أي العربي، وإنه على أي تقسيم قسمت اللغات السامية، فإن الحقيقة الكبرى أنها لغات جماعة بشرية كونت جنساً بشرياً واحداً، وهو الجنس الذي عُرف باسم الجنس السامي، والذي عُرفت شعوبه باسم الشعوب السامية، ولغاته باسم اللغات السامية، والتي تحضرت في أطراف جزيرة العرب، وفيما وراء هذه الأطراف، مع بقاء وحدة التفكير والخيال جامعة بينها. وقصارى القول أن الجماعة السامية هي الجماعة العربية، وأن مهدها الأول هو نجد والحجاز والعروض واليمن، وما والى هذه البقاع، ومنها كانت الهجرات الأولى إلى شمال الجزيرة، ومشارق الشام والعراق، ثم إلى بلاد الحبشة ومصر.

ولقد جاء في الجزء الأول من تاريخ العرب لحتي: إن موجة من المهاجرين الساميين انساحت إلى مصر، عن طريق أفريقية الشرقية، حوالي 3500 ق.م.، وكان فيها جماعة من الحاميين، فحلت بينها، وامتزجت بها، فتألف من هذا المزيج سكان مصر القدماء. ولقد سلك هذا في كتاب سورية والسوريون من نافذة التاريخ: اللغة المصرية القديمة، في سلك اللغات الآشورية والبابلية والآرامية والكنعانية والعبرانية والعربية القديمة والحبشية الأثيوبية، لو دققنا النظر فيها، لوجدنا تشابهاً جلياً بينها، يخولنا حق ردها إلى أم واحدة.

ولقد قال جوستاف حيكي، أستاذ الأثريات المصرية، في كلية نيو شاتيل، في كتابه تاريخ المدنية المصرية، أن سكان مصر القدماء، جاؤوا إليها من جزيرة العرب، قبل ستة آلاف سنة، وأن الأسر الفرعونية الأولى من هؤلاء القادمين. وقال مثل هذا بروخ الألماني، وهنري جونسون الإنكليزي، في كتابيهما تاريخ مصر أيضاً.

ولقد نبه جبرائيل هانوتو في مقدمة كتابه تاريخ الجنسية المصرية على بروز مميزات العنصر السامي العربي في سِحَن وصور ومحنطات ملوك مصر، منذ أقدم أزمنة التاريخ المصري، أو بتعبير أدق ملوك الدولة الأولى، والأسلاف الذين انحدروا منهم، الذين طرأوا على مصر من شمالها الشرقي، ومن جنوبها الشرقي، بالإضافة إلى قوله: إن الدم المصري غدا مزيجاً من عناصر سامية وأفريقية وزنجية وأوروبية وسكان شواطئ البحر الأبيض.

ولقد قال والس بدج، مؤلف كتاب سواء السبيل في سكان أرض النيل، أن الذي حققه العلماء، أن الذين ملكوا مصر، ووضعوا شرائعها منذ البدء، جماعات هاجروا إليها من المشرق، منذ بضعة ألوف من السنين، قبل التاريخ المسيحي، وليس في مشرق مصر إلا جزيرة العرب من الجنوب والشرق، وسيناء المتصلة بالجزيرة، من الشرق الشمالي، كما لا يخفى.

ولقد قال المؤرخ الشهير ماسبرو: إن لعروق المصريين الأقدمين، والعرب والفينيقيين والكنعانيين، روابط تشد بعضها إلى بعض. وليس المصريون سوى ساميين انفصلوا عن مهد الساميين قبل غيرهم.

ولقد جاء في الجزء الأول من كتاب مصر القديمة للعالم الأثري المصري الكبير حسن العالم، في نبذة أصل المصريين، أن مصر كانت مسكونة منذ عصور ما قبل التاريخ بقوم من الجنس الحامي يقال أنه نشأ من البلاد نفسها، أي أفريقي الأصل، وينسب إلى لوبيي أفريقية الشَّمالية المسمين الآن بالبربر (أنظر مادة عثمان السعدي عن عروبة البربر – إ. ع)، وإلى السكان الحاميين من أفريقية

الشمالية الشرقية الصوماليين، ثم أخذ يدخل على هذا الشعب تغييرات عن طريق الهجرة، وكانت أهم العناصر الجديدة التي دخلت البلاد عن هذا الطريق، من أصل آسيوي، لهم مميزات خاصة، تختلف اختلافاً بيِّنا عن الشعب الأصلي، وقد اختلطوا شيئاً فشيئاً بالسكان الأصليين، واندمجوا فيهم.

ويخمن أن المهاجرين الفاتحين جاؤوا إلى مصر من شبه جزيرة العرب، ودخلوها عن طريق البحر الأحمر من جهة "قفط"، أو عن طريق أعالي وادي النيل، أو عن طريق فلسطين فسينا فشرقي الدلتا. وقد أدخلوا معهم مدنية أرقى من مدنية الجنس الحامي الأصلي الذي لم يكن يعرف إلا الآلات والأواني الحجرية، كما أدخلوا معهم معرفة المعادن، وبخاصة النحاس، وأدخلوا كذلك عبادتهم للأموات، وديانتهم وكتابتهم وفنونهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية. ويخمن أنهم أتوا إلى البلاد تدريجياً من غير عنف، فتوصلوا إلى الاستيلاء عليها بنجاح. وأهم الوثائق التي بقيت من عهدهم، أو عثر عليها، ألواح اردوازية منقوشة على أشكال مختلفة لم يتيسر حلها، وهي التركة الوحيدة لدينا لهذا الفتح الطويل الذي كانت نهايته على ما يظهر اتحاد كل البلاد، من أسوان إلى البحر الأبيض المتوسط، تحت صولجان ملك واحد، اتفقت كل المصادر على أنه الملك مينا. ولقد غدا الاندماج بين المهاجرين الجدد والسكان الأصليين عظيماً منذ العصر التاريخي، حتى أنه أصبح من الصعوبة بمكان معرفة الفوارق بينهما بشيء من الدقة.

وكلام المؤلف يفيد، كما هو المتبادر، أن المهاجرين الآسيويين هم من جزيرة العرب، وأنهم فتحوا البلاد، وسيطروا عليها، وحكموها، ووحدوها تحت صولجان الملك مينا الذي كان منهم.

وقد ذكر هذا المؤرخ أيضاً في نفس الجزء في نبذة "تقسيم البلاد إلى أربعة أقاليم" عزواً على مؤرخ اسمه لورية، مستنداً إلى دراسة دقيقة للآثار العتيقة، كما يصفه، أن قبائل وشعوباً من بلاد لوبية، وآسيا الصغرى، وجنوب مصر، جاءت إلى مصر، فتنازعت، وتحاربت، ثم تحالفت، فتألفت منها أربع طوائف، رُمِز إليها في الآثار برموز النحلة والبوصة والثعبان والنسر، التي كانت رموزاً للآلهة التي كانت هذه الطوائف تتعبدها، على اعتبارها آلهتها الخاصة أو الحامية. ثم تألفت من النحلة والبوصة مملكة، ومن الثعبان والنسر مملكة، ثم وفد على البلاد قومٌ من آسيا من بلاد العرب، عن طريق الصومال، وتوغلوا في الشمال حتى الوجه القبلي، وتأصلوا في البلاد، وكانوا جنساً ذا مواهب عظيمة، فأقاموا مملكة ثالثة، رُمِز لها في الآثار برمز الصقر في نهايتها، فغدت الممالك الثلاث موحدة، تحت سلطان صولجان واحد فقامت بذلك المملكة الفرعونية.

ولقد ذكر هذا المؤلف في سياق سيرة أحد ملوك الأسرة السادسة التي حكمت بين سنتي 2625 و2475 ق.م. على أقل التقديرات – لأن هناك تقديرات أبعد – أن هذا الملك أرسل جماعة إلى شواطئ البحر الأحمر، لإنشاء سفينة تسافر إلى بلاد بنت التي كان يعتقد المصريون أنها شبه مقدسة، وأن أصلهم يرجع إليها، على ما ذكرته النقوش التي نقشها أحد رجال الملك. والسياق يفيد: أن هذه البلاد على سواحل البحر الأحمر الشرقية، إلى سواحل بلاد اليمن والحجاز، وإن كان المؤلف فسرها بأنها بلاد الصومال. ومعنى هذا، على كل حال، أن المصريين في هذا العهد كانوا يتداولون، جيلاً بعد جيل، عن آبائهم الأولين، أنهم قد جاؤوا إلى مصر من سواحل جزيرة العرب رأساً، أو بطريق الصومال، على تقدير أن تكون هذه المقصودة من بلاد بنت، وفي هذا ما فيه من مغزى ودلالة.

ولقد جاء في كتاب مصر والحياة المصرية في العصور القديمة: إن سكان مصر قبل التاريخ خليط من شعوب مختلفة. ويمكن إرجاع اللغة المصرية القديمة إلى مجموعة من اللغات اشتقت من السامية (البابلية والآشورية والعبرية والعربية) والأفريقية الشرقية، والأفريقية الشمالية (البربرية – إ. ع)، بعد أن امتزج بعضها ببعض. واستناداً إلى تشابه الحوادث في العصر التاريخي، من الجائز أن يكون أجناس البدو الذين عاشوا في البلاد المتاخمة، وفي بلاد العرب، قد انحدروا إلى وادي النيل الخصيب، ثم فرضوا لغتهم على السكان المستقرين هناك، على اختلاف أجناسهم، وسرعان ما تميزت اللغة، وتميزت سمة وسحنة سكان مصر، فصارت لغتهم متميزة، وأرومتهم متميزة.

ولقد قال جرجي زيدان: إن الساميين (العرب في اصطلاحنا)، قد نزحوا إلى مصر من عهد قديم جداً، وإن الاكتشافات الأثرية الأخيرة، تدل على أن العصر الحديدي بمصر، يبدأ بدخول الساميين إليها، وإن مما يستدل به على ذلك اسم "فتاح" السامي الذي هو أقدم آلهة المصريين.

وننبه على أن الأقوال التي أوردناها، تدور في نطاق موضوع طروء الجماعات أو الموجات السامية – العربية الجنس، على حسب اصطلاحنا – قبل التاريخ المصري الوثيق، وقبل اتحاد مصر في مملكة واحدة وقيام الأسر الحاكمة على رأسها، واحد بعد أخرى، الذي كان في الألف الرابع قبل الميلاد في تقدير بعض المؤرخين، وفي الألف الخامس في تقدير بعض آخر، على ما سوف نشرحه فيما بعد (هذه الملاحظة مهمة، لأن البعض يؤرخ للوجود العربي في مصر فقط بعد منتصف الألف الرابع قبل الميلاد – إ.ع).

أما طروء جماعات أو موجات سامية – عربية الجنس – بعد ذلك، فليس موضع شك، أو خلاف. وقد سجل التاريخ المصري الوثيق في مدوناته ونقوشه القديمة محاولات عديدة ومستمرة، لتسرب هذه الجماعات من الشمال والجنوب إلى مصر، واهتمام ملوك مصر لصدها، وتحصينهم الحدود الشمالية والجنوبية، بسبيل ذلك، ونجاح بعض هذه المحاولات أكثر من مرة في التسرب والاستقرار في مصر السفلى والعليا.

وكان من أهم هذه المحاولات الناجحة موجات متلاحقة من ناحية سيناء فالدلتا في النصف الأول من الألف الثالث قبل المسيح، في عهد الأسر السادسة، والثامنة والتاسعة بأعداد كبيرة، استطاعت أن تستولي على الدلتا، وتغمرها، وتحكمها، ثم موجة الرعاة الكبرى – الهكسوس – التي طرأت على مصر من هذه الناحية أيضاً، في المئة الأولى من الألف الثانية قبل المسيح، واستطاعت بدورها أن تعمر الدلتا، وأن تفرض حكمها ردحاً من الزمن، وأن يبقى غالبها في الدلتا بعد تقويض حكم الهكسوس. ثم موجات متلاحقة صغيرة وكبيرة، تسربت بهدوء في القرون الرابع عشر والثالث عشر والثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد، في عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين. هذا إلى جانب تسرب موجات عديدة، من ناحية الجنوب، أهمها وأكبرها الموجة التي جاءت من بلاد النوبة، واستولت على الصعيد، وقامت منها الأسر الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة، ثم السابعة عشرة والثامنة عشرة، والموجة التي جاءت من هذه البلاد في القرن الحادي عشر، وقامت منها الأسرة الثانية والعشرون مما سوف نشرحه ونورد دلائله في فصول الكتاب، بعد.

ومما هو مظهر من مظاهر طبيعة جزيرة العرب، منذ أقدم الأزمنة إلى الآن دون انقطاع في إرسال موجاتها من آنٍ لآخر إلى الأقطار المجاورة لها في الشمال والجنوب، على ما شرحناه في مقدمة الكتاب في الجزء الأول. وقد كانت بلاد الهلال الخصيب (العراق وجزيرة الفرات وبلاد الشام) تعج

دائماً بهذه الموجات، فينساح منها جماعات بعد جماعات، إلى مصر، عن طريق بلاد النوبة. ومهما بلغ التزمت من أحد، فلا يصح أن يصل في حال إلى درجة المكابرة، في حقائق هذه الموجات، وصلتها بجزيرة العرب.

وعلى الذين يجنحون إلى المكابرة، ويقولون إن هذه افتراضات، أو يمارون في أن ما يسمونهم شعوباً سامية قد جاؤوا إلى بلاد الشام والعراق ووادي النيل من جزيرة العرب، أن يذكروا أنه قام دليل لا يدحض، ولا نزال نعيشه، وهو ما عرف معرفة اليقين من انسياح القبائل من جزيرة العرب في دور العروبة الصريحة، ومنذ القرن الخامس قبل الميلاد. بل، وقبل ذلك إلى بلاد العراق، وجزيرة الفرات، وبلاد الشام، شمالها وجنوبها ووسطها، وغمرها جميع هذه البلاد وإقامتها الدول فيها، من عربية وقيدارية وإيطورية ونبطية وتدمرية وتنوخية ولخمية وغسانية وكندية الخ... قبل الإسلام. ثم انسياحها تحت راية الإسلام، ومنذ الفتح الإسلامي، إلى بلاد العراق والشام، ثم إلى مصر والسودان وبلاد الحبشة والصومال، من طريق باب المندب حيناً وسيناء حيناً، كما كان يجري في القديم البعيد، وانتشارها في جميع أنحاء هذه البلاد، مما أطنب به ابن شهاب في مسالك الأبصار، وابن خلدون في العبر، والمقريزي في الخطط وفي رسالة البيان، والإعراب بما في مصر من الأعراب، ورسالة الإلمام بما في الحبشة من ملوك الإسلام، والقلقشندي في صبح الأعشى، والحمداني وابن إياس والجبرتي إطناباً يدل على استمرار حركتها وعظيم جيشانها، وسعة انتشارها، طيلة القرون التي أعقبت الفتح، بحيث لم يكد يخلو منهم دور وناحية، ومما وصف حاضره في وادي النيل خاصة نعوم شقير في كتابيه تاريخ السودان وتاريخ سيناء، ومما تتمثل آثاره وحقيقته في العدد العظيم من القبائل العربية التي تحتفظ حتى اليوم بتقاليدها وأسمائها العشائرية، وتنتشر في جميع أنحاء مصر وسيناء والسودان والحبشة والصومال، ويبلغ عددها الملايين العديدة، ويبلغ عددها في مصر وحدها مليوناً وربع مليون، عدا الأعداد الكثيرة الذين اندمجوا خلال هذه القرون في حياة المدن والقرى، والذين لا يحصون في أحيان كثيرة، ولا تخلو منهم ناحية ولا قرية ولا حي في مدينة، والذين لا يتميز عنهم السكان الأصليون بشيء من الملامح والعادات والذين لا يزال كثير منهم يحتفظون مع ذلك بأنسابهم وتقاليدهم وذكرياتهم العشائرية، بحيث يصح أن نقول إن دعوى اتصال النسب والجنس بين سكان مصر، منذ أقدم أزمنة التاريخ، وبين سكان جزيرة العرب، ليست قائمة على عاطفة وتخمين وغير مستندة إلى علم، أو أنها شيء من مجاهل التاريخ الذي يتحمل الأخذ والرد والنفي والشك، وإنما هي حقيقة علمية، تسندها أدلة تاريخية وثيقة، ودراسات وأقوال خبراء موثوقين، وواقع لم ينقطع مدده وفيضه.

اللغة المصرية القديمة: نتيجة للانسياح العربي الجنس الذي بدأ قبل العصور التاريخية الوثيقة، واستمر بعدها، غدت الصبغة العربية – والمؤلفون يسمونها الصبغة السامية – قوية البروز في اللغة المصرية القديمة. وقد قرر هذا بريستيد، وغيره من العلماء، على ما تفيده النبذ التي أوردناها عنهم. ولقد أثر عن العالم الأثري المصري الشهير أحمد كمال، أنه وضع قاموساً فيه آلاف المفردات المصرية القديمة، المتشاركة في المعنى والمبنى مع المفردات العربية، كدليل على ما قرره، وأوردناه قبل، نقلاً عن كتاب تاريخ السودان العام للدكتور حسن كمال، من أن أصل اللغة المصرية واللغة العربية واحد، لأن أصل المصريين من جزيرة العرب.

وهناك مستشرق ألماني اسمه أرمان، ألف كتاباً بين فيه ما بين اللغة المصرية واللغات السامية – العربية حسب اصطلاحنا – من توافق، حيث ينطوي في هذا نفس الدلالة في صدد اللغة والجنسية

المصرية. ولقد اعتنق كثيرون برأي أرمان هذا، حتى قرر بعضهم أن اللغة المصرية هي لغة سامية محضة. ومع أن هناك من يتحفظ إزاء هذا التعميم، بسبب ما بين اللغة المصرية القديمة واللغات الأفريقية من تقارب، أو توافق، فإن هذا الفريق المتحفظ، لا ينكر قوة بروز العنصر السامي – العربي حسب اصطلاحنا – في اللغة المصرية، وكل ما يقوله: إن اللهجات البربرية أو اللوبية والكوشية في هذه اللغة بارزة بروز اللغات السامية فيها (ونعيد التذكير هنا بترابط البربرية والفينيقية القديمة حسب عثمان السعدي وعلي فهمي خشيم – إ. ع).

ولقد احتوى معجم ياقوت الحموي، المتوفّى في القرن السابع الهجري، أسماء مئات من القرى والقصبات المصرية التي تحمل السمة المصرية القديمة، والتي كانت تطلق إلى عهده امتداداً للقرون القديمة السابقة للإسلام والعروبة الصريحة، والتي يبدو عليها لمحة العروبة المتقدمة، على دور العروبة الصريحة قليلاً أو كثيراً، بناءً ومعنى، مما يمكن أن يكون فيه دليل على اتصال النسبة بين المصريين القدماء الذين أنشأوها وبين الجنس العربي، مع التنبه، على أن معجم ياقوت، لم يحتوِ إلا الأقل من أسماء قرى وقصبات مصرية حاضراً، تحمل أسماء قديمة لم ترد فيه...

[هنا يورد محمد عزت دروزة أسماء عشرات الأماكن والقرى والقصبات بالمصرية القديمة، إ.ع].

ويتابع: ولا تزال مئات القرى والقصبات المصرية تسمى بأسماء قديمة، تلمح عليها لمحة العروبة المتقدمة على دور العروبة الصريحة، مما فيه كذلك دلالة أخرى على ذلك الاتصال. وكثيرٌ منها لم يرد في معجم ياقوت. وهذه جملة اقتبسناها من الخطط التوفيقية الجديدة التي ألفها علي مبارك في أربعة مجلدات، مقسمة إلى عشرين جزءاً، وهي مطبوعة في المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق سنة 1306 هجري.

[ثم يعود دروزة هنا ليورد أسماء مئات القرى والقصبات المصرية المسماة بكلمات مصرية قديمة. إ. ع]

ثم يتابع: ولم ننقل الأسماء الفصحى العربية ولا المضافات الفصحى لكلمات منية وسفط وشبرى وكوم التي يبدو أنها كلمات عامة، وتعني قرية أو عزبة أو حصناً، والتي نرجح أن مضافاتها الفصحى قد أطلقت على أسماء قديمة لقرى أو قصبات قديمة.

وكثيرٌ من هذه الأسماء مماثل لأسماء كنعانية وآرامية وكلدانية وبابلية وآشورية وعمورية – وهذه أرومات وقبائل طرأت على بلاد الشام والعراق من جزيرة العرب، وسماها المؤرخون الغربيون ساميين – سميت بها مدن وقرى عراقية وشامية – وما تزال تطلق على أعيان قائمة في بلاد الشام والعراق، مما سوف يتبين من الأسماء التي سنوردها في الأجزاء التالية من الكتاب، ومما فيه دلالة على وحدة الجنس.

وقد تكون صيغ الأسماء التي نقلناها من الخطط، ومعجم ياقوت، قد جاءت بصيغة أو أوزان عربية، نتيجة لانطباع مصر بطابع العروبة الصريحة بعد الفتح الإسلامي. وقد لا تكون بعض الأسماء هي نفسها التي سميت بها المدن في التاريخ القديم، ولكن التروي فيها يثبت أن كثيراً منها، إن لم نقل أكثرها، عليه سمة القدم السابق كثيراً للفتح الإسلامي، ويحمل في الوقت نفسه اللمحة العربية القديمة، معنى ومبنى، بحيث يسوغ القول إن الأسماء التي ليست هي نفسها الأسماء القديمة، هي أيضاً تسميات أطلقتها موجات عربية الجنس متأخرة الطروء، وهذا وذاك، يلمح في تسميات بلاد الشام والعراق كذلك.

يضاف إلى هذا ما يلمح من اللمحة العربية القديمة، على كثير من أسماء الفراعنة، ورجال دولتهم، ومعبوداتهم ومدنهم، على ما سوف يأتي في ثنايا فصول الكتاب.

فكل ما قدمناه يجعلنا نقرر بشيء من الوثوق، أن الموجات العربية انساحت إلى مصر منذ عصور ما قبل التاريخ، ثم ظلت تنساح إليها خلال العصور التاريخية بدون انقطاع، حتى غدت العنصر الغالب من سكان مصر القدماء، وإن هذا يسوغ أن يسلك تاريخها في سلك تاريخ الجنس العربي، خلافاً لما جرى عليه المؤرخون.

ومن الحق أن نقرر أن الليبيين الذين لا يعرف على وجه التحديد جنسهم الأصلي (مرة أخرى نحيل القارئ الكريم لمادة "عروبة البربر" التي تثبت الأصل العربي لسكان شمال أفريقيا القدامى – إ. ع)، والذين يذهب بعض الباحثين إلى أنهم امتداد لموجات سامية الجنس – عربية الجنس – طرأت على وادي النيل، قبل الأزمنة التاريخية، مؤيدين رأيهم بالأوصاف البيولوجية للجنس الأبيض التي يشترك فيها الجنس العربي، أو ما يسمونه بالساميين – كانوا وظلوا ينساحون إلى مصر من ناحيتها الغربية في مختلف حقب التاريخ، ويستوطنون خاصة قسمها الأوسط. وكان لهم في بعض الظروف دولة فيه، وكانوا ذوي كثافة نوعاً ما. غير أنهم لم يكونوا كثرة كبيرة، من شأنها أن تغمر مصر، وتصبغها بصبغتها، كما كان شأن الموجات السامية العربية التي صبغت مصر بصبغتها، وعممت فيه لغتها على ما ذكره بريستيد وغيره، وأوردناه في النبذ السابقة (مجدداً نذكر أن اللغة البربرية تنتسب لنفس الأرومة، وليس شيئاً غريباً عن العروبة – إ. ع).

ومن الحق كذلك أن نقرر، أنه كان يطرأ من بلاد النوبة، أو من البلاد التي كانت تسمى بلاد كوش موجات على مصر الجنوبية، وتستوطنها قبل التاريخ المعروف وبعده، غير أن هذه الموجات ليست زنجية على كل حال، وهناك باحثون يقررون أنها قبائل سامية الجنس – أي عربية – تسربت إلى هذه البلاد من طريق الصومال، وسواحل أثيوبيا، بعد تسربها من جزيرة العرب، فامتزجت بعناصر زنجية، فغدت سمة ولهجة خاصة متميزة، مع بقاء غلبة العنصر السامي العربي وملامحه عليها.

ومن الحق كذلك أن نقرر، أنه طرأ على مصر جماعات من جنس أبيض غير عربي، من طريق البحر المتوسط، ونعني بهم اليونانيين، ومن إليهم، من سكان شواطئ أوروبا الجنوبية، جزر هذا البحر.

ولكن ذلك إنما بدأ يحدث في عهد متأخر، أي قبل الميلاد المسيحي بنحو ألف وثلاثمائة سنة، ولم يكن الطارئون مع ذلك جماعات كثيفة، من شأنها أن تغمر مصر، فضلاً عن أن المصريين لم يأنسوا بهم، وكانوا ينظرون إليهم بعين المقت، ويعتبرونهم أنجاساً، ويتجنبون معاشرتهم على ذكره المؤرخون، استناداً إلى الروايات والمدونات القديمة.

ولقد لبثت مصر تحت حكم اليونان والرومان نحو ألف سنة 331 ق.م. – 640 ب. م.، وقدم إليها منهم، خاصة من اليونانيين، الآلاف المؤلفة، وتوطنوا فيها، ونشروا لغتهم وثقافتهم. وقد جمع بينهم وبين المصريين الدين النصراني نحو أربعة قرون، وترجمت كتبه المقدسة إلى اليونانية، وصارت لغة عبادة وطقوس، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يفرضوا طابعهم على مصر، بل ظل المصريون، كما ذكرنا آنفاً، منقبضين عنهم، يتحرجون من معاشرتهم، فضلاً عن الامتزاج أو الاندماج فيهم، في حين أنه لم يمض على قدوم موجة الفتح العربية الكبرى، وما بعدها، تحت راية الإسلام، إلا بضعة أجيال، حتى أخذ الطابع العربي الصريح يطبع مصر وأهلها، إلى أن تمت له السيادة الخالدة

المقدسة، وليس من تفسير معقول لهذه الظاهرة، إلا وحدة الأرومة والروح والدم والجنس والمنبت التي تجمع بين هذه الموجة، وما بعدها، وبين معظم سكان مصر القدماء.

وقد يورد البعض في هذا المقام أن تاريخ العروبة في ظل الإسلام في مصر، قد سجل مواقف عديدة متمردة من سكان مصر، ضد حركة الفتح، ثم ضد السلطان الإسلامي العربي في القرون الثلاثة الأولى بنوع خاص، كما قد يورد بعضٌ آخر أن العروبة والإسلام في مصر قد توطدتا بقوة الفتح أو السيف، كما يحلو لهم ترديده أحياناً. فمن جهة النقطة الأولى نقول: إن ذلك لم يكن عاماً، بل كان من شراذم من جهة، وإن التاريخ سجل مقابله مواقف إيجابية من الأقباط نحو الفاتحين، أوسع وأعم من جهة أخرى، وإن ما كان منه قد كان لأسباب أخرى، منها الاعتبارات الدينية التي كانت في تلك الظروف، هي المؤثر الأشد في حياة البشر، ومنها ما كان بقي في مصر من عناصر رومانية ويونانية، مضافاً إليها ما كان من صنائع ومأجورين للرومان من أهل البلاد، وما كان من هؤلاء متمذهباً بالمذهب الملكي المسيحي الروماني، الذين كانوا أقلية، بالنسبة لأكثرية سكان مصر المتمذهبة بالمذهب اليعقوبي، حيث كانت تلك العناصر [الملكية] تستجيب لتحريض الرومان. ولقد كان مثل هذا في بلاد الشام والعراق من المتمذهبين بالمذهب الملكي والعناصر اليونانية والرومانية... ومن جهة النقطة الثانية، نقول إن اليونان والرومان فتحوا مصر وحكموها ألف سنة، فلم يقلبوا أهلها يونانيين ولا رومانيين من جهة، وإن أحسم دليل على تفاهة ذلك القول هو من جهة أخرى احتفاظ من رغب في الاحتفاظ بدينه منذ الفتح الإسلامي إلى اليوم!

ونحن إذ نتبنى دعوى كون دم كثرة سكان مصر القدماء، مع الذين كان لهم الحكم والسلطان فيها قبل قيام المملكة المتحدة الأولى وبعدها، هو دم موجات قدمت إلى مصر من جزيرة العرب، ونورد خلاصة أقوال العلماء والباحثين في ذلك، ونسوق البراهين والقرائن والشواهد من آثار المصريين القدماء ولغتهم وأوصافهم ومسمياتهم وصورهم ومحنطاتهم، من الوقائع التاريخية اليقينية المستمرة. ولا نريد أن ننفي تأثر هذه الموجات بالبيئة الطبيعية والاجتماعية، واختلاط دمائها بدماء أمم أخرى، كانت في مصر قبل مجيئها وبعده – قبل الإسلام – وتأثرها بأصحاب هذه الدماء لغةً وعادات، واكتسابها بذلك كله شخصية خاصة نوعاً ما، في الأرض الجديدة التي حلت فيها. غير أننا نتوخى بذلك من جهة تقرير الحقيقة التاريخية المتصلة بالواقع المستمر، منذ عشرات القرون قبل الميلاد، والمؤيَّدة بالشواهد المتنوعة، وتقارير جمهرة العلماء والباحثين، والتدليل على أن عروبة مصر الحاضرة، هي امتداد لما كان من عروبتها التي سبقت الإسلام بعشرات القرون، وتصحيح التوجيه التاريخي بالنسبة لتاريخ مصر القديم، وسلكه في سلك تاريخ الجنس العربي، استناداً إلى حقيقة صلة منبت هذا الجنس بمصر منذ أقدم الأزمنة، وانسياح موجاته المتوالية إليها منذ آلاف السنين دون انقطاع، وغلبة طابعها عليها، ومن جهة أخرى إحباط مكر المستعمرين والمبشرين المغرضين وتلامذتهم، وأعداء العروبة الذين تتجاوز مكابرتهم كل حد ومنطق، فيتجاهلون ويكابرون، حتى في ما سجلته الآثار المصرية القديمة من محاولات التسلل العربي الجنس إلى مصر من شمالها وجنوبها، ومن نجاح كثير من هذه المحاولات بصورة واسعة حيناً وضيقة حيناً. ويتجاهلون كذلك السيل العربي الصريح الذي أخذ يتدفق على مصر، منذ الفتح الإسلامي إلى الآن، دون انقطاع، ويغمر مدنها وصحاريها، استمراراً لما كان يجري قبل دور العروبة الصريحة، والذي تفوق أعداده أعداد سكان مصر قبل الإسلام أضعافاً مضاعفة، والذي يتمثل في كل ناحية من أنحاء مصر، وفي كل مظهر من مظاهر حياتها وتقاليدها ولغتها تمثلاً شاملاً قوياً، بقصد فصل تاريخ مصر عن تاريخ

العرب، ليوقروا في أذهان المصريين وهن الصلة بينهم وبين العروبة الأصيلة، ويجعلوهم يعتبرون العرب الذين جاؤوا هذه المرة تحت راية الإسلام، غزاة كسائر الغزاة الذين طرأوا على مصر، ووطدوا حكمهم عليها بالقوة العسكرية وحسب، وكون ما هنالك من فرق، هو أنهم أعطوا مصر دينهم ولغتهم، كما كان وما يزال يبث همساً تارةً وصراحةً تارةً أخرى. حتى لقد جاء وقت حاربوا فيه مظاهر الإسلام والعروبة أشد حرب، وحاولوا أن يجعلوا النعرة الفرعونية أصلاً في الحياة المصرية وأمجادها، بزعم أنها تغطي مع الزمن على النعرة العربية الإسلامية، جاهلين أو متجاهلين أن معظم الأسر الفرعونية التاريخية من الجنس العربي، ودعوا إلى نبذ اللغة الفصحى والاكتفاء باللغة الدارجة أملاً بأن تتطور حتى تبتعد عن أصلها، وتغدو لغةً خاصة، فتنقطع بذلك الصلة بين العروبة ومصر بزعمهم.

وهذا بالإضافة إلى أننا حينما نقرر صلة المصريين القدماء بالجنس العربي، أو بكلمة أدق، حينما نبرز هذه الصلة، نكون قد أبرزنا سعة نطاق نشاط الجنس العربي وحيويته في مختلف المجالات الفكرية والأدبية والحضارية والسياسية والعسكرية، حينما برز هذا الجنس على مسرح مصر القديمة، التي كانت مصدراً رئيسياً من مصادر الحضارة البشرية التي شعت على العالم، وكانت من مشاعل هداية البشر وحضارتهم الأولى من جهة، ونكون من جهة أخرى قد وصلنا بين حيوية العروبة في دورها الصريح، على مسرح مصر، وبين حيويتها عليه قبل هذا الدور، فصار من ذلك سلسلة متصلة الحلقات، يمسك بعضها بعضاً من جهةٍ أخرى.

ولقد سلك المؤرخون تاريخ المعنيين والسبئيين والقتبانيين والحضرموتيين في جنوب جزيرة العرب، والهيجانيين والتموريين في شمالها، والنبطيين والتدمريين في بلاد الشام، والرهاويين في حوض الفرات في سلك التاريخ العربي القديم، وسلك بعضهم تاريخ الرعاة في مصر، وأسرة حمورابي في العراق في هذا السلك. ولم تكن هذه الأمم تتسمى باسم العروبة، وتتكلم العربية الصريحة. وقد فعلوا ذلك بسبب انتمائهم جميعاً إلى جزيرة العرب، وتشاركهم في اللغة والعادات والأفكار، على ما شرحناه في مقدمة الكتاب. وما دام هذا هو شأن معظم سكان مصر ودولها، على ما قدمنا عليه الشاهد، وأيده جمهرة الباحثين، فلا غبار في اعتقادنا على ما فعلناه.

2 – عروبة العراق القديمة: تمهيد في صلة العراق بجزيرة العرب وموجاتها إليه ومصادر تاريخ هذه الموجات فيه، مختارات لمحمد عزة دروزة:

ليس هناك من يماري في طروء جماعات أو موجات متلاحقة إلى العراق، في مختلف أدوار التاريخ القديم، ما يسمى "ساميين"، وسميناهم "الجنس العربي"، وغلبة طابعهم على هذا القطر، وعلى من كان فيه، قبل طروئهم المعروف من غير جنسهم، أو جاؤوا إليه، بعد أن أخذوا يطرأون عليه، وعدّوه بذلك مهجراً من مهاجر جنسهم، وموطناً من مواطنهم الثابتة.

وإذا كان هناك من يتوقف في التسليم بأن جزيرة العرب هي موطن ما يسمى ساميين، أو يتردد في القول إن الموجات السامية أي العربية الجنس، حسب اصطلاحنا، التي طرأت على العراق، قد جاءت من جزيرة العرب، فإن من هؤلاء من يقول: إن جرثومة الساميين التي قد يكون موطنها الأصلي غير جزيرة العرب، قد نزحت إلى هذه الجزيرة، ونمت فيها، ثم أخذت تهاجر منها إلى العراق وغيره لأسباب اجتماعية وجغرافية مختلفة. هذا إلى أن أكثرية الباحثين، يقررون أن جزيرة العرب هي موطنهم، وأن الجماعات أو الموجات المتلاحقة التي جاءت إلى العراق قد جاءت منها،

حيث نزح بعضها من جنوب الجزيرة إلى شواطئها الشرقية على بحر الهند، فالخليج العربي فالعراق، وبعضها من شمالها، أي بلاد الشام، فالعراق. وكانت وظلت متشاركة في اللغة والتقاليد والعادات، تشاركاً يدل على انتمائها إلى جنس واحد، هو الذي سميناه الجنس العربي، دون الاسم الحديث "الساميين"، لأن ذلك التشارك كان وظل قائماً بينهم وبين أشقائهم الذين بقوا في جزيرة العرب، والذين تطورت عروبتهم غير الصريحة إلى العروبة الصريحة، وغدوا يتسمون بسمتها، ويُسمون باسمها، على ما شرحناه في مقدمة الكتاب في الجزء الأول، وذكرنا دلائله ومصادره، وعلى ما نعتقد أن فيه المقنع، لمن لا يريد المكابرة والتزمت باسم العلم، وعلى ما سوف نزيده توكيداً في ثنايا هذا الجزء.

ولقد جاء في كتاب القرون القديمة لبريستيد، في فصل "بلاد بابل"، أن حركة الهجرة من البادية إلى الهلال الخصيب، بدأت من ألوف السنين، واستمرت، وتمكن القائمون بها من فرض سيادتهم الجنسية عليه، برغم ما كان فيه، أو جاء إليه من عناصر ليست سامية الأصل، وكانت هذه الهجرة تزداد أحياناً، وتعظم، حتى تصبح تياراً جارفاً، يحمل القبائل الرحَّل من القفر البلقع إلى هذا الهلال، فتغشى المدن والقرى، كما تغشى المياه الأرض. وكان الطرف الشرقي من الهلال الخصيب، مقابل الضفاف السفلى لدجلة والفرات، من أهداف هجرة هذه القبائل ومستقرها.

ولقد جاء القسم الأول المخصص لتاريخ العراق القديم، من كتاب مقدمة في الحضارات القديمة لطه باقر، أن أكثر العلماء والباحثين، يقررون أن جزيرة العرب هي مهد الأقوام السامية (أي العربية حسب اصطلاحنا)، وأن موجات متعاقبة في أزمان مختلفة كانت تنزح منها إلى بقاع الهلال الخصيب، ثم تستقر فيها وتكوِّن حضارات ذات شأن كبير في تاريخ العالم. وأن مما لا شك فيه أن هذه الهجرات بدأت منذ أقدم الأزمان في عصور ما قبل التاريخ، وكان العراق مفتوحاً أمامها فاستوطنته، وطغت على حياة العراق، ومعظم الشرق الأدنى!

ولقد تكون دماء الموجات العربية التي طرأت على العراق، واختلطت بدماء من كان قبلها فيه من غير جنسها، أو جاؤوا إليه بعد أن أخذوا يطرأون عليه. ولقد تكون اكتسبت شخصية خاصة نوعاً ما في الأرض الجديدة، التي حلت فيها وتأثرت بأولئك الذين هم من غير جنسها، في اكتساب هذه الشخصية. غير أن هذا لا يغير من الأمر شيئاً كبيراً في اعتقادنا، ما دامت هذه الموجات قد جاءت من جزيرة العرب، وظل طابعها هو الغالب على العراق وعلى من فيه من غير جنسها، وظلت كذلك تحتفظ بكثير من خصائص جنسها ولغته وتقاليده، على ما ذكرناه في مقدمة الكتاب أيضاً.

ولقد كان من تلاحق موجات الجزيرة العربية المعروفة يقيناً إلى بلاد العراق في دور العروبة الصريحة قبل الإسلام وبعده، وما قام وظل يقوم من صلات وثيقة من هذه البلاد وجزيرة العرب، وما كان من استمرار التشارك في اللغة والخصائص والتقاليد العقلية بين هذه الموجات الصريحة، والموجات التي قبلها، مما أكد وقوّى وخلّد ذلك الطابع على العراق، وجعل دعوى انتماء تلك الموجات إلى العروبة وجزيرة العرب محكمة حاسمة.

ويكفي أن يدقق المرء في أسماء الأعلام العراقية، ونعني قرى العراق وقصباته وأنهاره التي تحمل لمحة العروبة المتقدمة على دورها الصريح. ويكفي كذلك أن يقارن بين مفردات لغات تلك الموجات، وبين مفردات اللغة العربية الفصحى، ليرى مصداق ذلك قوياً، لا يتحمل مراء.

ففي معجم البلدان لياقوت الحموي، المتوفى في القرن الهجري السابع، أسماء مئات من القرى والقصبات والأعلام التي تحمل لمحة العروبة المتقدمة، على دور العروبة الصريح. والتي لا شك في أنها تسمية تلك الموجات التي حلت في العراق وأنشأتها، قبل هذا الدور... [هنا يسرد دروزة قائمة بعشرات القرى والأماكن العراقية نقلاً عن معجم ياقوت الحموي – إ. ع].

ولم ننقل من المعجم الأسماء التي غلبت فيها اللمحة الأعجمية، ولا التي جاءت بصيغة عربية فصحى، وهذه وتلك مع ذلك قليلة فيه، والمعجم لم يحتوِ جميع الأعلام والقرى والقصبات العراقية، بدليل وجود أسماء كثيرة تطلق على أعيان موجودة إلى اليوم، لم ترد فيه وعليها لمحة القدم.

وعلى كل حال، فإن كون جل ما أورده، مما تبدو عليه اللمحة العربية القديمة، المتقدمة على العروبة الصريحة، يدل على أن الموجات العربية القديمة، طبعت العراق بطابعها الذي ظل غالباً إلى زمن مؤلف المعجم.

ولقد ظل كثير من أسماء القرى والمدن والمواقع العراقية، يحمل لمحة العروبة القديمة، برغم ما طرأ عليها من تحوير وتبديل. وفيما يلي جملة من ذلك، ننقلها عن خريطة العراق الإدارية والطبيعية التي رسمها طعمه السعدي. ومنها ما ورد في معجم ياقوت، ومنها ما لم يرد، كما أن جملة مما ورد في هذا المعجم لم ترد في الخريطة، مما فيه مصداقية لما طرأ على الأسماء من تبديل وتغيير وفيها على كل حال الدلالة التي أردناها. والخريطة إلى هذا لم تذكر إلا المهم من القصبات والقرى... [هنا يسرد دروزة أسماء العشرات من الأماكن في العراق نقلاً عن الخريطة المذكورة، حسب الترتيب الأبجدي، من أم الذبيان وأم الشبابيط إلى وادي عكاش ووادي رنكة – إ. ع].

ولقد أثبت ولنغنستون مؤلف كتاب تاريخ اللغات السامية جدولاً فيه جملة كبيرة من المفردات الأشورية البابلية والآرامية التي كان يتكلم بها سكان العراق، في ظل دولها الآرامية والأشورية والكلدانية والعمورية، مع ما يقابلها من المفردات العربية، التي كان يتكلم بها أهل جنوب جزيرة العرب قبل العروبة الصريحة، ثم ما يقابلها كذلك من المفردات العربية الفصحى، ننقله فيما يلي، كدليل حي على اتحاد الأرومة بين أهل جزيرة العرب القدماء، على اختلاف أروماتهم، وبالتالي على صحة الجنسية العربية بالنسبة لهذه الأرومات:

عربي فصيح	أشوري بابلي	آرامي	لغة جنوب الجزيرة العربية القديمة
أب	أبو	أبا	أب
ابن	بنو	برا	ابن
أخ	أخو	أحا	أخو
أخذ	إخوز	أحد	أخذ
أحد	أدو	حد	أحد
أذن	أزنو	أودنا	أزن
اثنتان	شنا	ترئن	سنيت
أرض	أرضو	أرعا أرقا	أرض
أربع	أربعو	أربع	أربع
اسم	شومو	شما	سم
أم	أمو	أما	أم
امة	أمتو	أمتا	أمة
إنسان	نشو	ناشا	أنش
دبس	دشبو	دبشا	دبس
دم	دمو	دما	دم
ذئب	زيبو	دابا	زاب
ذنب	زباتو	دونبا	زناب
راس	رشو	ريشا	راس

عربي فصيح	أشوري بابلي	آرامي	عربي قديم من جنوب الجزيرة
ركب	ركب	ركب	ركب
زرع	زو	زرعا	زرع
سبع	سبو	شبع	شبعو
ست	ششو	شتا	سسو
سلام	شلمو	شلما	سلم
سن	شنو	شنا	سن
سنبلة	شوبلتو	شبلتا	سبل
سماء	شمو	شماريا	سماي
شمس	شمشو	شمشا	شمس
شعر	شرتو	سعرا	سعرت
طحن	إطن	طحن	طحن
طيب	طبو	طبا	طيب
ظفر	صبرو	ظفرا	ظفر
صل	صلو	طلا	صالوت
عشر	عشرو	عسر	عشرو
عظم	عصمتو	عطما	عضم
عقرب	عقربو	عقربا	عقرب
عمود	إمدو	عمودا	عمد
عنب	أنبو	عنبتا	عنب
عين	أنو	عينا	عين

			العربية
فتح	أبت	فتح	فتح
فم	بو	بوما	أف
قرن	قرنو	قرنا	قرن
قمح	قمو	قمحا	قمح
كبد	كبتو	كبدا	كبد
كرش	كرشو	كرسا	كرش
كلب	كلبو	كلبا	كلب
كوكب	كاكبو	كوكبا	كوكب
لب (بمعنى قلب)	لبو	لبا	لب
لسان	لشانو	لشنا	لسان
لهب	لابو	شلهب	لهب
ليل	ليلتو	لليا	ليله
ماء	مو	مايا	ماي
مائة	مئتو	ما	مائت
مثل	مشل	متلا	مسل
مر	مرو	مرنمر	مرا
ملك	ملكو	ملكا	ملكي
موت	موتو	موتا	موت
نمر	يمرو	نمرا	نمر
ود	وَدّ	يد	وَدّ
ورق	ورقو	يرقا	ورق
وفر	وفرو	أيقر	وفر

ولد	وُلد	أيلد	ولد
يد	إدو	أيدا	أد

[ويستطيع كثيرٌ منا في بلاد الشام والعراق أن يرى من الأمثلة أعلاه مدى دخول بعض ما جاء في الجداول أعلاه في الكلام العامي، بالشكل المثبت حرفياً بالجدول أو المحوّر بحرف، ومدى انتشار أسماء أماكن وعائلات من اللهجتين الأشورية البابلية، والآرامية، حتى اليوم – إ. ع].

على أننا ونحن نثبت أسماء الأعلام العراقية التي تبدو عليها اللمحة والصيغة العربية القديمة، ثم جملة من المفردات المتماثلة من اللغات العراقية القديمة، واللهجات العربية القديمة الأخرى، التي لها أشباه تعد بالألوف، لا نقدمها كدليل وحيد على الجنسية الوثقى بين معظم سكان العراق القدماء والجنس العربي وجزيرة العرب، وإنما كدليل مضاف إلى تقريرات العلماء والباحثين على انتماء هؤلاء السكان الذين عمروا العراق، وطبعوه بطابعهم المستمر منذ ستة آلاف سنة على الأقل، بقطع النظر عما قبل ذلك من احتمالات إلى الجنس "السامي" حسب اصطلاحهم، والعربي حسب اصطلاحنا، ولاسيما أن جمهرة الباحثين يعتبرون التشارك اللغوي من مظاهر الوحدة الجنسية (أي القومية، كما أوضحنا من مقتطف د. محمد عمارة في المقدمة – إ. ع)، بين الأقوام "السامية"، على

ما شرحناه في المقدمة. وهذا فضلاً عن ما هناك من التشارك في العقائد والأفكار والتقاليد أيضاً، وهو ما سوف تأتي الشواهد عليه في ثنايا هذا الفصل.

فكل هذا يسوغ، فيما نعتقد، الجزم بالجنسية العربية للموجات التي طرأت على العراق من جزيرة العرب، مما سماهم كتاب الإفرنج خطأ باسم "ساميين". كما يسوغ القول إن هذه الموجات قد طبعت العراق بطابعها الغالب، ويبرر سلكها في سلك تاريخ الجنس العربي، خلافاً لما سار عليه المؤرخون.

ولقد سلك جرجي زيدان دوراً من أدوار تاريخ هذه الموجات، في سلك التاريخ، ونعني به دور ما سماه العمالقة الذين منهم حمورابي، بسبب ما رآه من التشارك بينهم وبين الجنس العربي. وقد فعل صواباً. وكان الأولى أن يشمل بعمله بقية الموجات والدول عربية الجنس في العراق، من آرامية وآشورية وكلدانية، لأنها هي والأرومة التي ينتمي إليها حمورابي من موطن واحد هو جزيرة العرب، ومتشاركة في اللغة والعقائد والتقاليد.

ولقد قال الدكتور جواد علي، أن تسمية الساميين مصطنعة، وأن تسمية "العرب" هي الأقرب إلى العلم، والأدق والأصح والأصدق، على كل حال، من تلك التسمية، وأنه ليس غريباً ولا بعيداً عن العلم والمنطق، أن تسمى الشعوب التي أدخلها العلماء تحت مصطلح "السامية" عربية، لما بينها من صلات ومشاركات وتقارب. ولقد كان هذا يقتضي أن يسلك هذا المؤرخ تاريخ هذه الشعوب في سلك تاريخه: العرب قبل الإسلام.

فنحن إذ نفعل ذلك، إنما نفعل أمراً لا غبار عليه، تقريراً للحقيقة التاريخية المتصلة بالواقع المستمر، منذ عشرات القرون، قبل الميلاد المسيحي، وتصحيحاً للتوجيه التاريخي، وتدليلاً على أن عروبة العراق الصريحة الحاضرة، هي امتداد لما كان من عروبته الصريحة وغير الصريحة التي سبقت الإسلام بعشرات القرون، وذلك بالإضافة إلى ما في ذلك من إبراز سعة نطاق نشاط الجنس العربي وحيويته في مختلف المجالات الفكرية والأدبية والحضارية والسياسية والعسكرية، حينما برز على مسرح العراق الذي كان مصدراً رئيسياً من مصادر الحضارة البشرية التي شعت على العالم، وكانت من مشاعل هداية البشر وحضارتهم الأولى من جهة، وتكون من جهة أخرى قد وصلتنا بهم حيوية العروبة في دورها الصريح على مسرح العراق، وبين حيويتها عليه قبل هذا الدور، فيظهر من ذلك سلسلة متصلة الحلقات، يمد بعضها بعضاً من جهة أخرى.

ولقد أنشأت الموجات العربية في العراق دولاً عديدة متلاحقة، لم تكد سلسلتها تنقع بسلطان غير عربي الجنس طيلة خمسة وثلاثين أو أربعين قرناً قبل الميلاد، منها ما ظل محلي السلطان والنطاق، ومنها ما اتسع سلطانه حتى شمل جميع العراق، ثم تجاوزه إلى أقطار شاسعة في شمال العراق وشرقه وغربه، ووصل إلى البحر الأسود شمالاً، وبحر قزوين شرقاً، والبحر الأبيض والقطر المصري غرباً.

ولقد أنشأت هذه الدول منشآت عمرانية عظيمة، وخرب كثير منها وانطمر تحت التراب. ولقد كتب كثير من ملوكها سيرتهم الحربية وغير الحربية على الأحجار والمنشآت التي انطمرت بدورها. ولقد جرت تنقيبات كثيرة منذ أواسط القرن السابق، في أماكن كثيرة من العراق، وخاصة في مواقع عواصم دوله القديمة، مثل أور وأوروك وبابل ونينوى ودار صرغون وبارسيب وكلح، كانت تجري على نطاق ضيق، وعلى غير أسلوب علمي، ثم تقدمت منذ أواخر القرن السابق واتسعت،

وساهمت مصلحة الآثار العراقية فيها، إلى جانب بعثات الجامعات الأمريكية، فعثر على كثير من الآثار والكتابات والنقوش.

ولقد كانت النقوش التي دونوها بالخط المسماري، فظلت غامضة، بل وظنها الناس أنها زخرفة، إلى أن أكتُشِف في أواخر القرن الثامن عشر في برسيبوليس آثار عليها كتابة بهذا الخط، ثم كتابات باللغة الفارسية واللغة البابلية واللغة العيلامية، فكان ذلك مفتاح ذلك الخط، كما كان شأن حجر رشيد المصري، بالنسبة للخط المصري القديم، فعكف على دراستها أستاذ ألماني اسمه كروتتند، واستطاع أن يحل بعض رموزها بالمقارنة مع اللغة الفارسية، وأن يقرأ بعض الأسماء والمفردات البابلية، ثم أكتُشِف في بهستون، بالقرب من كرمنشاه، آثار مثل آثار برسيبوليس، عليها كتابة بالخط المسماري، وكتابات باللغات الثلاث، فعكف على دراستها أستاذ إنكليزي اسمه رولنصن، واستعان بما كان من جهود كروتتند، وشاركه في عمله أستاذ ايرلندي اسمه هنكس، فاستطاع بدوره حل بعض رموزها، بالمقارنة كذلك مع اللغة الفارسية، وأن يقرأ بعض الأسماء والمفردات البابلية: ثم تتابعت بحوث العلماء، وازدادت المعرفة باللغتين البابلية والآشورية، حتى غدا موضوع قراءتهما اعتباراً من 1857 علماً مضبوطاً، وحتى أمكن قراءة ما خلفه الآشوريون والبابليون من نقوش كثيرة متنوعة، فساعد ذلك على جلاء تاريخ الموجات العربية ومآثرها في العراق، منذ أقدم الأزمنة التاريخية بمقياس غير ضيق، وخاصة منذ القرن الخامس والعشرين قبل المسيح.

[هنا يضع دروزة جدولين، أحدهما يمثل تطور الخط المسماري، أي الذي تحفر فيه الرموز على شكل مسامير، عندما كان كل رمز مسماري يمثل كلمة، مثلاً: الله، الشمس، جبل، إنسان، ثور، سمكة، قلب، يد، يد وذراع، رجل، سنبلة، قطعة من الخشب، شبكة، سياج، والجدول الآخر يمثل الرموز المسمارية عندما بات كلٌ منها يمثل حرفاً، مثلاً: أحرف العلة، أ، ب، ج، د،...، ومن المعروف أن اللغات المعتمدة على الأحرف هي أرقى من اللغات التي تضطر لاختراع رمز مختلف لكل كلمة على حدة – أ.ع]

ولقد زار هيرودوت اليوناني، من رجال القرن الخامس قبل الميلاد، العراق، ووصف في كتابه مشاهداته، وذكر مسموعاته عن أخبار العراق القديمة، كما كتب عن ذلك إسترابون وديودور وبطليموس وغيرهم من مؤرخي قبل الميلاد وبعده وجغرافييهم، فكان ذلك أيضاً مما ساعد على ذلك الجلاء.

ومما ساعد عليه أيضاً، أولاً: ما عثر عليه من مدوّنات دوّنها كُتّاب عراقيون في بداية الألف الثاني قبل الميلاد احتوت كثيراً من أسماء ملوك السلالات العراقية الحاكمة، وشيئاً من أخبارهم، وثانياً: الفصول الكثيرة التي احتوتها أسفار العهد القديم، مثل أخبار الأيام والملوك عن صلات ملوك العراق باليهود ودولتهم، وثالثاً: المدونات والنقوش المصرية التي احتوت بيانات، عما كان يحدث بين مصر والعراق من صلات وأحداث سياسية وعسكرية، ورابعاً: ما استند إليه الكتاب اليونان والرومان القدماء من تاريخ معزو إلى مؤرخ بابلي اسمه بِروسوس أو برشوحا من أهل القرن الرابع قبل الميلاد، ذكر أنه دوّن فيه أخبار ملوك بابل كافةً، نقلاً عن سجلات قديمة كانت في عهدته، حيث كان كاهن معبد بل في بابل. وقد أشار برشوحا إلى ذلك بقوله: إن كاهناً قديماً اسمه اكسيسوتروسن خبأ في بعض مخابئ المعبد السجلات المسطّر عليها تاريخ الخليفة، وأخبار الأيام الأولى وقد فُقِد هذا الكتاب، ولكن يوسينوس اليهودي، وأوساسيوس وكليمنسوس وشنسليون اليونانيين نقلوا عنه فصولاً عديدة. وخامساً: ما استند إليه ديودور الصقلي من كتاب معزو إلى

إكتازياس، طبيب الملك ارتخششتا الثاني (405 – 359 ق.م) نقلاً عن الكتب الفارسية في القصر الملكي. وقد فُقِد هذا الكتاب أيضاً، ولكن ديودور نقل عنه فصولاً عديدة أيضاً.

وهكذا غدا بالإمكان عرض فصول، قد يصبح التعويل عليها في تاريخ الدول العراقية القديمة، التي تمّت إلى الجنس العربي، استناداً إلى وثائق تاريخية وأثرية قديمة، وخاصة بالنسبة للحقب التي تلت القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، مهما كان فيها من ثغرات واقتضاب، ومهما تحولت المقتبسات من المدونات القديمة المستندة إلى جداول الملوك، وروايات برشوحا واكتازياس، والمسموعات التي لا تؤيدها النقوش من تحفظ. أما ما قبل القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، فإن في تاريخ الدول العراقية العربية الجنس ثغرات واسعة، تجعل من المتعذر عرض فصول متسلسلة، وكل ما يمكن هو عرض صورة منفردة.

ولقد خصص طه باقر معاون مدير الآثار العراقية القديمة المجلد الأول من كتابه مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة للعراق، احتوى دراسات أثرية وتاريخية قيمة له ولغيره من الباحثين في تاريخ العراق القديم ومآثره الحضارية، طبع طبعته الثانية سنة 1375 هـ/ 1955 م، والقسم المخصص للمآثر الحضارية فيه قيم وافٍ، ولعله أوفى ما كتب بالعربية في ذلك. أما القسم المخصص للتاريخ السياسي، فهو على قيمته العلمية، واستناده إلى النقوش والمدونات القديمة، ودراسات الباحثين، لا يحتوي فصولاً متسلسلة لتاريخ الدول العراقية وأحداثها، وقوائم بأسماء ملوكها، كما فعل بريستيد، وإن كان فيه إلمامات غير يسيرة من ذلك، وخاصة بالنسبة لتاريخ الآشوريين.

ولرئيس أساقفة سعرد أدي شير الكلداني الآشوري، كما نعت نفسه، كتاب في جزأين سماه تاريخ كلود وآشور مطبوع في المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة 1912 أحدهما ديني والآخر سياسي. وفي الآخر، توجد فصول مسهبة نوعاً ما في تاريخ الدول العراقية، وأسماء ملوكها منذ القرن الخامس والعشرين إلى القرن الخامس قبل الميلاد، مع نتف مقتضبة عن ما قبل ذلك، استناداً إلى التنقيبات الأثرية، والمدونات القديمة المقتبسة من كتاب وأثرين غربيين، مثل تاريخ ماسبرو المطول، المعنون بـ"تاريخ الشعوب القديمة في الشرق" في ثلاثة مجلدات، وتاريخ ماسبرو المختصر، بالعنوان نفسه، ومجلة الكتاب المقدس، وتاريخ سني ملوك ثور لميثان، وتاريخ دول الكلدان والأثوريين لأوبير، وتاريخ هيرودوت، ومجلة المشرق، وكتاب ميزوبوتاميه وأثور لبيلي فراسير، وتاريخ الشعوب الشرقية لنورمان، وتاريخ ملوك بابل لبيشينش وغيرهم.

ولجميل مدور كتاب عنوانه تاريخ بابل وآشور مطبوع في مطبعة الفوائد في بيروت سنة 1893، فيه فصول عن دول بابل وآشور ومدنها وآثارها وحضارتها، استناداً إلى روايات القدماء، والتنقيبات الأثرية كذلك.

وقد كتب جرجي زيدان فصلاً في كتابه تاريخ العرب قبل الإسلام، في تاريخ أسرة من الأسر العربية الجنس، قامت لها دولة كبرى في بابل منها حمورابي الشهير، استناداً كذلك إلى الكتابات الأثرية والروايات والمدونات القديمة. وفي الجزء الأول من التاريخ العام لأحمد رفيق التركي، الذي يستند إلى كتب شبامر وموردتار وده ليج، وماقس دونكر، وهومل الألمانيين وماسبرو وسينوس الفرنسيين، فصول في تاريخ البابليين والكلدانيين والأشوريين. وفي كتاب العصور القديمة لبريستيد الذي ترجمه إلى العربية داوود قربان فصول كذلك في هذا التاريخ. وستكون هذه الكتب من المراجع الرئيسية لما سوف ندونه في الفصول التالية عن تاريخ الموجات العربية في العراق ومآثرها

المتنوعة التي سوف تكون تامة الحلقات – بقدر ما يمكن – لتاريخ العراق القديم كما فعلنا في الجزء السابق، وخاصةً لتاريخ الجنس العربي فيه قبل العروبة الصريحة، مما نرجو أن يكون مفيداً للقارئ العربي، وخاصةً للناشئ العربي، الذي يجب أن يكون ملماً بهذا التاريخ الذي هو جزء من تاريخ أمته العظيمة. ومع أن من المحتمل أن يكون هناك كتب في تاريخ العراق القديم، فإن فائدة الكتاب تظل قائمة، لأنه يدور بنوع خاص على تاريخ الجنس العربي في العراق القديم، ويبرز قوة الصلة بين العراق وبين هذا الجنس، مما لم نطلع على ما فيه الغناء من ذلك في حجم الكتاب وأسلوبه وترتيبه. ولسوف يرى القارئ العربي فيه صوراً غير يسيرة، سياسية وغير سياسية، مشابهة لما نرى اليوم من صور على مسرح البلاد العربية، يمكن أن يكون فيها تعليل للأحداث الجارية.

3 – عروبة بلاد الشام القديمة: تمهيد في صلة بلاد الشام بجزيرة العرب، وموجاتها إليها، ومصادر تاريخها، مختارات لمحمد عزة دروزة:

إن بلاد الشام، كوادي النيل والعراق، من مهاجر الجنس العربي الطبيعية، وأوطانه الثانية، لأنها الجناح الغربي للهلال الخصيب الذي كان يجذب هذا الجنس من جزيرة العرب بصورة مستمرة، وهي متصلة بالجزيرة من جنوبها اتصالاً مباشراً.

وإذا كان الباحثون لا يستطيعون أن يجزموا في أمر هوية سكان هذه البلاد في العصور الحجرية والظرانية السابقة للتاريخ، أو إذا كان منهم من يذهب إلى أن هؤلاء السكان مزيج من عناصر آرية أو أرمنوية، كما يسميها فيليب حتي، تسربت من الشمال، وعناصر حامية تسربت من الجنوب، فليس هناك من يماري في طروء جماعات أو موجات متلاحقة عديدة عليها، منذ أقدم الأزمنة التاريخية المعروفة، ممن سموا "ساميين"، وسميناهم الجنس العربي، وغلبة طابعهم على هذه البلاد، وعلى من كان فيها قبل طروئهم المعروف، أو جاء إليها بعد أن أخذوا يطرأون عليها، وعدّوها بذلك من مهاجر هذا الجنس، وأوطانه الثانية.

وإذا كان هناك من لا يقول بمجيء تلك الجماعات أو الموجات التي سميت بالساميين من جزيرة العرب، فإن جمهرة الباحثين يقررون العكس، ويقولون أنه مهما اختُلِف في أصل مهد الساميين الأول، فإن مهدهم الثاني كان جزيرة العرب، وإن الموجات والجماعات التي طرأت على بلاد الشام من ناحية باديتها، أو من طريق العراق، إنما جاءت في الأصل من الجزيرة العربية، حيث نزح بعضها من جنوبها إلى شواطئها الشرقية على بحر الهند فالخليج العربي فالعراق فبلاد الشام أو إلى بلاد الشام مباشرة عن طريق البادية.

وهذا ما تؤيده الشواهد والوقائع، حيث كان التشارك في اللغة والخصائص والتقاليد قوياً بين هذه الموجات، وبين سكان جزيرة العرب قبل تطورهم من العروبة غير الصريحة وبعده، وحيث عُرِف يقيناً في دور العروبة الصريحة قبل الإسلام الذي بدأ في الألف الثاني قبل المسيح، انسياح الموجَات من جزيرة العرب إلى بلاد الشام، وإقامتها الدول العديدة من عريبية وقيدارية ورهاوية وايطورية ونبطية وتدمرية وتنوخية وضجعمية وغسانية... الخ، فضلاً عن الموجات التي تلاحق ورودها من جزيرة العرب، من طريقي العراق والبادية إلى هذه البلاد، تحت راية الإسلام، والتي لم يكد تلاحقها ينقطع في دور من أدوار الحقبة الطويلة الممتدة إلى اليوم، والتي انطبعت بلاد الشام بها بطابع العروبة الخالد المقدس، مما هو متسق مع طبيعة جزيرة العرب منذ أقدم الأزمنة، ومما يصح أن يعد دليلاً حياً لا يمكن دحضه، مهما بلغت المكابرة والتزمت في بعض الباحثين من مبلغ.

وقد تكون دماء الموجات العربية التي طرأت على بلاد الشام قبل دور العروبة الصريحة، اختلطت بدماء من كان قبلها فيها، أو من جاء إليها بعد أن أخذت تطرأ عليها من غير جنسها، كما كان شأن أمثالها في العراق ووادي النيل، وقد تكون اكتسبت شخصية خاصة نوعاً ما في الأرض الجديدة التي حلت فيها. غير أن هذا لا يغير من الأمر شيئاً كبيراً، ما دامت هذه الموجات قد جاءت من جزيرة العرب، وظل طابعها العربي هو الغالب على بلاد الشام، ومن فيها من غير جنسها، وظلت تحتفظ بكثير من خصائص جنسها ولغته وتقاليده.

لقد لبثت بلاد الشام تحت حكم اليونان والرومان نحو ألف عام (من 331 ق.م إلى 640 ب. م)، وجاء إليها منهم الألوف المؤلفة، واستقروا فيها، ونشروا لغتهم وثقافتهم... وقد جمع بينهم وبين أهل البلاد دين واحد هو النصرانية منذ القرن الرابع الميلادي، وترجمت إلى اليونانية الكتب المقدسة، وصارت من اللغات التي تؤدى بها طقوس العبادة، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يطبعوا البلاد وأهلها بطابعهم، بل وكانت جمهرة الشاميين منقبضين عنهم، متحاشين الامتزاج بهم، في حين أن الموجات العربية الصريحة التي جاءت إلى بلاد الشام قبل الإسلام، أخذت تطبع البلاد وأهلها بالطابع العربي الصريح بسهولة ويسر، واشتد هذا الطابع في عمله حينما جاءت موجة الفتح الكبرى تحت راية الإسلام، فلم يمض بضعة أجيال حتى تم له السيادة الخالدة المقدسة. وليس من تفسير لهذه الظاهرة، إلا صدق نظرية وحدة الدم والأرومة والمنبت والروح التي كانت تجمع بين سكان هذه البلاد وجزيرة العرب والجنس العربي كما هو المتبادر.

ولقد كان من تلاحق الموجات المعروفة يقيناً إلى بلاد الشام، في دور العروبة الصريحة قبل الإسلام وبعده، وما قام وظل يقوم من صلات وثيقة بين هذه البلاد وجزيرة العرب، وما كان من استمرار التشارك في اللغة والخصائص والتقاليد والعقلية بين هذه الموجات الصريحة العروبة، وبين الموجات التي قبلها، ما أكد ذلك الطابع وقواه وخلده، وجعل دعوى انتماء تلك الموجات إلى العروبة وجزيرة العرب محكمة حاسمة.

فهذه قائمة احتوت مئات من أسماء القرى والقصبات والمدن في مختلف أنحاء بلاد الشام الساحلية والداخلية والجنوبية والشمالية، بما فيها فلسطين، منقولة عن معجم البلدان لياقوت الحموي، المتوفى في القرن الهجري السابع، مما يحمل اللمحة العربية القديمة من اللهجات أو اللغات الكنعانية الفينيقية والعمورية والآرامية السريانية والعبرانية:

[هنا يضع دروزة أسماء مئات الأماكن في بلاد الشام نقلاً عن ياقوت الحموي حسب الترتيب الأبجدي، من آبل وابتر إلى يحمون ويرموك – إ. ع].

واللمحة العربية المتقدمة على دور العروبة الصريحة الفصحى بادية على هذه الأسماء، كما هو ظاهر. وقد تركنا ما غلبت عليه اللمحة الأعجمية، أو ما جاء بالعربية الفصحى، وهو مع ذلك قليل. ومن المحتمل أن تكون الأسماء الجديدة المطلقة مؤخراً على أعيان قديمة، وننبه على أن ياقوت لم يذكر جميع الأسماء، بدليل وجود أعيان كثيرة قائمة اليوم، لم يرد ذكرها فيه.

وعلى كل حال، فإن كون جلّ ما أورده مما يحمل لمحة العروبة القديمة، يدل على أن الموجات القديمة الطارئة على بلاد الشام فروع جنس واحد، هو الجنس العربي، تمت في أصلها إلى موطن واحد هو جزيرة العرب، وأنها طبعت بلاد الشام، كما قلنا، بطابعها الذي ظل غالباً إلى زمنه.

ولقد ظلت هذه الأسماء، مع كثير غيرها يفوق ما أورده ياقوت بأضعاف، مستعملةً إلى اليوم، تقوم كدليل حي على ما كان للموجات العربية القديمة في بلاد الشام، أي سورية ولبنان وشرق الأردن وفلسطين، حسب التقسيم الجغرافي السياسي الحاضر، من أثر وطابعٍ خالدين.

وهذه قائمة مقتبسة من نشرة وزارة الاقتصاد الوطني في الحكومة السورية، صدرت سنة 1952 باسم التقسيمات الإدارية في الجمهورية السورية. ولقد احتوت هذه النشرة (5476) اسماً للمدن والقصبات والقرى السورية عدا (4707) أسماء للمزارع الصغيرة. وثلث هذه الأسماء تقريباً يحمل اللمحة العربية القديمة الآرامية-السريانية، وثلثها يحمل أسماء عربية فصحى، ربما أطلق كثيرٌ منها على أعيان آرامية-سريانية قديمة. ومنها ما ورد في معجم ياقوت، ومعظمها لم يرد فيه. ونقلها جميعاً تطويل لا ضرورة له، ولهذا سنكتفي بإيراد جملة ما يحمل اللمحة العربية القديمة الآرامية السريانية منسوبةً إلى القسم الإداري الرئيسي الذي يسمى "المحافظة" والذي هي فيه:

[هنا يورد دروزة نقلاً عن نشرة وزارة الاقتصاد الوطني في سوريا أسماء عشرات الأماكن لكل من المحافظات التالية: دمشق، حوران، السويداء، حمص، حماة، اللاذقية، حلب، الفرات، والجزيرة – إ. ع].

ففي هذه الأسماء ومثيلاتها التي تزيد عنها أضعافاً كثيرة، والمذكورة في نشرة الحكومة السورية، توكيد لما قلناه من أن الموجات العربية القديمة قد طبعت بلاد الدولة السورية من بلاد الشام بطابعها الغالب، بل الشامل الذي ظلت شواهده مستمرة إلى الآن.

وهذه قائمة مقتبسة من كتاب "لبنان" الذي ألفه نخبة من الأدباء بأمر متصرف لبنان سنة 1914، ولقد احتوى هذا الكتاب قوائم بأسماء نحو ألف قرية وقصبة ومدينة من قرى وقصبات ومدن جبل لبنان، ومعظمها يحمل اللمحة العربية القديمة الآرامية-السريانية والكنعانية الفينيقية، ومنها ما ورد في معجم ياقوت، ومعظمها لم يرد فيه، ونقلها جميعها تطويل لا ضرورة له أيضاً، ولهذا سنكتفي بإيراد جملة من كل حرف:

[هنا يورد دروزة نقلاً عن كتاب "لبنان" أسماء عشرات الأماكن في لبنان، حسب الترتيب الأبجدي، من اجبع وادما إلى يا ريتا ويحشوش – إ. ع].

وفي هذه الأسماء ومثيلاتها التي تزيد عنها أضعافاً، والمذكورة في كتاب لبنان توكيد كذلك لما قلناه من أن الموجات العربية القديمة الآرامية-السريانية والكنعانية-الفينيقية قد طبعت جبل لبنان من بلاد الشام بطابعها الغالب الذي ظل مستمراً إلى الآن أيضاً.

وهذه قائمة احتوت أسماء عشرات القرى في أقضية صيدا وصور ومرجعيون والشقيف في جبل عامل الذي لم يكن داخلاً في حدود إدارة لبنان حينما كتب مؤلفو كتاب لبنان كتابهم. وهي تحمل كسابقاتها اللمحة العربية القديمة الآرامية والكنعانية، منها ما ورد في معجم ياقوت ومنها ما لم يرد. ولم نذكر الأسماء الفصحى، والأسماء التي تلوح عليها لمحة الأعجمية، مع أن هناك احتمالاً أن تكون قد أطلقت على أعيان قديمة:

1 – قرى قضاء صور [حسب الترتيب الأبجدي، من أرزون إلى يارون ويانوح].

2 – قرى قضاء مرجعيون [حسب الترتيب الأبجدي، من بلاط وبويضه وبنت جبيل إلى مركبا وميس وهونين].

3 – قرى قضاء صيدا [حسب الترتيب الأبجدي، من أزريه وبراك التل إلى مجدليون ومجدله].

4 – قرى قضاء الشقيف [حسب الترتيب الأبجدي من أرنون إلى يحمر – إ. ع].

وهذه قائمة مقتبسة من كتاب جغرافية فلسطين لحبيب خوري وحسين روحي فيها أسماء مئات القرى والقصبات الفلسطينية المستعملة اليوم والتي تحمل اللمحة العربية القديمة الآرامية والكنعانية والعمورية والعبرانية منها ما ورد في معجم ياقوت ومعظمها لم يرد. ولم ننقل الأسماء العربية الفصحى ولا الأسماء التي تلوح عليها لمحة الأعجمية وهي كثيرة مع احتمال أن تكون هذه الأسماء قد أطلقت على أعيان قديمة. وقد رتبنا الأسماء حسب الاقضية التابعة لها:

[هنا يضع دروزة قائمة ببعض القرى الملحقة بكل من الأقضية التالية: غزة، المجدل، الخليل، القدس، بيت لحم، رام الله، أريحا، يافا، الرملة، نابلس وجماعين، طولكرم، جنين، بيسان، حيفا، عكا، الناصرة، طبريا، وصفد – إ. ع].

وهذه قائمة بأسماء كثير من مدن وقصبات وقرى شرق الأردن المستعملة اليوم والتي تحمل اللمحة العربية القديمة الآرامية والعمورية والكنعانية والعبرانية منها ما ورد في معجم ياقوت ومعظمها لم يرد مع التنبيه على أن هذه الأسماء ليست كل الأسماء التي تحمل تلك اللمحة لأنها كثيرة هي الأخرى.

[هنا يسرد دروزة أسماء الأماكن المحيطة بالأقضية التالية: جرش، عمان، الكورة، الطفيلة، معان، الكرك، مادبا، عجلون، السلط، إربد. على سبيل المثال، أماكن وأعلام إربد دونها دروزة كما يلي: أيدون، صريح، حوارة، بشرى، سال، البارحة، إربد، كفريوبا، جمحة، زحر، كفرعان، كفررضا، دوفرة، سوم، بجين، فم، قميم، خراج، قصفا، عرزيت، أسعرا، حيدور، ثقيلة، سما، فوعرة، حور، ابدر، رفيد، بارشنا، كفرسوم، عقربا، حرنا بلا، حريما، خرجا، مرو، حكما، علعال، عمراوة، ملكا، كتم، شطنا، ناطغة، بنية، حبكة، صمد باقورة، دير السعنة، مخربا، مندح، صما، سحم، مخيبة، سمر طرة، رمثا، حوشة، صرة، فاع، بريفة].

والتماثل شديد عجيب بين اللغات الكنعانية الفينيقية والآرامية السريانية والعبرانية التي كان يتكلم بها الموجات العربية التي استقرت في مختلف بلاد الشام وبين اللغة العربية مما فيه الدليل القوي على أصالة عروبة هذه الموجات، وعلى أن هذه اللغات إنما كانت لهجات للغة أم واحدة.

وهذه قائمة بمفردات كنعانية مأخوذة من الأمير موريس شهاب مدير عام الآثار اللبنانية:

أب، أخ، أحد، أكل، أم، آمة، أنس، أنت، أرض، بيت، بن، بنى، برا، برح، برك (بارك)، جلى، جمل، دلل (دليل)، دم، عم، دقق (دقيق)، هو، هيكل، هم، ذبح، ذكر، ذرع، خدر، حدث، حي، حلب، حلل، حلة، خلص، خمسى، حية، ختم، طبخ، طبع، يد، يوم، يم، يتم (يتيم)، كاهن، كلب، كنى، كف، كرسي، كتب، كتن (كتان)، لسن (لسان)، مئة، موت، ملح، ملاح، ملك، منحة، ندر، نحس (نحاس)، نفس، نصب، عيد، عبر، عين، علا، عامود، عضم، عقب، مغارة، عشر، فلح، فعل، فتح، صدق، قبر، قول، قرن، راس، رب، أربع، رصب، رعن، سبع، ثلاث، ثمان، ثاني، شرش، تحت، تين، تمر، وتسع.

وهي تكاد تكون عربية فصحى كما هو ظاهر...

[وليلاحظ القارئ الكريم أنه لو نسخ ولصق هذه القائمة الصغيرة من الكلمات الكنعانية في مستند في الحاسوب، فإن كل ما لا يظهر تحته خط أحمر مكسر هو كلمة عربية فصيحة، وأن ما يظهر تحته خط أحمر مكسر هو عادة لفظ شائع في كلامنا العامي، مثل عضم بدلاً من عظم، وراس بدلاً من رأس، وشرش بدلاً عِرق، الخ... وكذلك الأمر في بقية الوطن العربي، والعبرة أن معظم العامية، ما عدا اللحن الداخل حديثاً من لغات أخرى، عبارة عن قواعد ومفردات لغات عربية قديمة كانت سائدة يوماً ما في العراق وبلاد الشام ووادي النيل والمغرب العربي. إ. ع].

وهذه قائمة مفردات آرامية وعبرانية مع ما يقابلها من العربية القديمة في جنوب الجزيرة العربية والعربية الفصحى:

[هنا يضع دروزة جدولاً طويلاً بمفردات عربية فصحى، حسب الترتيب الأبجدي، مع ما يقابلها من مفردات عربية جنوبية قديمة ومفردات آرامية وعبرانية - بعضها سبق أن رأيناه في الجدول السابق في القسم المتعلق بالعراق - للدلالة على مدى التقارب فيما بينها، مع الإشارة أن إفراد قسم خاص للمفردات العبرانية لا مبرر له لأن العبرانية القديمة ليست سوى لهجة آرامية خسيسة، لكن المستشرقين الذين درسوا اللغات السامية القديمة تعاملوا مع العبرانية كلغة منفصلة بسبب تحيزهم المسبق... ومنهم إسرائيل ولنغستون مؤلف كتاب تاريخ اللغات السامية الذي يقتطف منه دروزة بعد الجدول فقرات من نصوص كنعانية-فينيقية وآرامية نقشت على أحجار في مختلف أنحاء بلاد الشام تعود لفترات مختلفة قبل الميلاد – إ. ع].

خلاصة عامة: وإذا نحن اهتممنا، للتدليل على الوحدة الجنسية التي تربط بين موجات جزيرة العرب الطارئة على بلاد الشام ببعضها من جهة، وبغيرها من الطارئين على البلاد الأخرى من جهة، وبالذين بقوا في جزيرة العرب من جهة، ثم على الطابع العربي الذي طَبَعَت به هذه الموجات بلاد الشام بالمظهر اللغوي الذي يتمثل بالمفردات اللغوية، وأسماء الأعلام الكثيرة التي أثبتنا قوائمها آنفاً، فليس معنى هذا أن التشارك اللغوي هو وحده الجامع، وإنما لأن جمهرة من الباحثين اعتبروا هذا التشارك من أبرز مظاهر الوحدة الجنسية، على ما ذكرناه في المقدمة، وهو حق ما دام قائماً بين جميع الموجات التي خرجت من الجزيرة، وبين الذين بقوا فيها. ولقد قرر جمهرة من الباحثين مع ذلك أن التشارك قائمٌ في العقائد والتقاليد والأفكار أيضاً، وهو ما سوف تأتي الشواهد عليه في ثنايا هذا الجزء.

ولقد سلك المؤرخون العرب، وغير العرب، النبطيين والتدمريين في هذه البلاد في سلك التاريخ العربي، ولم يكونوا يسمون عرباً بصراحة. وكانت لغتهم ما تزال بين العروبة الصريحة والعروبة غير الصريحة. وذلك بسبب انتمائهم إلى جزيرة العرب والجنس العربي والطابع العربي للغتهم وأسمائهم ومنقوشاتهم، وليس من فرق في الواقع بين هؤلاء، وبين الموجات التي جاءت قبلهم من جزيرة العرب إلى بلاد الشام. فإذا ما سلكت تاريخها في سلك تاريخ الجنس العربي، فإنما تفعل ذلك اتساقاً مع الحقيقة التاريخية المتصلة بالواقع المستمر منذ عشرات القرون قبل الإسلام، والمؤيَّدة بالشواهد المتنوعة، وأقوال جمهرة من العلماء والباحثين وتقريراً لها، وتصحيحاً للخطأ المشهور، والتوجيه التاريخي، وتدليلاً على أن عروبة بلاد الشام الحاضرة هي امتداد لما كان من عروبتها الصريحة وغير الصريحة التي سبقت الإسلام بعشرات القرون، ثم إحباطاً لمكر المستعمرين والمبشرين المغرضين، وأعداء العروبة الشعوبيين، والمتأثرين بدعاياتهم وتلقيناتهم في بعض أنحاء الشام، وخاصةً لبنان كما هو الشأن في مصر، حتى تتجاوز مكابرة بعضهم كل حد ومنطق،

فيتجاهلون الأصل العربي القديم الذي تفرع منه سكان بلاد الشام القدماء الكنعانيون الفينيقيون والآراميون السريان، ويتجاهلون السيل العربي الصريح الذي أخذ يتدفق على هذه البلاد، بما فيها لبنان قبل الإسلام وبعده، ويغمر مدنها وقراها، والذي تفوق أعداده سكان لبنان، بل والشام جميعها قبل العروبة الصريحة، ويطبعها بطابع العروبة الشامل منذ ثلاثة عشر قرناً، والذي يتمثل في كل ناحية من أنحاء الشام، بما فيها لبنان، سواء أكان في اللغة أم في كل تقليد من تقاليدها وكل مظهر من مظاهر حياتها تمثلاً قوياً، ويحاولون فصل تاريخها عن تاريخ الجنس العربي، ليوقروا في أذهان سكانها، وخاصة نصاراه، وبنوع أخص موارنته، الذين هم من الجنس العربي يقيناً، سواء أكانوا آراميين أم فينيقيين، أم من قبائل بني مراد العرب الصرحاء، وهن الصلة بينهم وبين العروبة الأصيلة، وليجعلوهم يعتبرون العرب غزاة كسائر الغزاة الذين طرأوا على بلاد الشام، ووطدوا حكمهم عليها بالفتح العسكري فحسب، وكون ما هنالك من فرق، هو أنهم أعطوها دينهم ولغتهم، كما كان وما يزال يبث همساً وصراحةً تارةً أخرى، وفي حين تكفي في نظرهم المئتان والثلاثمائة من السنين لتجعل سكان بلاد ما متنوعي الأصل والجنس أمة ذات قومية واحدة، لأنها صارت تتكلم بلغة واحدة، وتعيش في جو تاريخي واحد.

وهناك ظاهرة يجدر التنويه بها في هذا المقام، وهي أنه لم يذكر أحد من الباحثين أنه كان غرابة لسانية بين سكان مختلف أنحاء الشام، شمالها وجنوبها وشرقها وساحلها، أو أنه كان بينهم وسطاء ومترجمون، حيث يفيد هذا أنهم كانوا يتكلمون لغةً واحدة، وإن اختلفت لهجاتها. ولما كانت هذه اللغة أو اللهجات متقاربة أو متماثلة مع اللغة العربية، فقد عدت شقيقات لها.

فكل ما تقدم يدل أحسن الدلالة على صلة معظم سكان بلاد الشام، وخاصةً معظم الطارئين عليها منذ أقدم العصور التاريخية المعروفة، إلى منتصف الألفية الثانية قبل المسيح الذي أخذت العروبة فيه تتطور من عروبة غير صريحة إلى عروبة صريحة، يمتون إلى الجزيرة العربية، وبالتالي إلى الجنس العربي، ويسوغ بصورة لا تصح المماراة فيها سلك تاريخهم في سلك تاريخ الجنس العربي. وهذا بالإضافة إلى أننا حينما نقرر صلة سكان بلاد الشام القدماء بالجنس العربي، أو بكلمة أدق، حينما نبرز هذه الصلة، نكون قد أبرزنا سعة نطاق الجنس العربي وحيويته في مختلف المجالات الفكرية والأدبية والحضارية والسياسية والعسكرية، حينما برز هذا الجنس على مسرح هذه البلاد، التي كانت مصدراً رئيسياً من مصادر الحضارة البشرية التي شعت على العالم وكانت من مشاعل هداية البشر وحضارتهم الأولى من جهة، ونكون من جهة أخرى قد وصلنا بين حيوية العروبة في دورها الصريح على مسرح هذه البلاد، وبين حيويتها عليه قبل هذا الدور، فصار من سلسلة متصلة الحلقات يمسك بعضها بعضاً من جهة أخرى.

وليس هناك ما يمكن أن يساعد على تعيين مبدأ تاريخي لانسياح الموجات العربية إلى بلاد الشام، ولقد كان فيها قبل انسياح الموجة الكنعانية، التي تسجل كأول موجة معروفة ومعينة الاسم، ومتصلة التاريخ والأحداث، والتي يخمن تاريخ انسياحها في أوائل الألف الثالثة قبل المسيح، سكان يرجح المؤرخون والأثريون أنهم، أو أن منهم موجات جاءت من جزيرة العرب. وهذا الترجيح في محله، لأن انسياح الموجات من جزيرة العرب إلى وادي النيل والعراق قد بدأ قبل الألف الثالثة قبل الميلاد بأمدٍ طويل. ومن المعقول أن تكون بلاد الشام من المناطق التي انساحت إليها موجات من جزيرة العرب مثلها.

ولقد جاء في كتاب الإسلام والمسيحية في لبنان، معزواً إلى المؤرخ الإنكليزي فيليب فان، والأمير موريس شهاب مدير الآثار اللبنانية، أن علماء الآثار اكتشفوا أن هجرات كثيرة متتابعة جاءت من جزيرة العرب إلى مصر والعراق وسورية ولبنان قبل أزمنة التاريخ، وأن من أقدم هذه الهجرات المكتشفة، بالنسبة إلى لبنان، هجرة فوج كنعاني أول قبل مجيء الفوج المعروف يقيناً. ومن الأدلة التي ساقها على ذلك كون تأسيس مدينة بيروت – وهو اسم عربي اللمحة ويرجح أن يكون أصله بئروت – كان في الألف الرابع قبل المسيح، أي قبل قدوم الموجة الكنعانية التي نحن في صددها.

وقد ذكر هذا المطران الدبس في كتابه تاريخ سورية، وأضاف إليه مدينة جبيل وهو كذلك اسم عربي اللمحة، ويرجح أن يكون أصله جب إيل أي حصن الإله، أو مقر الإله – وقال أن منشئيهما ومنشئ مملكتيهما كانوا في لبنان قبل حلول الكنعانيين المعروفين، وساق على ذلك أدلة متنوعة. وهو يقرر في ثنايا كلامه أن هؤلاء المتقدمين على الكنعانيين المعروفين هم أيضاً من الجنس السامي أي العربي.

ولقد ذكر فيليب حتي أن خوفو أول ملوك الأسرة الرابعة نقش اسمه على آنية وأرسلها كهدية إلى سيدة جبيل. وحكم الأسرة التي ينتسب إليها خوفو كان ما بين 2900 – 2750 ق. م، وهو أول أو ثاني ملوكها، أي أن حكمه كان في القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد. وهذا الزمن يسبق الزمن المخمن لطروء الموجة الكنعانية المعروفة واستقرارها ونشاطها. والخبر يتسق مع ما ذكره المطران الدبس في صدد جبيل، كما هو المتبادر.

ولقد جاء في كتاب مصر القديمة، استناداً إلى الآثار المصرية، أن سنفرو أحد ملوك الأسرة الرابعة، أو آخر ملوك الأسرة الثالثة، حسب استنباط مؤرخين آخرين (أي حوالي القرن الثلاثين قبل الميلاد)، قد سير حملة بحرية عظيمة إلى الموانئ السورية، رجعت محملة بالأخشاب التي قطعت من غابات لبنان. ولعل هذا أقدم ذكر لموانئ سورية وأخشاب لبنان. والمتبادر أن هذه العملية لم تكن لتتم إلا بمساعدة أهل البلاد وجهودهم، حيث ينطوي في هذا حقيقة وجود سكان في هذه السواحل ذوي نشاط زراعي، قبل الوقت المخمن لمجيء الموجة الكنعانية المعروفة. وليس ما يمنع أن يكون من موجات عربية سابقة، مما أشار إليها مؤلف كتاب الإسلام والمسيحية في لبنان.

ولقد جاء في كتاب تاريخ سورية ولبنان وفلسطين للدكتور فيليب حتي أن الديانة واللغة الكنعانية تبدآن بالظهور من غياهب العصور السامية القديمة، حوالي مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. غير أن أسلافهم كانوا غالباً يحتلون الأقسام الساحلية الجنوبية من بلاد الشام، قبل ذلك بألف سنة أو أكثر. ويمكن استنتاج ذلك من أسماء الأماكن، على ما أظهره علم الآثار الحديث. وقد تأسست المدن مثل أريحا وبيت شاب ومجدو التي أسماؤها كنعانية قبل عام 3000 ق. م.، وظهر في الكتابات الأثرية في النصف الأول للألف الثاني مدن أخرى لها أسماء سامية معروفة، يمكن اعتبارها كنعانية، مثل عكو وصور وصيدون وجبلة (جبيل) وأركة وسيميرا.

ولقد جاء في كتاب تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار أن سكان بلاد الشام ولبنان كانوا قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة قبائل سامية من البابليين، ثم طرأ عليهم الكنعانيون، وأن اللغة البابلية ظلت اللغة السائدة لأن الكنعانيين ليسوا إلا فرعاً من البابليين، ومما استدل به على ذلك رسائل تل العمارنة التي كانت ترسل من أمراء وحكام سورية باللغة البابلية والخط المسماري، والتي ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد المسيحي.

ولقد ذكرت أسفار العهد القديم أسماء أمم وقبائل عديدة كانت تسكن فلسطين وشرق الأردن إلى جانب الكنعانيين والآموريين، كالعماليق والحوريين والأيميين والرفائيين والحويين والفرزيين والجرجاشيين واليبوسيين، حيث يدل اختصاصهم بالذكر مستقلاً عن ذكر الكنعانيين والأموريين على أنهم من غيرهم. ومن المحتمل كثيراً أن يكونوا فروع موجات أخرى، جاءت قبلهم من جزيرة العرب. وقد قال مؤلف كتاب الإسلام والمسيحية في لبنان عن الجرجاشيين أنهم فخذ من الفوج الكنعاني الأول.

ولقد كان قدوم موجة معروفة يقيناً إلى بلاد الشام الداخلية والشمالية، وهي الموجة الآمورية أو العمورية، بعد قليل من قدوم الموجة الكنعانية. وقد اكتشفت في هذه الأقسام الشامية آثار لسكان أقدم من العموريين، يخمن كذلك أنهم، أو أن منهم موجات عربية الجنس وهو تخمين في محله، لأنه متسق مع ظروف انسياح موجات جزيرة العرب قبل الألف الثالثة السابقة للميلاد المسيحي إلى بلاد العراق ووادي النيل وأنحاء الشام الساحلية والجنوبية، على ما ذكرناه سابقاً.

ومما يؤكد هذه الترجيحات والتخمينات أن موجات جزيرة العرب ظلت تنساح متلاحقة إلى بلاد الشام بعد موجتي الكنعانيين والعموريين، وقبل دور العروبة وبعده، بحيث يصح القول بشيء من الجزم أنه لا يعقل أن تكون الموجتان المذكورتان هما أولى موجات الجزيرة إلى بلاد الشام، ولاسيما أنها متاخمة للجزيرة مباشرة، وأن الانسياح من الجزيرة إلى الأقطار المجاورة لها قد بدأ من زمنٍ أقدم بكثير من الزمن المخمَّن لانسياح الموجتين، على ما شرحناه في الجزء السابق.

الجزء الثالث: الأمازيغ عرب عاربة

د. عثمان السعدي

الأمازيغ (البربر) جاؤوا من اليمن!

تقديم: ما يلي مقتطف من كتاب الدكتور عثمان سعدي من الجزائر، "الأمازيغ عرب عاربة"، الصادر عام 1996 في الجزائر، وعام 1998 في ليبيا. ود. سعدي من قبيلة النمامشة، أكبر قبيلة أمازيغية، وهو يجيد الأمازيغية والعربية، وهو مناضل قديم في جبهة التحرير الوطني الجزائرية، حصل على البكالوريوس من جامعة القاهرة في مصر عبد الناصر عام 1956، وعلى الماجستير من جامعة بغداد عام 1979، وعلى الدكتوراة من جامعة الجزائر عام 1986. وقد عمل فترة في السلك الديبلوماسي في سوريا والعراق ومصر، وهو روائي وناقد أدبي بالإضافة لكونه لغوياً ومفكراً، وهو رئيس "الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية" منذ عام 1990، وقد أصدر في الجزائر عام 2007 "معجم الجذور العربية للكلمات الأمازيغية" الذي يضم تسعة آلاف مدخل، وقد نشره مجمع اللغة العربية في طرابلس، ليبيا، ويبين فيه أن الأمازيغية ـ البربرية هي لهجة منحدرة من العربية الأم منذ آلاف السنين كالآشورية والبابلية والكنعانية والآرامية، وغيرها... ويؤكد أن تسعين في المائة من كلماتها عربية: عاربة أو مستعربة، كما تقول موسوعة ويكيبيديا على الإنترنت.

أما كتاب "الأمازيغ عرب عاربة"، فقد سبقه عام 1983 كتاب "عروبة الجزائر عبر التاريخ" الذي يثبت عروبة الجزائر والمغرب العربي منذ التاريخ القديم.

كتاب "الأمازيغ عرب عاربة" الذي نقتطف منه أدناه "كتاب يؤكد عروبة الأمازيغ البربر، ويبين أن التشكيك في ذلك هو مناورة للاستعمار الفرنسي الجديد بهدف شق الوحدة الوطنية، واستمرار سيطرة الفرنكفونية على الجزائر وبلدان المغرب العربي: تونس، الجزائر، المغرب، وموريتانيا من خلال هيمنة اللغة الفرنسية على دولها".

ولا بد من الإشارة أن المؤلف يستخدم تعبير "بربر" تكراراً في سياق الحديث عن الأمازيغ. وعلى عكس ما يوحيه البعض، فإن تعبير "بربر" غير تعبير "البرابرة" الذي كان يستخدمه الرومان لوصف غير الرومان، والذي بات يعني الهمجية والتخلف عن ركب الحضارة. أما تعبير "بربر" فشيء آخر مختلف تماماً أصله غير معروف، وهو يستخدم لوصف الأمازيغ السكان الأصليين للمغرب العربي، ذوي الأصول اليمنية كما تدل المراجع التاريخية وكما يوثق د. عثمان السعدي.

نقدم هذه المادة في سياق التأكيد على عروبة كل الأرض العربية، وعلى حقيقة الوجود القومي العربي، من العراق وبلاد الشام إلى مصر والسودان إلى بلدان المغرب العربي. فثمة مؤامرة اليوم لوصف الوجود العربي خارج الجزيرة العربية كاحتلال، ولاختراع هويات محلية أصيلة مناهضة للعروبة، وسابقة لها، على ما زعموا، في كل الأقطار العربية خارج الجزيرة العربية. وإذ نقدم هنا صفحات موثقة من عروبة البربر (الأمازيغ) القديمة، فلأن التاريخ القديم للمغرب العربي يتعرض

للتشكيك والطعن بعروبته أكثر من غيره، أكثر من العراق وسوريا الكبرى مثلاً، وأكثر من مصر والسودان. والمستشرقون الغربيون حرصوا على اختراع أصول أوروبية للأمازيع (البربر) كجزء من مشروع شطب هوية الوطن العربي القومية والحضارية. ففي موسوعة ويكيبيديا على الإنترنت مثلاً تجد بالإنكليزية تحت مدخل "بربر" تعريفاً يقول أنهم قومٌ أقرب للأوروبيين منهم للساميين والعرب. وهو الأمر الذي يهدف لسلخ المغرب العربي الكبير عن أمته. فإذا أثبتنا أن الأمازيع (البربر) عربٌ أقحاح، فإن إثبات عروبة الباقي، من مصر للعراق لسوريا للسودان لأريتريا (التي يأتي ذكرها هنا) يصبح أمراً أسهل منالاً. ونشجع كل عروبي أصيل أن يبحث عن المواد التي تثبت عروبة القطر أو المنطقة التي يأتي منها، من البحرين إلى المغرب، وأن ينشر هذه المواد على أوسع نطاق، ولو كان الأمر يتعلق بشجرة عائلته، أو تاريخ عشيرته أو قريته...

وقد ظن بعض الإسلاميين عن حسن نية ربما أن من الأفضل شطب التاريخ العربي قبل الإسلام، باعتباره تاريخاً جاهلياً، فاعتبر أن التاريخ يبدأ مع الإسلام فقط، وهي النزعة التي شجع على انتشارها عن سوء نية بعض الشعوبيين أيضاً من مدعي الإسلام المعادين للعرب. لكن هذا المنطق السطحي الذي يتجاهل دور العروبة والعرب واللغة العربية في الانتشار السريع للإسلام في أرجاء الوطن العربي وخارجه، وفي جعل العرب مادة الإسلام، وفي جعل العربية لغة الإسلام، وفي جعل معركة القادسية امتداداً لذي قار، وفي جعل معركة بلاط الشهداء وفتح الأندلس امتداداً منطقياً لتطويق البطل العربي هنيبعل للإمبراطورية الرومانية عبر جبال الألب السويسرية، هذا المنطق السطحي الذي يفصل تاريخ العروبة قبل الإسلام بشكل تعسفي عن تاريخ العروبة بعد الإسلام هو بالضبط ما يجعل بعض الأفاقين والمغرضين اليوم يعتبرون الفتح الإسلامي "احتلالاً"، لا تحريراً من الفرس والروم وتوحيداً للأمة.

ونلفت أيضاً أن التوحيد كان نزعة عربية أصيلة. فالإسلام ازدهر في هذه الأرض لأنها تهيأت تدريجياً لاحتضانه قبل قرونٍ من المولد النبوي، كما يوضح الأستاذ ميشيل عفلق في "ذكرى الرسول العربي". أما المسيحيون العرب، فيُظهِر د. عثمان السعدي أنهم كانوا في المغرب العربي ذوي نزعات إسلامية توحيدية معادية للرومان منذ ما قبل الإسلام، وهي القصة نفسها التي نجدها عند مسيحيي بلاد الشام والعراق ومصر. وسنقدم في الجزء التالي من "سلسلة التثقيف القومي" في هذا الكتاب مادة بعنوان "الفتح الإسلامي ليس غزواً" عن عروبة بلاد الشام والعراق قبل الإسلام.

أما هنا فيقدم الأستاذ عثمان السعدي خلاصةً جميلة عن تأثير الفينيقيين بالبربر، فتظن للحظة أنه يربط عروبة البربر بتأثرهم بالفينيقيين قبل حوالي ألفي عام، ليعود بعدها ليقدم الدلائل على عروبتهم وعروبة لغتهم منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام، مما يفسر لمَ تفاهم الأمازيع مع الفينيقيين وتحاربوا مع الرومان. ولو كانوا من أصول أوروبية، كما يزعم المستشرقون، كان يفترض أن يحدث العكس تماماً!

باختصار الأمازيغ جاؤوا من اليمن، قبل ثلاثة آلاف عام، ولغتهم ترتبط مع اللغة العربية القديمة بوشائج متينة. تلك هي الخلاصة لمن لا يرغب بالخوض بالتفاصيل، ونعتبر أن هذه المادة تسد ثغرةً أساسية في المادة السابقة للأستاذ الكبير محمد عزة دروزة. فهذا الوطن وطنٌ واحدٌ منذ آلاف السنين، وهو الوطن العربي، موطن الأمة العربية.

الأمازيغ عرب عاربة -عثمان سعدي

من هم الأمازيغ (البربر)؟

مدخل

يكثر الحديث في هذه الأيام عن البربر: عن أصلهم، عن لغتهم، عن تاريخهم مع العرب ومع العربية ومع الإسلام. وأنا هنا أستعرض تاريخ المسألة البربرية، عبر مراجع فرنسية لتعزيز رأيي الوارد في الكتاب، والمتمثل في أن البربر من العرب العاربة، استقروا في المغرب ضمن هجرات سابقة للفتح الإسلامي، على أساس أنهم ساميون، أي من العرب القدامى؛ بسبب بطلان التسمية السامية لتاريخنا، بإجماع المؤرخين. هذه التسمية التي أطلقها المستشرق اليهودي النمساوي "شلوتزر SHLOTZER " في الربع الأخير من القرن الثامن عشر. ويستبدل المؤرخون مصطلح الساميين بالأقوام العربية القديمة أو العروبية.

إن البربر يعيشون في حوض حضاري، ولا أقول (عرقي)، يقع في هذا الامتداد الجغرافي، من سلطنة عمان شرقا على المحيط الهندي، إلى موريتانيا على المحيط الأطلسي غرباً. وكان هذا الامتداد مسرحا لمد بشري، منذ عشرات آلاف السنين، في الاتجاهين: من المغرب إلى المشرق، ومن المشرق إلى المغرب.

فالمؤرخ الفرنسي " غوتييه E. F. GAUTIER" في كتابه: "ماضي شمال إفريقيا"، يرى أن "الاحتمال الكبير هو أن الإنسان الذي عمّر وادي النيل هاجر من الصحراء الكبرى". (E.F. Gautier: Le Passe de l'Afrique du Nord، p.23)

كما أن ششنق الأول البربري اتجه سنة 950 قبل الميلاد، من المغرب العربي الذي كان يسمى ليبيا ذلك الوقت، وحكم مصر الفرعونية، وأسس البربر الأسرتين الفرعونيتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين. كما انطلق البربر من بلاد القبائل بالجزائر وأسسوا الدولة الفاطمية، وبنوا القاهرة. إذن فإنَّ البربر يعيشون وسط هذا الحوض الحضاري الكبير الذي عرف تبادل الهجرات منذ التاريخ القديم.

ومن الغريب أن (البربريست)، [أي أصحاب النزعة البربرية الشعوبية المعادية للعرب- إ. ع]، افتعلوا ما يسمى بالتقويم البربري بمناسبة توجه ششنق إلى مصر، وسموه التقويم الششنقي، فزيفوا التاريخ، وحولوا هذه المناسبة من عنصر تاريخي موحد بين مشرق هذا الامتداد الجغرافي ومغربه، إلى عنصر مكرس لانفصالهما. ويطالب "البربريست" باعتماد هذا التاريخ كرأس للسنة البربرية، والاحتفال به كعيد وطني، مقابلا لعيد المولد النبوي الشريف. بينما لا يعرف تاريخ البربر هذا النوع من التقويم.

البربر والعرب القدامى

إنَّ بعض المؤرخين مثل أحمد سوسة العراقي، " وبيير روسيه P. ROSSI " الفرنسي، يرون أن الموجات البشرية الخارجة من الجزيرة العربية هي التي عمرت الشمال الإفريقي وحوض البحر الأبيض المتوسط بشماله وجنوبه، وذلك منذ بدء المرحلة الدافئة الثالثة (وورم 3 (Warm في التاريخ الجيولوجي للأرض، أي قبل عشرين ألف سنة، والتي نجم عنها ذوبان الجليد في أوروبا وحوض البحر المتوسط، وزحف الجفاف على شبه الجزيرة العربية، التي كانت تنعم قبل بدء هذه المرحلة، بمناخ شبيه بمناخ أوروبا حالياً.

وتعتبر هجرة الفينيقيين إلى المغرب واحدة من هذه الهجرات المتأخرة للأقوام العربية من الجزيرة العربية التي سُبقت بهجرات سابقة لها، لم يسجلها التاريخ كما سجل هجرة الفينيقيين. وتنقّل الفينيقيين من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، ومن بلاد الشام إلى المغرب العربي، جاء عفوياً ليؤكد تبادل هذا المد البشري في هذا الحوض الحضاري الكبير.

ويؤكد المؤرخون العلماء الأوروبيون، من خلال استقراءاتهم لعلم الآثار والنقوش والكتابات القديمة المكتشفة، أن استيطان الفينيقيين – منذ منتصف الألف الثانية قبل الميلاد (أي منذ 3500 سنة) – هو الذي مهد لسهولة قبول البربر للغة العربية والدين الإسلامي في القرن السابع الميلادي. ويرون أن اللغة البونيقية Punic Language التي هي عربية قديمة استمرت قائمة بالمغرب العربي كلغة ثقافة وحضارة ودواوين، حتى بعد تدمير قرطاج، وخلال الاستعمار الروماني، وإلى أن دخل العرب المسلمون؛ فحدث الوصل بين البونيقية التي هي عربية قديمة وبين العربية التي هي لغة حديثة طورها القرآن الكريم والإسلام.

[البونيقية لهجة من لهجات اللغة الفينيقية، كانت سائدة في شمال أفريقيا، والفينيقية لهجة كنعانية، وهي بالتالي من جدات اللغة العربية. واللهجة الفينيقية الكنعانية كانت سائدة في لبنان وساحل سوريا ومنطقة الجليل في فلسطين وفي... مالطا. واللغة المالطية الحديثة بالمناسبة خليط من اللغة العربية والإيطالية والإنكليزية، وتكتب بالحرف اللاتيني، لكن أساسها لغة سامية عربية – إ. ع].

كما أن هؤلاء المؤرخين يرون أن الديانة الفينيقية، أي القرطاجنية التي اعتنقها البربر، المؤسسة على شبه توحيد، هي التي جعلت نفوس البربر جاهزة لاستقبال الدين الإسلامي بهذه السهولة، بل وبهذه العفوية. إن إمبراطورية قرطاج، وحضارة قرطاج الراقية، التي استمرت سائدة في حوض البحر المتوسط وفي العالم، عدة قرون، تأسست نتيجة للتزاوج بين شعبين عربيين: الشعب الفينيقي القادم من لبنان، والشعب البربري الذي كان موجودا بالشمال الإفريقي، إلى أن جاء العرب المسلمون فأقاموا عملية الوصل بين حلقتي الحضارة العربية.

وسأعرض نصوصاً لمؤرخين فرنسيين، متخصصين في الدراسات البربرية والسامية، تؤكد هذه الحقيقة. فمحررو (مادة الجزائر) في الموسوعة الفرنسية (يونيفيرساليس UNIVERSALIS) يقولون:

"بدأ تاريخ المغرب الأوسط بوصول الفينيقيين الذين سجلوا حضارتهم كأول حضارة بالمدن، حيث تركت بها آثاراً مكتوبة، فأسسوا مبكراً، في القرون الأخيرة للألف الثانية قبل الميلاد، مراكز تجارية. وتطور الفينيقيون إلى قرطاجنيين، ولم يستعمروا داخل البلاد، ولكنهم طوروا هذه المدن

الساحلية التجارية، والتي استمرت قائمة حتى بعد تدمير قرطاج، تحمل تسميات سامية كمدن راسكو رو (دلس)، وروس كاد (سكيكدة)، وروس قونية (ماتيفون)... وكان الرؤساء البرير المسيطرون على داخل البلاد حلفاء وزبائن تجاريين للقرطاجنيين، يمدونهم بفرق عسكرية، وبخاصة بالفرسان النوميديين المشهورين، وبالفيلة الحربية والجنود. وانتشرت اللغة البونيقية (أي اللهجة الفينيقية الكنعانية السائدة في شمال أفريقيا – إ. ع) والحضارة الفينيقية بعمق في البلاد وظهرت مدناً للأهالي، وأضرحة ومزارات دينية، بنيت أحياناً من طرف فنيين قرطاجنيين... وهكذا فقد كان البربر تلاميذ للفينيقيين الذين علموهم أساليب زراعية وصناعية، كصناعة الزيت، والنبيذ، وصناعة الأدوات من النحاس؛ وعلموهم على الخصوص ديانتهم. واستمر البربر يعبدون آلهة قرطاج، حتى أثناء الاحتلال الروماني، لدرجة أن بعض المؤرخين يرون أن المسيحية، ثم الإسلام، لم يُقبلا من البربر، بهذه السهولة، إلا بسبب دخول هذه الديانة القرطاجنية المغرب، التي هي ديانة سامية.
واستمرت اللغة البونيقية متداولة حتى بعد القرن الثالث الميلادي، حيث لعبت دور الوصلة إلى اللغة العربية" (Encyclopeadia Universalis، T1، P633)

دخول البربر العصر الحضاري:

لقد خرج البربر من العصر الحجري الحديث، ودخلوا التاريخ والعصر الحضاري عن طريق إخوانهم الفينيقيين. فالمؤرخ الفرنسي المتخصص في الدراسات البربرية رونيه باسيه R. Basset يورد حقائق تؤكد ذلك، فيقول:

"إن اللغة البونيقية لم تختف من المغرب إلا بعد دخول العرب. ومعنى هذا أن هذه اللغة بقيت قائمة، هذه المدة بالمغرب، لتسعة عشر قرناً، وهو أمر عظيم... لقد استمر تأثير مدينة قرطاج قائماً حتى بعد تدميرها، فقد تحولت (سيرتا) تحت حكم الملوك النوميديين البربر إلى مركزٍ بونيقي، بل أن اسم سيرتا هو (قرطا)، أي المدينة بالبونيقية... لقد علم القرطاجنيون البربرَ الزراعةَ. فالبربر يكسرون الرمانة على مقبض المحراث، أو يدفنونها في أول خط للحرث، تفاؤلاً بأن سنابل الحبة المبذورة ستأتي كثيرة بعدد حبات الرمانة. وهي عادة مستمدة من ثقافة قرطاج، فالرمانة لديهم رمز للخصوبة. وتعتبر قرطاج مربية للبربر، فقد علمتهم كيفية الاعتناء بالزيتونة التي كانت موجودة بالمغرب كشجرة وحشية وكيفية استخراج الزيت منها. ويفصل "غزيل" Gsell هذه المسألة لغوياً فيقول: [إن كلمة أزمور بالبربرية تعني الزيتونة الوحشية وهو الاسم البربري لهذه الشجرة. أما إذا تكلموا عن الزيتونة الملقمة أطلقوا عليها الاسم السامي (الزيتونة)، وعلى سائلها اسم الزيت...]. كما علم الفينيقيون البربر زراعة التينة التي كانت قبلهم موجودة بالمغرب كشجرة وحشية أيضا، وعلموهم زراعة الكرمة، والرمانة، وعلموهم عموما فن زراعة الشجر المثمر. وقد تبين لنا الآن أن البربر كانوا على اتصال بالفينيقيين منذ ما قبل التاريخ... وعلم الفينيقيون البربر الصناعات القابلة للتصدير كالسيراميك، وصناعة المعادن، والنسيج والمجوهرات: كالخلاخيل، والتيجان، والخلالات (المشابك)، التي تصنع في صورة كف مبسوطة الأصابع. والتشابه واضح بين مجوهرات القبائل (بالجزائر)، والسوس (بالمغرب)، وبين المجوهرات القرطاجية. أما ديانة قرطاج فهي التي كانت منتشرة بالمغرب كالإله (بعل عمون)، والإلهة (تانيت)، وكان هذا الإله منتشرا بالعالم العربي كله، الأمر الذي أورد اسمه القرآن بالآية: (أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين)، لدرجة أن انتشار الإسلام بشمال أفريقيا عائد إلى ما فعلته قرطاج في هذه البلاد... أما عن اللغة فقد جعل الملوك النوميديون البربر، في العهود الأخيرة، من البونيقية لغتهم الرسمية، لدرجة أنه كان الناس في بلاد البربر، وفي المدن على الخصوص، يتحدثون البونيقية أكثر من البربرية، وحتى في العهد الروماني... إن المناطق التي انتشرت فيها البونيقية أكثر هي التي تعربت بالكامل. والبونيقية لغة قريبة من العربية التي ما أن دخلت المغرب حتى خلفت البونيقية وبسهولة، كما أن آلهة قرطاج هي التي مهدت لانتصار الإسلام في هذه البلاد، واللغة القرطاجنية عبدت الطريق للعربية... وخلاصة القول أن قرطاج لم تجلب سوى الخير للبربر، فقد علمتهم غرس الأشجار المثمرة، وربتهم روحياً ودينياً. ومن الغريب أن هذا التأثير تعمق أكثر بعد تدمير قرطاج. لقد دمرت روما أسوار قرطاج لكنها فشلت في تدمير تأثيرها في نفوس البربر، بل إنه كلما تأسس احتلال روما للمغرب كلما انتشرت وتعمقت في نفوس البربر لغة قرطاج وعقائدها. وهل يختلف الوضع الآن عنه آنذاك؟!!!!". (Rene Basset: Les Influences Puniques chez les Berberes، Revue Africaine، V.62 (1921)، p.340)

لنلاحظ مغزى هذا السؤال الذي طرحه المؤرخ الفرنسي، فهو يريد أن يقول أنه كلما تغلغل الاستعمار الروماني في الأرض المغربية ازداد المغاربة تشبثا بالبونيقية، وبالديانة القرطاجانيةِ، في

الماضي، وكلما ازداد الاستعمار الفرنسي تغلغلا الآن في الأرض المغربية ازداد البربر تشبثاً بالعربية وبالإسلام. إنه يريد أن يقول باحتشام: إنَّ التاريخ يعيد نفسه. هذا ما كتبه هذا المؤرخ الفرنسي، إنه يؤكد الأصل العربي للبربر، من الحفريات والكتابات الأثرية، التي اكتشفها علماء الآثار الفرنسيون والأوروبيون بالمغرب العربي.

[يُشار إلى أن مملكة نوميديا البربرية التي سادت في الجزائر وجزء من تونس بين عامي 202 و46 قبل الميلاد كانت قد تحالفت مع القائد الفينيقي العربي العظيم هنيبعل ضد الرومان، وزودته بخيالة محترفين من الدرجة الأولى، بالرغم من أن بعض قياداتها تآمر مع الرومان. كما أنها خضعت بدورها للاحتلال الروماني، واستوعبت كثيراً من المهاجرين القرطاجنيين بعد الهزيمة، وقاتلت الرومان في أكثر من حرب، بعد مئة عام من هنيبعل – إ. ع].

ويؤكد مؤرخ آخر فرنسي هو " سانتاس P. CINTAS فيقول: "لقد بينت الكتابات البونيقية المكتشفة بالمغرب، والتي تحمل تاريخ 162و147 قبل الميلاد (أي تحت حكم ماسينيا) مدى ارتباط الأهالي بقرطاج دينياً من خلال عبادتهم لبعل عمون، الإله القرطاجي، وهذا يؤكد السيطرة المستديمة للديانة القرطاجية على السكان المحليين. أريد التحدث عن استمرار البونيقية، فقد بقيت منتشرة بالمغرب بعد تدمير قرطاج وفي العهد الروماني، وحتى بعد القديس أوغسطين الذي ذكر مراراً أن السكان الذين كانوا يحيطون به يتكلمون البونيقية. إن اللغة البونيقية استمرت بين بعض البربر كلغة ثقافة... بل أن الدوناتية مقدمة لإلغاء الإسلام للمسيحية، وللثقافة الرومانية بالمغرب. ويقول غوتييه: إنَّ اوغسطين عندما كان يسأل هؤلاء الأهالي في دروسه الواعظة، ما هو أصلكم ؟ كانوا يجيبونه : نحن كنعانيون". (P. Cintas: Ceramiques Puniques، Paris 1950. (Revue Africaine، Vol. 100، 1956)

والكنعانيون هم الفينيقيون. ويذكر المؤرخ الفرنسي رينان "E. RENAN" "أن البربر اعتنقوا الإسلام بسهوله، لأنهم كانوا يعرفون البونيقية". (E. Renan: Histoire Generale des Langues Semitiques 7eme edition، p.199)

ويذكر غوتييه "أن استعمال البونيقية كان سائداً في كثير من نواحي المغرب الشرقي حتى القرن الخامس الميلادي".

ويؤكد المؤرخ " وليام مارسي W. MARCAIS" "أن البونيقية كانت لغة الدوناتيين، ويأسف القديس أوغستين لأن فلاحي المنطقة التي كان يعيش فيها (عنابة) كانوا لا يجهلون تقاليد الكنعانيين والمورو، ويقول: عندما نسأل فلاحينا من أنتم؟ يجيبوننا بالبونيقية. نحن كنعانيون. كما أن القديس أوغستين لم يشر أبدا إلى اللغة البربرية".

إن معنى هذا أن لغة الكاثوليك، المذهب الرسمي للاستعمار الروماني، وبالتالي لغة القديس أوغسطين، كانت اللاتينية، وأن لغة المذهب الدوناتي مذهب الشعب بالمغرب العربي، كانت البونيقية. وقد ظهر هذا المذهب المسيحي في المغرب في القرن الرابع الميلادي، على يد الأب دونا الذي كان يسميه الرومان (دوناتوس) الذي توفي سنة 355م. وارتكز هذا المذهب على عنصرين أساسيين، الأول: اعتماد التوحيد ورفض الثالوث الذي يرى فيه بدعة دخيلة على المسيحية.
والعنصر الثاني : اعتماد الدين المسيحي كدين جاء لرفع الظلم عن المظلومين، ولهذا فلا بد أن

يساعد المغاربة على تحريرهم من الاستعمار الروماني. وهذا هو الذي جعل المؤرخ الفرنسي سانتاس يقول: "كانت الدوناتية مقدمة لإلغاء الإسلام للمسيحية، والثقافة الرومانية بالمغرب".

والمعروف أن الأب دونا سجنه الرومان بل ومات في سجنهم. دون أن تعتبره الكنيسة ومؤرخوها في ذلك الوقت، شهيدا للمسيحية، فتضيف لاسمه كلمة القديس.

والمعروف أن الأب دونا استشهد في نفس السنة التي ولد فيها القديس أوغسطين، الذي سبق أن كتبت رأيي فيه وهو أنه كان عميلاً كبيراً للاستعمار الروماني، سخر المسيحية ضد نضال شعبه البربري من أجل التحرر من الاستعمار، وحرض السلطة الاستعمارية على إلغاء الدوناتية، واضطهاد أتباعها والإلقاء بأساقفتها في السجون سنة 411م، حيث ماتوا فيها. واستمر أتباع هذا المذهب يمارسونه في الخفاء إلى أن جاء الإسلام فوجدوا فيه ضالتهم فاعتنقوه... وقد كانت القبائل البربرية قبل الإسلام، تمارس طقوس الديانة البونيقية باعتراف الكاتب البربري المشهور (أبوليوس) الذي كتب باللاتينية، والذي اعترف بأن أباه كان مسيحياً، وأمه وثنية.

ومعنى ذلك أيضا أن البونيقية كانت قبل الفتح الإسلامي، تقوم بنفس الوظيفة التي صارت تقوم بها اللغة العربية، بعد الفتح الإسلامي. وأن دخول العربية جاء ليخلف البونيقية، بأسلوب تطوري طبيعي، من لغة عربية قديمة إلى لغة عربية حديثة، طورت على يد الإسلام.

ويستمر المؤرخ مارسيه فيقول "إن فاليروس VALERUS قال: سمعت الفلاحين يثرثرون بلغة أجهلها، ويرددون كلمة (ثالوث Salus)، وعندما سألتهم عن معناها أجابوني: معناها (ثلاثة). والملاحظ أن القديس أوغسطين لم يشر أبدا إلى اللغة الليبية (البربرية). وعندما هربت العذراء (ديميترياس) من روما بعد احتلالها من طرف الغوت، علق القديس جيروم Saint Jerome (347 - 420 م)، على دخولها الرهبنة المسيحية بقوله: من يتبع عرسك غير أصوات مصرصرة باللغة البونيقية، تودعك بفاحشة مقيتة... (ويقصد بكلمة ستريدور Stridor) اللاتينية الزغرودة البونيقية التي ترافق الزفاف". (William Marcais: Revue Africaine، T:94 (1950) p.280)

وهذا يشير إلى أن الزغرودة المعروفة بالوطن العربي مشرقا ومغربا، هي عادة عربية قديمة كانت مستعملة لدى الساميين (العرب القدامى).

ويروي الكاتب النوميدي البربري المشار إليه قبل قليل، أبوليوس (125-180م) في كتابه دفاع Apologie "أن ربيبه سيسينيوس كان لا يعرف اليونانية، ويجهل اللاتينية، أو يرفض استعمالها، وكان لا يتكلم إلا البونيقية". وسيرد في الكتاب رأي المؤرخ المصري رشيد الناضوري، حول علاقة البربر بالفينيقيين ومصر الفرعونية. ولا ينبغي أن يتملكنا العجب من التأثير الفينيقي في المغرب، فقد بدأ يظهر بالغرب المؤرخون الذين يؤكدون الأصل العربي القديم للحضارة اليونانية، مثل بيير روسيه الفرنسي الذي سيرد تحليل لكتابه في هذا الكتاب. وأود أن أشير إلى آخر ما صدر في المكتبة الأوروبية، وهو كتاب (أثينا السوداء : الجذور الأفريقية الآسيوية للحضارة الكلاسيكية) للكاتب الانكليزي المولد، الأمريكي الإقامة (مارتن برنال M. Bernal)، الذي طبع بلندن سنة 1991. فقد قال : " لا بد لنا من أن نعيد التفكير في أسس الحضارة الغربية، وفي التسليم بدور النزعة العرقية الأوروبية في كتابة وفلسفة التاريخ، وبأن أوروبا هي العالم، وبأن العقل هو العقل الأوروبي، فقد سادت أوروبا موجة عالية من الأثنية والعنصرية".

ثم يتكلم عن التأثير السامي (العربي القديم) في اليونان، فيقول : "إن الوثائق المسجلة التي وصلت إلينا من منطقة إيجا، هي ألواح مكتوبة بالإغريقية، ويرجع تاريخها إلى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، وتشتمل على كلمات مستعارة من السامية، وعلى الكثير من الكلمات المصرية، وثمة أوجه شبه مذهلة بين مضمون هذه الوثائق وبين عديد من المسائل الاقتصادية مثل المكاييل والموازين، التي كانت سائدة في المشرق وفي بلاد ما بين النهرين... إن المصريين والفينيقيين أقاموا المدن والمستوطنات في اليونان القديمة، وأدخلوا فيها نظام الري. الفينيقيون هم الذين علموا اليونان القدماء الأبجدية، بينما علمهم المصريون الدين وأسماء الآلهة وكيف يعبدونها. أي أن الإغريق كانوا يمارسون طقوساً وشعائر مصرية في معابدهم، أو لنقل بعبادة أخرى أن منظورهم إلى العالم لم يكن أوروبياً... وتدعم هذه الاكتشافات رواية الإغريق القدماء من أن كيكرويس مؤسس مدينة أثينا قد أتى من مصر، بل اسم أثينا اسم مصري. فقد كان المصريون يسمون بلدهم (أثيناي)، وهو الاسم الديني لبلدة سايس، العاصمة المصرية. وجدير بالذكر أننا نجد تماثيل للإلهة أثينا سوداء، أي مصرية إفريقية. إذن فقد كان لمصر وللساميين الغربيين دور يقيني في تشكيل بلاد الإغريق. فقد استوطن المصريون بلاد الإغريق من موقع السيادة السياسية والثقافية. ويذكر أن أفلاطون يقرر في محاورة طيماوس، أن هناك علاقة نشوئية بين مصر واليونان... إن اللغة اليونانية هي أساسا لغة هندوأوروبية، لكن أكثر من خمسين بالمائة من معجمها كلمات مصرية فينيقية، وخاصة فيما يتعلق منها بعلم الدلالات (السيمنطيقا)، وتطورها ومفردات الترقية، والعلاقات السياسية، والأسرية، والقانون والدين والمجردات فإنها ليست هندوأوروبية.

فهي أي اللغة اليونانية، بوصفها هذا نتاج لاستعمار مصري فينيقي. لقد تكونت اللغة اليونانية خلال القرنين السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد، وهي ذات بنية هندوأوروبية، ومفردات أصولها مصرية وسامية غربية... قليلة جدا هي أسماء الأماكن والبلدان اليونانية التي يمكن تفسيرها على أساس هندوأوروبي. وأن عددا كبيرا جدا من أسماء البلدان والمعالم اليونانية هي من أصل سامي أو مصري. مثل نهر ياردانوس في كل من كريت وبليبونيز، وهو مشتق من ياردا أو (الأردن). واسم (أنيجروس) مصدره جذر سامي: نجر، بمعنى فاض. ونراه كثيرا متضمنا معنى واحة أو نهر وسط الصحراء في كثير من بلدان شرق آسيا، وشمال أفريقيا (نهر النيجر)... ومثل أسماء الجبال والمجردات والجوامد، مثل ذلك الجذر (سام) الذي يتكرر في غالبية الأسماء الإغريقية مثل ساموس وسامكون... الخ. وهي أسماء مشتقة من الجذر السامي (سام بمعنى مرتفع). أما مدينة أسبرطة اليونانية فقد تمصر مجتمعها فيما بين 800 و500 قبل الميلاد، واسمها مستمد من موقع جغرافي مصري (سبيت، أوسبرت، بمعنى حي أو مقاطعة أو عاصمة). بل إنَّ أسماء الأساطير اليونانية هي أسماء مصرية مثل (أغا ممنون)، وهو مشتق من كلمتين مصريتين أغا بمعنى عظيم، وممنون وهو أمنحوت أو أمنمحعت... [ومن هنا استخدام "ممنون" بالعامية العربية؟ – أ. ع]. ويختم المؤلف كتابه بقوله: إنَّ هذا الكتاب هدفه فتح مجالات بحث جديدة، لذوي الأهليات الأفضل والأكثر تميزا، ثم الحد من غطرسة الثقافة الأوروبية". (Martin Bernal: Black Athena، The Afroasiatic Roots of Classic Civilization، London، 1991)

ولنلاحظ أن هذا المؤرخ يدمج بين المصريين والفينيقيين في الأصول اليونانية القديمة، وهذا يؤكد أن المصريّين ساميون أي عرب قدامى، وأن الحضارة المصرية سامية أي عربية قديمة وهو ما

أكده المؤرخ الليبي علي فهمي خشيم. (علي فهمي الخشيم: آلهة مصر العربية، الجزء الثاني، ليبيا 1990).

ويعبر الشيخ البشير الإبراهيمي عن هذا كله بحدسه وإحساسه، لأنه لم يكن مطلعا على هذه الكتابات، منطلقا من ثقافته العربية القديمة الواسعة، ومن اطّلاعه بل وحفظه عن ظهر قلب لمعجم اللغة العربية، فيقول: "إن عروبة هذا الشمال الأفريقي جرت في مجاريها طبيعية مناسبة لم يشبها إكراه، وإنما هي الروح عرفت الروح، والفطرة سايرت الفطرة، والعقل أعدى العقل، وكأن هذه الأمم التي تغطي الأرض قبل الاتصال بالعرب، كانت مهيأة للاتصال بالعرب، أو كأن وشائج من القربى، كانت مخبوءة في الزمن فظهرت لوقتها، وكانت نائمة في التاريخ فتنبهت لحينها".

إذن فإنَّ كل الدلائل تشير إلى أن البربر عرب في أصولهم، وأن اللغة البربرية لهجة من لهجات العربية القديمة (أي لما يسمى خطأ باللغة السامية): كل المتخصصين في الدراسات البربرية أثبتوا أن البربرية واحدة من اللغات السامية (أي العربية القديمة)، فقد تكون مشتقة من اللغة البونيقية، مثلما يرى صراحة المؤرخ الفرنسي للحضارة العربية "غوستاف لوبون". وكل المكتشفات الأثرية المتعلقة بالنقوش والكتابات القديمة، تبين أن البربر أقرب إلى الحِمْيَريين [من حضارة حِمْيَر في اليمن – إ. ع]. إن هجرات عديدة تمت من الجزيرة العربية إلى شمالِ أفريقيا. فالهكسوس مثلا شعب هاجر من الجزيرة العربية واستقر في مصر في الفترة ما بين 1730 و 1570 قبل الميلاد. وهي من هذه الهجرات السامية التي سجلها التاريخ. فالمؤرخ التونسي عثمان الكعاك يرى : "أن البربر قدموا من الجزيرة العربية، في زمن لا يقل عن ثلاثين قرنا قبل الميلاد. وأن الفينيقيين اختلطوا بالبربر على طول السواحل الإفريقية المغربية، في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ولما كان البونيقيون عربا من بني كنعان، فقد اختلطوا بالبربر، الذين هم عرب من العاربة القحطانية".

ويؤكد المؤرخون أن مدينة سوسة بتونس بناها العرب القادمون من جنوب الجزيرة العربية، قبل أربعة آلاف سنة، وأعطوها اسم (حضرموت). ويسجل المستشرق الألماني رولسلر التشابه بين الأكادية والبربرية. (O. Rosler: Za، 50 (1952). Orientalia 20 (151))

بل إنَّ محمد كاتي الذي هو من مدينة (تنبكتو) بمالي، يقول في كتابه (طارق الفتاش)، الذي تُرجم إلى الفرنسية في باريس سنة 1913، يقول في صفحة 25: "إن القبائل الساكنة على ضفاف نهر النيجر، حتى المحيط الأطلسي، جاؤوا من اليمن". والذي يؤكد ارتباط البربرية بالحميرية، أن وزن (أفعول) الذي تشتهر به البربرية، هو وزن حميري اشتهرت به هذه اللغة. فقد نشر الباحث اليمني القاضي إسماعيل بن علي الأكوع مقالا بمجلة المجمع العلمي السوري (عدد نيسان – 1986) تحت عنوان (الأفعول وما جاء على وزنه في اليمن). كما كتب الأستاذ مظهر الإيرياني في مقال حول (نقش جبل أم ليلى) وردت فيه ثلاث صيغ على هذا الوزن، وهي أسماء لفروع لقبيلة خولان باليمن القديم، وسجلت بالخط المسند وهي:

أحنُّوب

أعبُّوس

أحبُّوس

ويلخص الكاتب الفرنسي فلوريان التطابق الكامل بين العرب والبربر، فيما يلي: "أصل مشترك، لغة واحدة، عواطف واحدة، كل شيء يساهم في ربطهما ربطا متيناً". أما عن تسمية البربر، فالنقوش الأثرية المكتشفة تشير إلى أن كلمة بربر وجدت في اليمن. فجزيرة بربرة جزيرة تابعة لليمن توجد في مضيق اليمن. كما وجد اسم قبيلة البر مكتوبا بالخط الصفائي. ويقول محمد شفيق، من المغرب الأقصى، وهو متعصب للبربرية: "كتب المؤرخون العرب وجزموا بأن البربر من أصل يماني من العرب العاربة، وتكمن فكرة التأكيد اليوم على القرابة القديمة المحتملة بين الأمازيغيين واليمانيين، في ثلاث قرائن: أولاً: أن عددا لا بأس به من أسماء الأماكن، على الطرق الذي يمتد من المغرب الكبير واليمن لها صيغ أمازيغية واضحة. منها في صعيد مصر (أبنو، أسيوط)، وإيخيم وتيما في جبل حوران في سوريا، وتيما في شمال السعودية، وتاركما، وأتبار وتيمرايين في السودان، وأكسوم بأسمرا، وأكولا، وأكوؤدات (أكوؤضاد) في أريتريا، وجزيرة أنتوفاش في اليمن. ثانياً: لقد عثرت على عدد من الألفاظ العربية التي قال بشأنها صاحب لسان العرب، أنها حميرية، أو يمانية، وهي الألفاظ التي لها وجود في الأمازيغية، إما بمدلولها الحميري، أو بمدلول معاكس (الأضداد). [درج العرب القدماء على وصف الأشياء بأضدادها – الناسخ]، ثالثا : بين حروف التيفيناغ القديمة، ومنها التوارقية، وبين حروف الحميريين (الأبجدية الحميرية – المسند) شبه ملحوظ". (محمد شفيق: لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرناً من تاريخ الأمازيغيين، عن كتاب عروبة البربر).

وتوجد أسماء باليمن متطابقة مع أسماء لقبائل بربرية كالأشلوح: اسم قرية وقبيلة باليمن، والشلوح تجمع كبير للقبائل البربرية بالمغرب الأقصى. والأكنوس، عشيرة من بني مهاجر باليمن، ومكناسة بالمغرب.

ومما يؤكد عروبة البربر، أن المغرب العربي لم يُحكم بالخلافتين الأموية والعباسية، فقد أنفصل منذ وفاة عمر بن عبد العزيز، وحكم البربر المسلمون أنفسهم بأنفسهم منذ ذلك التاريخ، من خلال أكثر من عشر أسر بربرية حكمت المغرب العربي حتى مجيء الأتراك، ولم يحدث أن قال حاكم واحد من هؤلاء أن المغرب بربري، وأن العربية لغة دخيلة، ولا بد من ترسيم البربرية [أي جعلها لغة رسمية – إ. ع]. بل عملوا كلهم على نشر العربية وتطويرها. بينما نجد الأتراك والفرس قد حُكِموا من الخلافتين الأموية والعباسية أكثر من خمسة قرون، وبمجرد سقوط الخلافة العباسية، عاد الفرس فرساً بلغتهم، والأتراك أتراكاً بلغتهم.

هل بقاء المغرب عربياً حتى الآن صدفة تاريخية؟ لا توجد صدفة في التاريخ. كما بينا فإن البربرية لم تكن لغة في تاريخها، وإنما كانت دائماً لهجة أو لهجات إلى جانب لغة الحضارة والثقافة في شمال أفريقيا، التي كانت اللغة البونيقية. فالمؤرخ الفرنسي أندريه باسي A. Basset، ينشر كتاباً سنة 1929 في باريس تحت عنوان "اللغة البربرية" La Langue Berbereيقول فيه: "لم تقدم البربرية أبداً لغة حضارة، لا في الماضي ولا في الحاضر، كما أنها لم تقدم لغة موحدة موزعة على مجمل البلاد، كما لم يكن لها آداب مكتوبة، أو مدارس تُعلم فيها. لقد كانت ولا تزال لغة محلية. لقد فُتتت البربرية إلى لهجات متعددة، مجزأة حسب كل قرية، لدرجة أنه لا توجد لهجات للبربرية، ولكن يوجد لها واقع لهجوي. بل إن التفاهم بين جماعة بربرية وأخرى قليل أو معدوم".

كما يقول المؤرخ الفرنسي غوتييه E.F. GAUTIER: "ويلاحظ أنه لا يوجد كتاب واحد كُتِبَ بالبربرية، كما أنه لا توجد كتابة حقيقية لها، بل لا توجد لغة بربرية منظمة". (E.F. Gautier:

((Consideration sur l’Histoire du Maghreb. Revue Africaine. Vol. 68 (1927

أما عن الحروف التي تمتاز بها البربرية ولا توجد باللغة العربية فإن الكثير منها موجودة بالعربية كالزاي المفخمة التي توجد بالكتابة العربية الجنوبية، فحرف X بخط المسند اليمني هو هذه الزاي المفخمة، التي يقول عنها ابن منظور صاحب قاموس لسان العرب: "إنه حرف عربي قديم، حُذِف من العربية الحديثة"، ولا تزال البربرية تحتفظ به، وهذا يدل على الأصل العربي للبربرية". (كتاب عروبة البربر، ص 29).

كما أن الكاف المعطشة بالبربرية ليست غريبة عن العربية، فاختلاف نطق الكاف ليس غريباً عن العربية التي تعتبر اللغة الوحيدة بالعالم التي تُنطق فيها الكاف بعدة مخارج حروف، وفقاً للهجات العربية، كالكشكشة والشنشنة، وغيرهما.

يقول الأستاذ محمد شفيق: "إن البربرية صورة مثبتة مجمدة من لغة قديمة، تفرعت عنها اللغة العربية في وقت ما، وهذا يدعم وحدة اللغتين القديمة" (كتاب عروبة البربر، ص 30)

وهذه اللغة القديمة التي يشير إليها الأستاذ شفيق، ليست سوى اللغة العربية القديمة، التي أُطلق عليها خطأً اسم السامية.

الجزء الرابع: عروبة بلاد الشام والعراق

ومسيحيو الشرق/ د. فؤاد المرعي ـد. أدمون رباط

تقـديـم

لا تقوم القومية العربية على أساس عرقي طبعاً. وهي، على عكس ما يرميها به أعداؤها، قومية مناهضة للعنصرية، بمعنى أنها لا تجعل النقاء العرقي واحداً من مكوناتها كما يفعل بعض أصحاب النزعة القومية في الغرب. والوطن العربي، في موقعه الفريد في وسط العالم القديم، كمعبر للغزوات والهجرات، ولطرق التجارة العالمية، من المستحيل عليه، أكثر من أي وطن آخر، أن يزعم النقاء العرقي لأبنائه. والعرب، أكثر من غيرهم، قد يكونون من أقل شعوب الأرض نقاءً من الناحية العرقية، بالرغم من حرصهم التاريخي على صفاء النسب من الناحية العشائرية. ومأثرة الشاعر عنترة بن شداد العبسي تكمن جزئياً في كونه يمثل، كفرد واحدٍ، أول حركة مناهضة للعنصرية العرقية في التاريخ البشري ربما! وعنترة بن شداد بالضرورة من أجدادنا، عرقياً وإرثاً ثقافياً وموقفاً تقدمياً ضد العنصرية...

غير أن غياب النقاء العرقي، ورفض أساطين القومية العربية، من ساطع الحصري إلى تلاميذه، اعتبار العرق مكوناً من مكونات القومية، كما أظهرنا في كتاب "أسس الفكر القومي"، لا يعني أبداً أن العرب ككل بلا أصل ولا فصل، وأن القومية العربية كان يمكن أن تنشأ في الصين أو في شبه الجزيرة الاسكندنافية مثلاً، أو في غابات الأمازون، بل يعني أن كتلتهم الأساسية ذات جذور سامية تتمطى إلى الجزيرة العربية عبر مراحل زمنية مختلفة في الماضي، كما أثبت المؤرخون والعلماء... فالأمازيغ جاؤوا من اليمن قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة مثلاً، كما سبق أن أظهرنا في جزء سابق من سلسلة التثقيف القومي، والمصريون القدامى يتألف أجدادهم من غالبية سامية عربية اختلطت بأقلية حامية، أو أفريقية. ومع التأكيد على الترابط العضوي، غير القابل للانفصال، لمكونات وأجزاء الوعاء الجغرافي العربي، ذي الحدود الطبيعية الواضحة، من المغرب للبحرين، نقدم في هذا الجزء عرضاً مختصراً لعروبة بلاد الشام والعراق من خلال مادة د. فؤاد المرعي "الفتح الإسلامي لم يكن غزواً"، وهي مادة يجب أن تُقرأ بالتزامن مع مادة د. إدمون رباط "المسيحيون في الشرق قبل الإسلام" التي نثبتها أدناه في نهاية مادة د. فؤاد المرعي.

أما مادة د. رباط، فهي تظهر: 1) الأصول السامية العربية للأغلبية الساحقة من سكان بلاد الشام والعراق بالأخص، 2) الصراع القومي العنيف بين مسيحيي بلاد الشام والعراق ومصر من جهة، والكنيسة البيزنطية الممثِلة للمستعمِر الرومي والبيزنطي من جهة أخرى، وهو صراع طائفي بين مسيحية عربية ومسيحية رومية كان في الواقع إفرازاً أيديولوجياً للصراع بين مشروعية الاستعمار الروماني ومشروعية مقاومته، أي أنه كان باختصار صراعاً مقنعاً بين قومية عربية مضطهَدة، وقومية رومية مضطهِدة... وقد مهد ذلك الصراع، بشكليه القومي والديني، لمجيء الإسلام بشكل طبيعي إلى بلاد الشام ومصر بلا قتال، لا بل بتأييد الجماهير العربية له وانتقالها إلى صفوفه خلال

24 ساعة بعد حوالي ألفية من الاحتلالين الرومي والفارسي. وكل ذلك يشهد لا على عروبة بلاد الشام والعراق ومصر منذ الأزل فحسب، بل يشهد على عروبة الإسلام نفسه!

أما مادة د. المرعي، فهي تظهر عبر قنوات شتى وسلاسل مترابطة العرى أن المسلمين دخلوا بلاد الشام والعراق ومصر محررين لا مستعمِرين، وأن المسلمين الأوائل كانوا يعرفون أن مسيحيي الشرق، أبناء عمومتهم بالنسَب، كانوا مضطهَدين من الروم، وبالتالي أنهم سيؤيدونهم على أساس قومي عربي، ولو لم يدخلوا في الإسلام، فذلك حساب إستراتيجي واثق، لا عمل مغامر، وهو يقوم على شعور غريزي بوحدة الأرض العربية والثقافة العربية والإنسان العربي في وعائه الجغرافي الطبيعي الذي لا يميز بين جزيرةٍ عربية وهلالٍ خصيب ووادي نيلٍ ومغربٍ عربي. كما أن الدولة الأموية قامت على أساس قومي عربي. وهو تلخيص شديد لا يغني أبداً عن التمتع بقراءة مادة د. فؤاد المرعي أدناه...

دراسات في تاريخ الحضارة العربية – الإسلامية: الفتح العربي الإسلامي لم يكن غزواً / د. فؤاد المرعي

من مجلة "البيان" الكويتية، عدد شهري تموز/ آب 1998، ص: 6 – 19.

إن مقولات بنى عليها باحثون كثيرون تصورهم لأصول التراث العربي الإسلامي ومصادره ومراحل تكونه دفعتني إلى القيام بمحاولة، محدودة بطبيعة الأمر الذي انتويته، للدعوة إلى تصحيح ما بدا لي مغلوطاً فيها، والقيام بقراءة لمعطيات التاريخ، قد لا تكون جديدة، ولكنها مختلفة إلى حد ما عن القراءات السائدة في الدراسات المعاصرة.

وأولى هذه المقولات مقولة ترى أن العرب المسلمين الفاتحين حلوا في بلاد غريبة عنهم بدينها وحضارتها ولغتها. وهذه المقولة استشراقية في أصلها، نجدها، مثلاً، عند غرونيباوم الذي يؤكد في بحثه "أسس الحضارة الإسلامية" أنه "لا شك في أن العرب تميزوا منذ البداية بسمات ذهنية وعاطفية خرجوا بها من شبه الجزيرة العربية. وقد أثرت هذه المقدمات، دون أدنى شك، في قدرتهم على الاحتكاك بالمحيط الجديد" (1).. ونجد لها في قول باحث عربي هو الدكتور حسين مروة، في الجزء الأول من كتابه "النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية" إن الظروف حكمت على العرب الفاتحين أن يعيشوا في البلدان المفتوحة منفصلين عن حياة السكان الأصليّين، ومنفصلين- بالأخص- عن عملية الإنتاج المادي، مستقلين بحياتهم اليومية في تلك المعسكرات التي أنشؤوها لجيوش فتح وللمهاجرين من أهل الجزيرة مع هذه الجيوش، حتى ليصح القول بأن الجاليات العربية في هذا العهد كانت تغلب عليها صفة الجاليات العسكرية" (2).

قد يكون من المفيد أن نؤكد عند البدء أن أصحاب هذه المقولة التي ترى أن العرب الفاتحين حلوا في بلاد غريبة عنهم ينطلقون من الموقف الاستشراقي الذي يرى في العرب المسلمين قبائل بدائية غازية اقتطعت أجزاء من الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية وكانت بمثابة نواة قوة توجب على تلك الأجزاء أن تتوضع حولها مكونة الحضارة الإسلامية. فبسبب من هذه النظرية ذاتها يوازن غرونيبام بين القبائل الجرمانية في غزوها للإمبراطورية الرومانية وبين الفتح الإسلامي، أنه يرى أن القبائل العربية الفاتحة سلكت الطريق نفسها التي سلكتها القبائل الجرمانية حين غزت الإمبراطورية الرومانية قبل بداية الفتح الإسلامي بثلاثمائة عام فهي كسابقتها احتفظت بالجهاز الإداري للإمبراطورية التي ورثتها ولم تفكر بتغييره أو تعديله قبل مرور جيل كامل على الفتح. وهي أيضا كانت كالقبائل الجرمانية أقلية وطدت سلطانها على أساس غير متين من بنية خاصة معقدة غريبة عنها. والعرب، كالجرمانيين، سعوا إلى تمييز أنفسهم من سكان البلاد التي حكموها فمنعوا الزواج منهم واحتكروا الخدمة العسكرية.

ويرى غرونيباوم أن الاختلاف بين العرب وسابقيهم في الغرب (كذا) الجرمانيين، هو في عدم رغبتهم في التخلي عن دينهم وعدم رغبتهم في تغيير لغتهم مهما بدت قاصرة في ضوء المهمات التي وضعها الفتح أمامهم، إلى لغة الشعب الخاضع لهم. لقد شعرت القبائل الجرمانية بضرورة إكساب سلطتها صفة الشرعية عن طريق التحول إلى ورثة لأولئك الذين أزاحتهم عن السلطة، في حين كان مركز جذب العرب المسلمين داخل شعبهم نفسه، إذ عدوا أنفسهم مختارين وعدوا السلطة حقا شرعيا من حقوقهم. (3)

ويتجسد الموقف نفسه في أعمال باحث إسلامي هو أحمد أمين الذي يرى أن الفتح غيَّر طبيعة الأمة الإسلامية فلم تعد "أمة عربية، لغتها واحدة ودينها واحد وخيالها واحد" (4) بل أصبحت "جملة أمم وجملة نزعات وجملة لغات، تتحارب، وكانت الحرب سجالا، فقد ينتصر الفرس، وقد ينتصر العرب، وقد ينتصر الروم" (5)، ثم يعود ليؤكد ما ذكره غرونيباوم بصيغة مختلفة بسبب اختلاف الأرضية الفكرية للباحثين، فيقول: "والحق أن العرب وإن انخذلوا في النظم السياسية والاجتماعية وما إليها من فلسفة وعلوم ونحو ذلك، فقد انتصروا في شيئين عظيمين: اللغة والدين" (6).

والباحث، إذ يدعو إلى مناقشة هذه المقولة وتصحيحها، لا يفكر مطلقا في إنكار هجرة أعداد كبيرة من عرب شبه الجزيرة بصحبة جيوش الفتح واستيطانها في البلدان المفتوحة، ولا في مناقشة حقيقة سيادة اللغة العربية والدين الإسلامي في تلك البلدان، فهذان الأمران من الوقائع التاريخية الساطعة التي لا تحتمل الإنكار أو المناقشة. ولكن ما يحتاج إلى المناقشة فعلا هو النظر إلى العرب الفاتحين باعتبارهم أمة غريبة عن المنطقة التي شملها الفتح الإسلامي في موجته الأولى (سيكون لنا حديث عن موجة الفتح الإسلامي الثانية في الفقرة التالية من هذا البحث)، وهو اعتبار لا يجعل انتصار العرب المسلمين في معارك الفتح وحده مجال تساؤلات تصعب الإجابة عنها إجابة قاطعة غير مثيرة للجدل، بل يجعل أيضا سرعة تبني الإسلام في تلك المنطقة وتعريبها أمرا مستعصيا على التفسير، ولاسيما في ضوء ما نراه اليوم من آثار بعيدة للفتح الإسلامي حيث يرى الناظر إلى خارطة العالم الإسلامي القديم أن هذا الفتح قد نجح في ترسيخ الإسلام في بعض المناطق التي خضعت له، وعربها، ونجح في ترسيخ الإسلام في بعضها الآخر دون تعريبه، بينما أخفق في ترسيخ الإسلام في بعضها الثالث وأخفق في تعريبه أيضا.

إن الباحثين يعللون انتصار العرب المسلمين الفاتحين بأسباب شتى، منها أن دولتي بيزنطة وفارس كانتا ضعيفتين بسبب الحروب الكثيرة التي دارت بينهما. ومنها الظلم الاجتماعي والاقتصادي الذي كان يمارسه الحكام البيزنطيون ضد السكان المحليين في سورية والذي جعل من هؤلاء السكان وسطا معاديا وحرم الجيش البيزنطي من الحماية الداخلية، ومنها الروح المعنوية العالية للجيش المسلم الفاتح تقابلها روح معنوية منهارة لمقاتلين مسخرين فاقدين ثقتهم بالدولة التي يدافعون عنها. ومع أن لهذه الأسباب نصيبها من الصحة في تفسير انتصار الفاتحين، إلا أنها ليست، في رأينا، كافية لتفسيره. أضف إلى ذلك أنها لا تستطيع مطلقا أن تساعدنا في فهم الدور الذي لعبته البلدان التي شملتها موجة الفتح الأولى (سورية والعراق ومصر) في تاريخ الدولة العربية الإسلامية بعد الفتح. ولتوضيح ما نعنيه نذكر ما يلي:

1- لقد أسس العرب الفاتحون مدينة البصرة في العام الثاني من موجة الفتح الأولى، أي في عام 638 م. ولكن المدينتين المعسكرين – البصرة والكوفة - اللتين يفترض المؤرخون بحق أنهما وجدتا لتدعيم سلطة الدولة العربية الإسلامية، تحولتا منذ وفاة الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب من مركز دعم لهذه الدولة إلى مركز معارضة لها وتمرد عليها سواء أكانت في المدينة (الموقف من الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان) أم في مكة (الموقف من عبد الله بن الزبير) أم في دمشق (الموقف من الحكم الأموي بعامة) أم في بغداد في مرحلة لاحقة. وإذا كانت الكوفة قد حافظت فترة أطول من الزمن على التركيب السكاني الذي أسُست به، أي أن أغلبية سكانها بقيت من العرب المهاجرين من شبه الجزيرة أبان الفتح، فإن البصرة لم تبق كذلك. إن المدينتين اللتين نشأتا في وقت واحد تقريبا على شكل معسكرين للقبائل العربية المهاجرة بعد الفتح، اجتذبتا بسرعة أهل العراق

بخبراتهم الحضرية وبما توارثوه من حضارات وثقافات. ولم يمض ربع قرن من الزمان حتى كانت المدينتان - المعسكران مركزين للتطور العمراني والإنتاجي والعلمي. ولكن التاريخ يدل دلالة واضحة على أن البصرة كانت المركز الأكبر لتجمع الفئات الواسعة من الحرفيين والعاملين في الأرض والعبيد والتجار الصغار، فكانت لذلك أحد المنابع الرئيسية المبكرة للتيارات الفكرية والدينية والسياسية في الدولة العربية الإسلامية. إن الذي يعنينا هنا من كل ما ذكرناه عن هاتين المدينتين هو لفت الانتباه والتفاعل الثقافي فيهما بين السكان المحليين والعرب الفاتحين، وهما المدينتان اللتان نشأتا لتكونا مقرا للعرب المهاجرين بعد الفتح ومعسكرا يمد السلطة العربية الإسلامية بالقوة اللازمة لإخضاع سكان البلاد المفتوحة، كما تزعم المقولة الاستشراقية التي نناقشها.

2- لقد كان من الطبيعي أن تحتاج ثمار الاختلاط البشري والتفاعل الحضاري في البصرة والكوفة إلى قرابة ربع قرن من الزمن لتبدأ في الظهور، وهذا الزمن الذي استغرقه تكونها ليس نتيجة عزلة العرب المهاجرين من شبه الجزيرة وعزوفهم عن الاختلاط بالسكان المحليين، بل هو الزمن اللازم ليصبح هذان الموقعان مدينتين. غير أن العرب المهاجرين من شبه الجزيرة مع جيوش الفتح أو بعدها لم يستقروا في الكوفة والبصرة فحسب، بل انتشروا أيضا في سائر البلدان والمواقع التي شملتها الموجة الأولى من الفتح الإسلامي، من دون أن يقيموا فيها مدنا معسكرات كالبصرة والكوفة. ما معنى ذلك؟ معنى ذلك أن الاختلاط البشري والتفاعل الحضاري الذي احتاج نشوؤه في البصرة والكوفة إلى زمن معين، قد حدث بين الفاتحين والسكان المحليين في بلاد الشام فور دخول الفاتحين إليها. إن ما نشير إليه من اختلاط بشري وتفاعل حضاري في بلاد الشام ليس مجرد استنتاج عقلي تنقصه الأدلة التاريخية، فبلاد الشام، بعد عشرين عاماً من الموجة الأولى للفتح الإسلامي، واجهت، بالمسلمين وغير المسلمين من أهلها والمهاجرين إليها، سلطة الدولة الراشدية في شبه الجزيرة والعراق وقهرتها، ثم أصبحت بعد سنوات قليلة المركز القوي للدولة العربية الإسلامية ووسعت رقعة هذه الدولة شرقا حتى حدود الصين، وغربا حتى الأندلس والمحيط الأطلسي. وما كان ذلك ليحدث لو أن العرب المسلمين الفاتحين حلوا في بلاد غريبين عنها غربة القبائل الجرمانية عن سكان الإمبراطورية الرومانية، أو لو كانت "الأمة الإسلامية" بعد الفتح "جملة أمم تتحارب".

إن تكرار المستشرقين لهذه المقولة التي نحن بصددها ليس علميا وهو ليس نزيها دائما، فهو يهدف عند بعضهم إلى:

1- إظهار العرب الفاتحين بمظهر القبائل البدائية الغازية التي دمرت حضارة بيزنطية- ساسانية كانت قائمة في الشرق.

2- حصر إسهام العرب في الحضارة العربية – الإسلامية بعامة بنشر اللغة والدين الإسلامي.

3- إظهار إنجازات الحضارة العربية الإسلامية وكأنها إرث بيزنطي – ساساني شوهه الإسلام، أو مجرد نقل من الخارج وترجمة للمعارف التي تكدست لدى البيزنطيين وغيرهم.

وهذا كله يخدم فكرة "المركزية الأوروبية" التي تزعم أن الحضارة البشرية كلها صدرت عن أوروبا، وأن الشرق، في أفضل عطاءاته، لم يكن سوى جسر انتقلت حضارة أوروبا القديمة عبره إلى أوروبا الحديثة.

أما الباحثون العرب فقد أخذوا بهذه المقولة بدوافع عديدة منها:

1- عقدة النقص التي نعاني منها بسبب تخلف الواقع العربي، والتي تجعل بعضنا يعتقد أن كل ما يصدر عن أوروبا مدروس دراسة علمية وافية.

2- الرغبة في تضخيم عبقرية العرب الفاتحين العسكرية، تلك العبقرية التي مكنتهم من القضاء على أكبر إمبراطوريتين في القصر القديم وفي زمن قياسي.

3- الرغبة في تضخيم دور العرب الفاتحين في تعريب البلدان المفتوحة وترسيخ الدين الإسلامي فيها.

4- الرغبة في إبراز قدرة العقل العربي الإسلامي على استيعاب الحضارات الأخرى وتطويرها.

ومهما تكن أهداف المستشرقين أو رغبات الباحثين العرب فهي لم تكن السبب الوحيد في نشوء هذه المقولة وسيادتها، فثمة سبب آخر، أكثر أهمية في هذا المجال، هو غياب الرواية الشامية (الأموية) للتاريخ الإسلامي بعد الفتح أو تغييبها.

إن معظم المصادر التاريخية الإسلامية القديمة، إن لم نقل كلها، مصادر عباسية أو شيعية متأخرة. ونحن لا نملك مصادر أو أخبارا عن تاريخ الفتح الإسلامي والدولة الإسلامية في الشام غير تلك التي أشرنا إليها. ومهما قيل عن موضوعية المؤرخين العرب المسلمين ودقة تقصيهم للأخبار ونزاهتهم، فإن ذلك لا يمكن أن ينفي تأثرهم بالعداء للأمويين الذي كان سائداً في الأوساط الشيعية والعباسية، من ناحية، وبالصراع العربي – الفارسي (الذي نسميه شعوبية مع أنه كان بين العرب والفرس حصرا، ولم تشترك فيه أية شعوب أخرى داخلة في الدولة العربية - الإسلامية) من ناحية ثانية.

ولقد كان من نتائج ذلك التأثير تفسير مغلوط لحقائق تاريخية هامة أدى إلى استنتاجات متناقضة منطقيا، عن طبيعة الدولة العربية – الإسلامية في الشام ودورها الحضاري والفكري. ذلك ما نراه، مثلا في كتاب الدكتور حسين مروة "النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية"، فهو يؤكد أن معاوية بن أبي سفيان وثق في زمن إمارته الطويلة على الشام "علاقات حسنة مع الفئات النافذة والغنية في سورية، وذلك بمراعاته التامة لمصالحها الطبقية، إذ أبقى المحاكم والشرطة في أيدي كبار الملاكين العقاريين المحليين وأغنياء المدن وكبار التجار من السكان الأصليين، وأبقى الحواجز الجمركية على حدود سورية بالرغم من كون هذه البلاد صارت جزءا من الإمبراطورية العربية، وفرض مع ذلك ضرائب جمركية عالية على البضائع المنافسة للمنتجات السورية المتطورة، ثم إنّه – أي معاوية – أعفى من الضرائب كافة رجال الدين على اختلاف أديانهم"(7). ويعتقد د.مروة أن هذه السياسة ضمنت لمعاوية تأييد الفئات السائدة في الشام وعطف رجال الدين جميعا على حكمه، ولكنه يتكلم في مكان آخر من بحثه (8) على انحراف الدولة الأموية عن الوجهة الإسلامية في المساواة بين الأجناس البشرية وعلى اتصاف هذه الدولة بالعصبية العربية، ويفسر الدور السياسي الهام الذي قام به عرب بلاد الشام في توطيد الدولة الأموية على أنه نتيجة لحذق معاوية السياسي الذي أراد أن يجعل من تحالفه مع هؤلاء العرب (الكلبيين) دعامة أساسية لطموحه الشخصي وطموح الأرستقراطية الأموية. وهو عندما يجد أن الكلبيين كانوا دائما السند القوي للدولة الأموية حتى بعد وفاة معاوية الأول وابنه يزيد وحفيده معاوية الثاني وإعلان عبد الله بن الزبير لخلافته التي كادت تعصف بهذه الدولة لولا استبسالهم في الدفاع عنها، يفسر ذلك تفسيرا أكثر عقلانية بقوله أن الكلبيين استبسلوا "في الدفاع عن دولة بني أمية دفاعا عن مصالحهم" (9).

غير أنه لا يقول شيئا عن هذه المصالح بل يتحول تحت تأثير المصادر التاريخية العربية الكبرى كمؤلفات الطبري والبلاذري واليعقوبي إلى الحديث عن "الملكيات العقارية التي دخلت في حوزة العائلات الأموية وأنصارها"(10)، وهي ملكيات يرى الدكتور مروة أنه "كان من المفترض – حسب نظام الأراضي في الإسلام – أن تكون ملكا عاما للدولة الإسلامية، ولكنها تحولت، تحت سلطة معاوية وأقربائه وبطانته، إلى ملكية خاصة استخدم معاوية الخبراء السوريين في تنظيم زراعتها وريها، حتى أصبح هو (أي معاوية) وأخص أقربائه وبطانته من أكبر الملاكين العقاريين، وتألفت منهم الأرستقراطية شبه الإقطاعية الجديدة بعد الفتح، في حين كان العرب الآخرون مشغولين بأعمال الفتح في مناطق بعيدة، أو مرابطين في المعسكرات لحماية الدولة من الانتفاضات أو لمحاربة الأحزاب المناوئة للأمويين في العراق وغيرها"(11).

إن نغمة العداء للأمويين ترن واضحة فيما أوردناه حتى الآن من آراء الدكتور مروة بشأن النظام الاجتماعي في الدولة الأموية إذ لا يمكن أن نفسر بغير التأثر بالمصادر التاريخية القديمة المشحونة بالعداء للأمويين كلامه على الدور السياسي الكبير لمعرِّب بلاد الشام بوصفه إحياء للعصبية القبلية جاء نتيجة لدهاء معاوية الشخصي وزواجه من "ميمونة الكلبية". ولا يمكن بغير ذلك تفسير تقسيم الدكتور مروة العرب في الدولة الأموية إلى أمويين مشغولين بجمع الثروات وعرب آخرين مشغولين بأعمال الفتح في مناطق بعيدة أو مرابطين في المعسكرات لحماية الدولة من الانتفاضات أو لمحاربة الأحزاب المناوئة للأمويين في العراق وغيرها.

وتزداد نغمة العداء للأمويين وضوحا عندما يقول الدكتور مروة بما تقول به المصادر التاريخية القديمة كلها تقريبا بشأن "نزعة التعالي على غير العرب التي أخذت بها الدولة الأموية" (12) فهو يرى أن مؤسس الدولة الأموية اتبع سياسة تمييز العرب من غيرهم لتحقيق "مصلحة مؤقتة دعته أن يستفيد من التخاصم القيسي –الكلبي (لاحظ هنا أن التخاصم القيسي – الكلبي لم يكن من صنع معاوية) لتوطيد عرشه حين هو لا يزال مهددا بهزات عنيفة بعد تغيير وجهة الخلافة من مواقعها الراشدية. غير أن الخلفاء الأمويين الذين جلسوا بعده على هذا العرش قد أفرطوا في إبراز العصبية العربية حتى أثاروا نقمة الفئات غير العربية من مواطني دولتهم كما أثاروا فيها نزعة التعصب المضاد، وهذه النزعة نفسها هي التي كانت منشأ تلك الحركة التي ظهرت في أواخر عهد الدولة الأموية واستمرت تتبلور في عهد الدولة العباسية إلى أن أصبحت حركة معادية للشعب العربي ذاته، ولتاريخه وثقافته بحيث دفعها العداء لكل ما هو عربي لأن تخلق تيارا فكريا يحمل راية التشنيع بكل ما في تاريخ العرب من أدب وفكر وقيم وتقاليد، نعني بها حركة "الشعوبية" المعروفة" (13).

لقد أوردنا هذا المقطع المطول من كتاب الدكتور مروة لنظهر الآثار الوبيلة التي تنجم عن غياب الرواية الشامية "الأموية" للتاريخ. نحن لا نريد من قولنا هذا أن ننفي الحقائق التاريخية التي أوردها الدكتور مروة، بل نريد أن نناقش الأحكام التي خرج بها منها فقادته إلى تفسير أحادي الجانب للصراع التاريخي بين الحضارات، يحمِّل من خلاله العرب وحدهم مسؤولية نشأة "الشعوبية" وتطورها.

إن القضية التي تثير اعتراضنا الأساسي هي رؤية كل الحقائق المتعلقة بالتغيرات التي حدثت في بلاد الشام ومنطقة ما بين النهرين في القرن السابع الميلادي وما تلاه من خلال أفعال الفاتحين ورغباتهم، بل من خلال أفعال البيت الأموي الحاكم ورغباته، فهذه الرؤية تهمل تماما الدور الحقيقي

لسكان بلاد الشام ومنطقة ما بين النهرين أنفسهم، وهو دور يحتاج فهمه إلى نظرة، ولو سريعة، في تاريخ المنطقة السابق للفتح الإسلامي.

لقد شهد القرن العشرون، ولاسيما في النصف الثاني منه، حركة نشطة في ميدان الكشوف الأثرية وقراءة لغات الشرق القديم، واكتشف العلماء حقائق جديدة وصاغوا فروضا أقاموها على أسانيد وأدلة غيرت التصورات القديمة عن العرب وأصلهم وتاريخهم، ووضعت تصورات أخرى مستندة إلى قراءة النقوش والوثائق ودراسة الآثار.

وقد عززت دراسة تاريخ شعوب المنطقة ولغاتها ودياناتها وفنونها الرأي القائل إن الجزيرة العربية وسورية وأرض الرافدين كانت الموطن التاريخي للشعوب السامية وأن هذه الشعوب أقامت في تلك البلاد إقامة ثابتة متصلة (14) كما أن الدراسات اللغوية الحديثة أثبتت، بما لا يقبل الشك، انتماء اللغات السامية إلى أصل واحد تدل على ذلك الوحدة العضوية القوية بين هذه اللغات (15) الأمر الذي جعل من العسير على أي باحث أن يتجاهل الصلة الوثيقة بين الشعوب التي كانت تتكلم تلك اللغات، وجعل باحثا متخصصا في الدراسات السامية مثل سباتينو موسكاتي يقول : "يبدو أن الشعوب السامية اللغة تؤلف كتلة واحدة، لا باجتماعها في صعيد جغرافي واحد والتحدث بلهجات لغة واحدة فحسب، ولكن باشتراكها في أصل حضاري تاريخي واحد أيضا. ومن هنا يبدو أنه يجوز لنا ألا نقصر الصفة السامية على الميدان اللغوي، وأن نتحدث أيضا عن "الساميين" وعن الشعوب والحضارة السامية" (16).

يتبين مما تقدم أن علوم التاريخ القديم والآثار واللغة تتجه بوضوح نحو تأكيد وجود الوحدة الأثنية والوحدة الحضارية – التاريخية لشعوب الشرق القديم السامية قبل الفتح الإسلامي بآلاف السنين، بل منذ فجر التاريخ، وتأكيد أن هذه الشعوب التي فرضت العوامل الجغرافية تميز بعضها من بعض تاريخيا وسياسيا، إنما كانت "أجزاء لا يستقل بعضها عن بعض، فكان لكل حركة تنشأ في جزء منها آثار في الأجزاء الأخرى" (17) وقد بات من الجلي الآن أن الساميين الذين وجدوا أصلا في هذه المنطقة الجغرافية من العالم (ونعني هنا شبه الجزيرة العربية والشام والعراق) قد شاركوا في كل الحركات التاريخية التي وقعت فيها، وأن الحضارات التي أنشؤوها كانت شديدة التواصل والتفاعل فيما بينها سواء أكانت سومرية أم آشورية أم بابلية أم آرامية.

نحن لن نعالج الأسئلة المتصلة بالتاريخ القديم السابق للفتح فنعود إلى النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد حين استوطن الآراميون بلاد الشام ومنطقة ما بين النهرين. ولن نستعرض أيضا تواريخ الدول – المدن الآرامية العديدة التي نشأت في سوريا منذ أواخر الألف الأول قبل الميلاد. ولكن لا بد لنا من الإشارة إلى الوضع الذي كانت تعيشه بلاد الشام ومنطقة ما بين النهرين منذ القرون الأولى بعد الميلاد. ففي هذه الفترة كان معظم سكان المنطقة المذكورة من الآراميين الذين كانوا يشكلون وحدة أثنية على الرغم من توزعهم بين كيانين سياسيين هما الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية، وعلى الرغم من وجود أقليات من شعوب أخرى تشاركهم الحياة في المنطقة (ولاسيما في المدن) كاليونانيين والفرس والرومان. وقد كانت الثقافة –وهي مفهوم كان الدين يستوعبه تماما في ذلك العصر – العنصر الذي يوحد سكان بلاد الشام ويميزهم من الشعوب المجاورة الأخرى. فالمسيحية التي انتشرت انتشارا واسعا وعاصفا في القرون الأولى للميلاد شملت سورية القديمة كلها. وكانت اللغة الآرامية هي المستخدمة في الدعوة إلى الدين الجديد (من المحتمل أن تكون بعض الوثائق المسيحية قد كتبت أصلا باللغة الآرامية) وذلك لجعله مفهوما لفئات واسعة

من السكان. وقد أدت كتابة النصوص الدينية باللغة الآرامية إلى ارتفاع مكانتها وتثبيت قواعد الكتابة بها، وساعدت اللغة والكتابة، بدورهما، على وعي السكان لوحدتهم الأثنية، وعلى توطيدها. هكذا تبلورت شخصية الشعب الذي أطلق عليه في الإمبراطورية الرومانية اسم "السريان" (18).

كانت سورية القديمة، إذن، أول بلد توطدت فيه المسيحية في الإمبراطورية الرومانية، ولعل هذه الحقيقة كانت عاملا من العوامل التي جعلت لها ذلك الدور الكبير في تاريخ المسيحية المبكر. فمن المعروف أن انتشار المسيحية ترافق منذ بدايته والتطور المستمر للفكر العقائدي المسيحي. وقد تمثل هذا التطور في مرحلته المبكرة باختلاط التبشير الديني بالنظريات الفلسفية رابطا بذلك المسيحية بالإرث الحضاري الهيليني. ومن المعروف أيضا أن سورية القديمة كانت موطن مناقشات دينية حادة، وأن رجال الدين المسيحي السوريين دافعوا باستمرار في تلك المرحلة عن الفكرة القائلة بوجود طبيعة بشرية حقيقية في السيد المسيح وعن الفكرة القائلة بحرية إرادة الإنسان الحاصل على حق السيطرة على الطبيعة. كذلك من المعروف أن النقاشات الدينية التي امتدت ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين بلورت اختلافا عميقا بين الفكر المسيحي الرسمي في مركزيه الرئيسيين القسطنطينية وروما والفكر المسيحي في الشرق في مركزيه الرئيسيين الإسكندرية وأنطاكية. غير أن فهم هذا الاختلاف من خلال الإطار الديني وحده، أمر يدل على قصر نظر القائلين به، فالخلافات الدينية في العصور الوسطى كانت الشكل المعبر في معظم الحالات عن الخلافات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعرقية أيضا. ذلك ما أدركه الأب ألكسندر شميمان الذي جاء في كتابه "الطريق التاريخي للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية" أنه "لا يجوز مطلقا أن نضخم الوحدة الحضارية والنفسية للإمبراطورية (يعني بقوله الإمبراطورية البيزنطية). لقد حفظت لنا الوثائق الرسمية "وعي هذه الإمبراطورية لذاتها". ولكن إذا تركنا تلك الوثائق جانبا نحصل على صورة مغايرة تماما يجدر بنا أن نقول صراحة إنها صورة حزينة. فتحت الغطاء الرقيق من الهيلينية وثقافتها التي ترسخت في المدن وفي أوساط "المثقفين"، استمرت المشاعر القومية القديمة في الغليان واستمرت التقاليد القديمة في الحياة لقد كان يوحنا فم الذهب يضطر في ضواحي أنطاكية إلى إلقاء مواعظه باللغة السريانية فلم تكن اليونانية مفهومة هناك. أما الدراسات المعاصرة فتبين بوضوح متزايد أن جمهور السوريين وكذلك الأقباط كان ينظر إلى سلطة الإمبراطورية بوصفها نيرا كريها. أضف إلى ذلك بدايات الكتابة المسيحية السريانية كانت قد بدأت تظهر في شرق الإمبراطورية وهي بدايات مرتبطة طبعا بالكتابات اليونانية ولكنها تشير إلى إمكانية التطور المستقل". (19)

إن المقطع الذي اقتطفناه من كتاب شميمان جزء من وصفه لحالة الإمبراطورية البيزنطية في القرنين الرابع والخامس الميلاديين، ومن الواضح أن الرجل يشير إلى عوامل قومية واجتماعية وفكرية كانت قد قطعت شوطا بعيدا في التهيئة لانفصال مصر وبلاد الشام ومنطقة ما بين النهرين عن الإمبراطورية المذكورة، وذلك قبل الفتح الإسلامي بثلاثة قرون تقريبا. ولذا فهو يرى في الفتح الإسلامي لهذه البلاد استكمالا لهذه العملية التي بدأت منذ زمن بعيد فالإسلام من وجهة نظره "... رسم مرة والى الأبد، حدود الحضارة البيزنطية في الشرق: كل ما ليس يونانيا أو ما لم يكتسب الصبغة اليونانية إلى درجة كافية، خرج عمليا، منذ ذلك الحين، من الفلك البيزنطي وأصبح نقيضا له، نقيضا غريبا ومعاديا" (20).

ومع أن الرجل يقوم بعد ذلك بمحاولات عديدة لإظهار انفصال الشرق عن الإمبراطورية البيزنطية وكأنه "تفضيل لمآزق اليعقوبية والنسطورية التاريخية والدينية على العبودية للإمبراطورية

البيزنطية"(21)، فإن حقيقة كبرى تظل بارزة للعيان وهي أن الإمبراطورية البيزنطية لم تكن نسيجا حضاريا واحدا، وأنَّ الحكم البيزنطي والكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية لم ينجحا في إضفاء صبغتهما على بلاد الشام وما بين النهرين ومصر طيلة الفترة الواقعة ما بين انتشار المسيحية والفتح الإسلامي. لقد بقي الحكم البيزنطي والكنيسة البيزنطية غريبين عن هذه المنطقة عرقيا وحضاريا ولغويا ودينيا أيضا. غير أن الآراميين لم يكونوا الشعب الوحيد في بلاد الشام ومنطقة ما بين النهرين في تلك الفترة التاريخية. فمنذ القرون الأولى للميلاد راحت مجموعات من القبائل العربية تخرج خارج حدود شبه الجزيرة العربية مشكلة في جنوب سورية دولة الغساسنة، وفي الجنوب الغربي لمنطقة ما بين النهرين مملكة المناذرة. ولم تكن هاتان الدولتان بالإضافة إلى تلك القبائل التي استوطنت سورية القديمة وتنصرت (وهي قبائل كبيرة وقوية النفوذ ككندة وتنوخ وتغلب) حاجزا يحمي الدولتين البيزنطية والفارسية من غزوات البدو المقيمين في شبه الجزيرة فحسب، بل كانتا أيضا، في الوقت نفسه، جسرا يصل بين عرب شبه الجزيرة وبلاد الشام وما بين النهرين، جسرا عبرت إلى شبه الجزيرة عن طريقه اللغة الآرامية ومفاهيم دينية وتقاليد حضارية لا يمكن إهمالها عند التحدث عن تاريخ الحضارة العربية قبل الإسلام. وقد شكلت هذه المفاهيم والتقاليد عنصر قرابة هاما بين عرب شبه الجزيرة وسكان المنطقة المذكورة بالإضافة إلى عنصري القرابة العرقية والقرابة اللغوية. ولعلنا نشير إلى مظهر جديد من مظاهر تأثر حياة عرب شبه الجزيرة بحضارة بلاد الشام وما بين النهرين، كالدين والعلاقات التجارية والنقدية وتقاليد الحكم، بقولنا أن كثيرا من الشعراء الجاهليين زار سورية وشواطئ الفرات أو ذكرهما في شعره في مناسبات مختلفة، وأنَّ الحكايات الشعبية التي تتحدث عن العرب في الجاهلية كثيرا ما جعلت أبطالها يزورون إيوان كسرى وبلاط ملك الروم. لم يكن، إذن، وجود العرب في بلاد الشام وما بين النهرين وليد الفتح الإسلامي عندما انتقل المزيد من القبائل العربية إلى هذه المنطقة. ونحن، وإن كنا نوافق على قول فيلشتينسكي وشيدفار أنَّ "التأثير الحضاري للعرب البداة في سكان المناطق المجاورة لشبه الجزيرة كان ضئيلا جدا" (22)، ولا نرى أن قلة تأثير العرب البداة حضاريا في الشعوب المجاورة يحدد عمق التفاعل الحضاري بينهم وبين تلك الشعوب. فلهذا التفاعل وجهه الآخر المتمثل في تأثير عرب شبه الجزيرة بحضارة الشعوب المجاورة.

إن حقيقة استيطان قبائل من العرب البداة في بلاد الشام ومنطقة ما بين النهرين، وهي عملية استمرت على امتداد القرون الميلادية السابقة للفتح الإسلامي، واقترنت بتصاعد في العلاقات الاقتصادية والسياسية والدينية (الثقافية) بين عرب الجزيرة وشعوب تلك المنطقة، تشير بوضوح إلى أن التفاعل الحضاري بين العرب قبل الإسلام وسكان بلاد الشام وما بين النهرين كان أعمق بكثير مما تصوره الدراسات التاريخية حتى الآن.

لقد كان لوجود العرب في بلاد الشام وما بين النهرين وتفاعلهم الحضاري مع سكان المنطقة (السريان) دورهما الكبير أبان الفتح الإسلامي وفي مرحلة الأسلمة والتعريب التي تلته. ومن دون الإقرار بذلك لا يمكن تقديم تفسيرات معقولة لمجرى عمليات الفتح والأسلمة والتعريب. إن الحديث في أسباب الفتح العربي الإسلامي ليس جديدا. ويكاد الباحثون في هذه الأسباب ينقسمون إلى ثلاث مجموعات يحدد كلٌ منها السبب الذي ترجحه فتضعه في مقدمة الأسباب الحاسمة في حركة الفتح.

أما المجموعة الأولى فتؤكد أن الحماسة الدينية (ما يسميه بعض المستشرقين تعصبا بالتعصب الديني) هي التي دفعت عرب الجزيرة إلى شن حروب الفتح إلى البلدان غير الإسلامية بقصد دعوة

شعوبها إلى الإسلام.

وأما المجموعة الثانية فترى أن مشكلة الطعام هي الدافع إلى حروب الفتح. ويخمن أصحاب هذا الرأي أن يكون الجفاف قد سيطر على الجزيرة العربية فحرم أهلها وفرة الغذاء وحرم ماشيتها وفرة العلف فخرجوا منها باحثين عن لقمة العيش في البلدان الخصيبة.

أما المجموعة الثالثة فتأخذ بالرأي القائل أن مشكلة الطعام والجفاف هي عامل واقعي من عوامل الفتح، لكنها تقول بوجود عامل تاريخي جعل عوامل الفتح أكثر حسما وتأثيرا، هو "عامل التطور التجاري داخل الجزيرة ونشوء فئة من كبار التجار العرب كانت تنمو نموا متسارعا بين القرنين السادس والسابع الميلاديين، وهي تحمل في عوامل تكونها الاجتماعي تباشير ولادة مجتمع العلاقات الاجتماعية التجارية" (23).

من الواضح أننا سنكون عاجزين، سواء أخذنا بأي من هذه الآراء، أو بها مجتمعه، عن إيجاد ما يسوغ توجه العرب المسلمين في آن واحد لمحاربة الجيوش النظامية الضخمة لأكبر دولتين متحضرتين في القرن السابع الميلادي، ونعني بذلك الإمبراطوريتين الفارسة والبيزنطية المتفوقتين من حيث مستوى تطورهما الحضاري على "الفاتحين الخارجين من جزيرتهم للمرة الأولى" (كذا...)، فأبسط قواعد الإستراتيجية العسكرية كانت تحتم على الفاتحين المسلمين، الأقل عددا وعدة وتدريبا على خوض المعارك الحربية الكبرى، أن يوحدوا قبضتهم العسكرية ويوجهوها إلى هدف واحد بدلا من توزيعها على جبهتين تتفوق القوات المعادية في كل منهما عليهم. إن توجه العرب المسلمين لمحاربة الدولتين الكبيرتين في آن واحد يبدو وكأنه موقف ينافي أبسط قواعد المنطق العسكري، بل العادي البسيط، موقف لا تتضح صحته من خلال الحديث عن حماسة المسلمين لنشر الدين أو عن حاجة العرب الفاتحين إلى الطعام والمراعي الخصيبة أو مطامحهم التجارية الواسعة، ولكن، إذا وضعنا في الاعتبار الوحدة العرقية واللغوية والدينية والحضارية بعامّة، التي كانت تربط سكان بلاد الشام وما بين النهرين، على الرغم من توزعهم تحت السيطرة الفارسية والبيزنطية، ودور تميز هؤلاء السكان العرقي واللغوي والديني في إنضاج شروط انسلاخهم عن الحضارتين الفارسية والبيزنطية وإمكانية تطورهم المستقل، نعني بذلك تلك الإمكانية التي أشار شميمان إلى بدء بروزها في القرن الرابع الميلادي، هذا من جهة، ووضعنا في الاعتبار، من جهة أخرى، وجود القبائل والممالك العربية في بلاد الشام وما بين النهرين منذ القرون الأولى للميلاد، وعناصر القرابة العرقية واللغوية بين العرب وشعب المنطقة، وكذلك عناصر القرابة الدينية والحضارية التي خلقها التفاعل الذي أحدثه هذا الوجود، إذا أخذنا ذلك كله بعين الاعتبار، يتضح لنا المنطق الكامن وراء توجه العرب المسلمين لفتح منطقة بلاد الشام وما بين النهرين في آن واحد، وتخليصها من سلطان الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، ويصبح لحدوث معركة القادسية (المعركة الفاصلة ضد الإمبراطورية الفارسية) في موقع وجود المناذرة، ومعركة اليرموك (المعركة الفاصلة ضد البيزنطيين) في موقع ووجود الغساسنة، معنى أكبر من مجرد المصادفة التاريخية أو الجغرافية. كما أن مبدأ عمر بن الخطاب القائل "أن العرب هم جيش الإسلام" الذي سمح بمقتضاه للعرب من سكان البلدان المفتوحة أن ينتظموا في سلك الجيوش العربية المسلمة الفاتحة سواء أدخلوا في الإسلام أم بقوا على نصرانيتهم، وانضمام رجال القبائل العربية التي كانت تعيش في العراق وسورية منذ زمن بعيد قبل الفتح العربي، إلى جيوش الفتح، يكتسبان معنى أعمق من مجرد العصبية القبلية أو الرغبة في المساواة التامة بين أولئك العرب وبين الفاتحين المنتصرين. فمن الواضح، من خلال الصورة

التي رسمناها للمنطقة التي شملتها الموجة الأولى للفتح الإسلامي، أن العرب كانوا، كباقي سكان سورية وما بين النهرين، معارضين للسلطتين البيزنطية والفارسية وغريبين عنهما وكارهين لهما. إن شعار "العرب هم جيش الإسلام" كان يعني إشراك فئة من سكان البلاد في محاربة سلطتي الإمبراطوريتين أكثر مما كان يعني منح الامتيازات للعنصر العربي في الدولة الإسلامية.

وليس من الصعب على متتبع تاريخ المنطقة في هذه المرحلة أن يكتشف وجود امتيازات (إذا صحت تسمية هذه الإجراءات بالامتيازات) كثيرة منحت لغير العرب (السريان) من سكانها، إذ جعل الحكم الإسلامي أجهزة المحاكم والشرطة في أيدي أولئك السكان، وفرض الضرائب العالية على البضائع المنافسة للمنتجات السورية على اختلاف أديانهم من الضرائب كافة. وإذا جاز لنا أن نفسر الإبقاء على أجهزة الإدارة في أيدي السوريين بعجز الفاتحين وعدم درايتهم بمثل هذه الأمور، فإنَّ هذا "الجهل" لا يمكن أن يكون أيضا سبب التسامح الديني الذي أظهره الفاتحون، أو سبب تخفيف الضرائب عن الأقباط والسريان في مصر وسورية وجعل دخولهم الإسلام أمراً اختياريا دون ضغط. أضف إلى ذلك أن جهل الفاتحين لا يفسر مطلقا التطور الصناعي والزراعي السريع الذي شهدته بلاد الشام منذ سنوات الفتح الأولى. نحن لا نود من خلال قولنا السابق أن نزعم أن إرادة الفاتحين الذاتية ووعيهم الذاتي هما سبب التغيرات النوعية التي طرأت على المنطقة. فمع كل احترامنا لدور الإرادة والوعي في صنع التاريخ نؤكد أن التغيرات النوعية في الحياة الاجتماعية لا تحدث إلا إذا كانت تحقيقا لضرورة تاريخية. والشروط الموضوعية للضرورة التاريخية التي نتحدث عنها كانت قد بدأت تكاملها في بلاد الشام وما بين النهرين ومصر قبل الفتح الإسلامي بزمن طويل. وكان لاكتمالها دور حاسم في نجاح الفتح الإسلامي السريع في تحطيم أجهزة السلطة البيزنطية والفارسية التي غدت عائقا في وجه التطور الاقتصادي والاجتماعي للمنطقة، وكان الفاتحون المسلمون القوة التي أحدثت التغييرات الضرورية في البنية الاجتماعية لتتلاءم وضرورات التطور اللاحق. فبعد مرور أقلّ من ربع قرن على انتهاء عمليات الفتح برزت تركيبة اجتماعية جديدة مركزها السياسي والإداري في دمشق هي الدولة الأموية التي لم تكن استمرارا للدولة الراشدية في المدينة، كما أنَّها لم تكن أيضا استمراراً للدولة البيزنطية في سورية أو الفارسية في منطقة ما بين النهرين. تشهد على ما نقول الأحداث التاريخية (جهود الأمويين لإخضاع شبه الجزيرة والعراق وفتح إيران وآسيا الوسطى وحربهم المتواصلة ضد البيزنطيين) وموقف القبائل العربية (القيسية) والفرق الإسلامية المختلفة (السنة والشيعة والخوارج) من هذه الدولة. لقد كانت الدولة الأموية انعطافا تاريخيا نوعيا في حياة سكان المنطقة بأسرها، حقق نشوء وحدة سياسية جديدة وسلطة مركزية قوية، وأنشأ علاقات اقتصادية واجتماعية كانت ضرورية من أجل التطور اللاحق. لم تكن الدولة الأموية، إذن، من صنع العرب الفاتحين القادمين من شبه الجزيرة إلى بلاد الشام فحسب، بل هي دولة قامت أساسا بجهود سكان بلاد الشام على اختلاف أصولهم ودياناتهم. أما الوجه العربي لهذه الدولة فلا يعود إلى اعتماد الحكام الأمويين العصبية القبلية الجاهلية أو إلى عزلة العرب الفاتحين وتعاليهم على سكان البلاد، بل يعود إلى عظم الدور الذي كان لعرب بلاد الشام في إقامتها وحمايتها وإلى عمق التفاعل الحضاري بين هؤلاء العرب وبين سكان البلاد الأصليين (السريان) وإلى القرابة العرقية واللغوية والدينية (الثقافية) التي تربط بينهم. إن معظم الدراسات الاستشراقية التي تناولت هذه المرحلة تتجاهل عناصر القرابة بين العرب الفاتحين وبين سكان سورية وما بين النهرين، كما تتجاهل عناصر الغربة والصراع بين هؤلاء السكان وحكامهم البيزنطيين والفرس، ولكننا نجد أحيانا عبارات تشير إلى تلك القرابة إشارات غير مباشرة،

فغرونيباوم يرى أن الحوار بين رجال الدين المسلمين والمسيحيين "لم يبدأ إلا بعد الفتح بخمسين أو ستين سنة"، وهو يشرح ذلك في الحاشية بقوله : "إنّ المسيحيين ظللوا وقتا طويلا بعد الفتح لا يدركون أن سادتهم الجدد يعتنقون دينا مختلفا عن دينهم" (24). أما شيدفار وفيلشتينسكي فيذكران في جملة معترضة بين قوسين أن "المسيحيين عدوا الإسلام في بداية عهده بدعة مسيحية جديدة" (25).

ثمة في هذا الطرح ما يوحي بأن سكان بلاد الشام والعراق لم يعدوا الفاتحين المسلمين غرباء عنهم. ولكننا نجد فيه، في الوقت نفسه، ما يوحي بأن شعور هؤلاء السكان بالقرابة بينهم وبين الفاتحين المسلمين كان نتيجة عدم إدراكهم للفوارق بين المسيحية والإسلام. والسبب في مثل هذا التفسير الخاطئ لمصدر ذلك الشعور يعود إلى إهمال الباحثين لخصائص الفكر المسيحي في سورية القديمة.

فالمسيحيون الذين يدور الحديث بشأنهم هم المسيحيون السوريون الذين كانوا على خلاف عقائدي عميق وقديم وحاد مع الكنيسة البيزنطية الرسمية وكانوا على قطيعة تامة تقريبا مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية (يجدر بنا هنا أن نشير إلى أن علاقة الكنيستين البيزنطية والرومانية بالمسيحيين في مصر كانت كعلاقتهما بالمسيحيين السوريين). ولا شك أن الإسلام قدم للمسيحيين السوريين (النساطرة واليعاقبة)، ولاسيما للعامة منهم غير المتعمقة في الفكر اللاهوتي المسيحي حلولا مرضية بشأن وحدانية الرب والطبيعة البشرية للسيد المسيح، وأنَّ تسامح الفاتحين المسلمين الديني وديمقراطية التعاليم الإسلامية الخالية من التمييز العرقي أو الطبقي شكلا في نظر هؤلاء نقيضا إيجابيا للاضطهاد الديني والتمييز العرقي اللذين مارستهما السلطة البيزنطية والكنيسة البيزنطية. فإذا أضفنا إلى ذلك كله القرابة العرقية بين الفاتحين العرب المسلمين وسكان البلاد الأصليين (السريان)، والقرابة بين لغة الدين الجديد (العربية) ولغتهم (اللغة الآرامية)، ندرك بأن شعور القرابة لم يكن نتيجة التباس زال فيما بعد، بل كان شعوراً صادقاً أملته هذه الخصائص التي شكلت بمجموعها عاملاً أساسياً من عوامل سرعة انتشار الإسلام في هذه المنطقة وتعريبها.

من كل ما تقدم يتضح لنا الفارق الكبير بين غزو القبائل الجرمانية للإمبراطورية الرومانية في أوروبا وبين الفتح الإسلامي، ذلك الفارق الذي لا يتجلى في عدم رغبة العرب الفاتحين في تغيير لغتهم ودينهم فحسب، بل يتجلى أيضاً في رغبة سكان البلدان المفتوحة للإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، وفي استعدادهم لتقبل اللغة العربية والدين الإسلامي، وما ذلك إلا لأن وجه الحضارة في سوريا ومنطقة ما بين النهرين ومصر لم يكن بيزنطياً أو فارسياً بل كان وجهاً أقرب إلى عرب شبه الجزيرة منه إلى بيزنطة وفارس.

هوامش

1- غرونيباوم، غ. أي: "السمات الأساسية للحضارة العربية الإسلامية"، مجموعة مقالات مترجمة إلى اللغة الروسية، موسكو-1981،ص.ص 32-33.

2- مروة،حسين "النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية"، الجزء الأول، بيروت-1978، ص: 34.

3- انظر غرونيباوم، غ. أي-"السمات الأساسية للحضارة العربية الإسلامية"،ص: 34.

4 و5 و6- أمين، أحمد-"فجر الإسلام"،الطبعة التاسعة-القاهرة،ص:95.

7- مروة،حسين "النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية"، الجزء الأول،ص: 439.

8- المصدر السابق نفسه، ص.ص70-74.

9- المصدر السابق نفسه، ص: 471.

10- المصدر السابق نفسه، ص: 475.

11- المصدر السابق نفسه، ص: 473.

12- المصدر السابق نفسه، ص: 473.

13- المصدر السابق نفسه، ص: 473.

14-انظر موسكاتي، سبتينو-"الحضارات السامية القديمة"، تر : السيد يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت – ص: 43.

15- انظر حسين طه –"في الشعر الجاهلي"، تقديم د. عبد المنعم تليمة،ط 3، دار النهر – 1996، الصفحات: 28-33.

16- موسكاتي، سبتينو -"الحضارات السامية القديمة"، ص: 49.

17- انظر المصدر السابق نفسه، ص: 35.

18- انظر كتاب بيغوليفسكايا، ن. ف-"حضارة السوريين في العصور الوسطى"، الطبعة باللغة الروسية، موسكو- 1979، ص: 8.

19- شميمان،ألكسندر –"الطريق التاريخي للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية"،الطبعة باللغة الروسية، نيويورك – 1954، ص: 182-183.

20- المصدر نفسه، ص: 215.

21- المصدر نفسه، ص: 217.

22- فيلشتينسكي، أي.م. وشيدفار، ب.يا-"مقالات في الحضارة العربية الإسلامية"،الطبعة باللغة الروسية، دار "ناووكا"، موسكو-1971، ص: 6.

23- مروة،حسين "النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية"، الجزء الأول، ص: 412.

24- غرونيباوم، غ. أي-"السمات الأساسية للحضارة العربية الإسلامية"، ص: 45.

25- فيلشتينسكي، أي.م. وشيدفار، ب.يا-"مقالات في الحضارة العربية الإسلامية"، ص: 129.

المسيحيون في الشرق قبل الإسلام(*) / الدكتور إدمون ربّاط

يتّصف المسيحيون الشرقيون بظاهرة خاصّة بهم، لا يبدو أنّ لها مثيلاً في سائر البلاد التي تعمّها المسيحية، وهي في توزيعهم إلى طوائف مختلفة، قائمة بذاتها، تستند كل منها إلى تاريخ سحيق، فتتمتّع بهيكلية كهنوتية، وتشريعات كنسية، ومحاكم مذهبية أو روحية، خاصّة بها. وهي منقسمة في الوقت الحاضر إلى فئتين؛ فئة الطوائف الشرقية، المستقلّة عن كل سلطة دينية خارجة عنها، وفئة الطوائف الموصوفة بالغربية، أي الكاثوليكية، من جرّاء خضوعها إلى الكنيسة الرومانية وانتمائها إلى عقيدتها وتعاليمها – مع ملاحظة أنّ هذه الطوائف الكاثوليكية كانت وليدة انشقاق قد أصاب طائفتها الأصلية، وهي الطائفة الشرقية الأم، باستثناء الطائفة المارونية، التي استطاعت المحافظة على وحدتها الكنسية والاجتماعية، في إطار الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، بفضل انحسارها في إقليم جغرافي واحد في شمال جبال لبنان.

ومن المعلوم أنّ هذه الطوائف هي من رواسب الماضي البعيد، العائد إلى ما قبل الإسلام، وأنّها نشأت وتكوّنت قبل الإسلام والفتح العربي، عندما كانت المسيحية تعمّ العالم القديم بأسره، أي أوروبا الوسطى والغربية، والإمبراطورية البيزنطية، ما عدا المملكة الفارسية، التي كانت المسيحية قد تغلغلت فيها من جوانبها الغربية، في العراق والقسم الشرقي الأكبر من بلاد بين النهرين، أي الجزيرة في لغة العرب.

فالمسيحية قد احتلّت، بعد سنوات قليلة من صدور مرسوم الإمبراطور قسطنطين الكبير، عام 313، مرتبة دين الدولة الرسمي في الإمبراطورية الرومانية، وعندما تحوّلت هذه الإمبراطورية، تدريجياً إلى إمبراطورية إغريقية بلغتها وثقافتها، فغدت معروفة – فعلاً لا رسمياً، إذ إنّها احتفظت بتسميتها الرومانية الرسمية، وهي التسمية التي تحرّفت إلى تسمية "الروم" في اللغات الشرقية – باتت معروفة بالإمبراطورية البيزنطية.

وإليها كانت تمتّ بلاد الشام، أي سوريا وفلسطين ومصر، وإفريقيا الشمالية وأسبانيا الفزيغوتية، القائمة على سواحل البحر المتوسط، ومن بداهة القول إنّ شعوب هذه الأقطار كانت جميعها تدين بالمسيحية الرسمية، على مذهب الدولة، وكانت منتظمة في أربع بطريركيات كبرى، هي بطريركية إنطاكية – وهي الأقدم عهداً- وبطريركية القسطنطينية، وبطريركية الإسكندرية، وبطريركية أورشليم القدس.

أمّا الجزيرة العربية فقد كانت راسخة في الوثنية، على الرغم من انسلال بعض الأفكار والتقاليد المسيحية إلى الحجاز، وبخاصّة إلى مكّة، هذه التيّارات الروحية، التي وصفها العرب منذئذ بالنصرانية، إلماحاً إلى مدينة الناصرة التي ينتمي إليها يسوع الناصري، وهي التسمية الواردة وحدها، كما هو معروف، بالقرآن الكريم.

على أنّه إذا كانت النصرانية قد تعرقل سيرها في المناطق الحضرية، فإنّ تعاليمها وطقوسها قد تمكّنت من الانتشار في عدد من القبائل العربية، وذلك عبر بادية الشام والعراق، فكانت آثارها خصبة، لأنّها كانت بمثابة الخميرة التي أعدّت العرب في الجزيرة إلى تقبّل الإسلام.

ففي هذا البحر الزاخر من المسيحية ظهرت الطوائف المسيحية، التي ما زالت حيّة، ولو بأحجام أقل رقعة، إلى يومنا هذا.

وأمام هذا الواقع الديني الشامل، ينتصب السؤال عن الأسباب التي حوّلت المسيحيين في سوريا وفلسطين والعراق ومصر إلى طوائف مختلفة بينما بقيت سائر شعوب الإمبراطورية البيزنطية، في القسطنطينية والأناضول وإفريقيا الشمالية وأوروبا، متمسّكة بوحدتها – هذه الوحدة التي ستنفصم هي أيضاً، في القرن الحادي عشر بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، وللمرّة الثانية، في القرن السادس عشر، بين الكثلكة والبروتستنتية.

أوّل ما يتبادر إلى الذاكرة للجواب عن هذا السؤال هو القول بأن الأسباب – وليست العوامل، بمفهومها السوسيولوجي – إنّما كمنت في المجادلات الصاخبة التي عمّت العاصمة وبلاد الشام ووادي النيل في القرنين الرابع والخامس، حول شخصية السيد المسيح وطبيعته، وهو جواب يبدو، في أوّل وهلة، وافياً بالمرام، ولكنّه سرعان ما تظهر فيه بعض علامات الاستفهام، إذا ما حاولنا التعمّق في العوامل العرقية والقومية أيضاً، التي لعبت دوراً فعَّالا في نشوب هذه الانقسامات التي أدّت في النهاية، إلى بروز الكيانات الطائفية.

وسنحاول قدر المستطاع إلقاء بعض الأضواء المستقاة من التاريخ على هذه الجوانب الخاصة بالمسيحيين الذين باتوا، في اللغات الغربية موصوفين "بمسيحيي الشرق" وذلك بالطبع بشكل مقتضب جداً، باعتبار أنّ الغاية من البحث الحاضر ترمي إلى تلمّس الجذور الإثنية التي تجعل من هؤلاء المسيحيين عرباً، يتكلّمون العربية ويساهمون بالشعور العربي، أسوة بمواطنيهم المسلمين في الأقطار العربية التي ما زالت تقوم فيها جماعات مسيحية.

---

*- (بحث قدّمه الدكتور إدمون ربّاط خلال المحاضرات التي نظّمها النادي الثقافي العربي في بيروت عن المسيحيين العرب– آذار/مارس 1981، ونشرته مجلة "الحوار" في عددها الثالث الصادر في حزيران/يونيو 1989).

أولاً: الانقسامات اللاهوتية:

منذ زمن بعيد تميّزت شعوب الشرق، ومنها أيضاً الروم في القسطنطينية بشغفها الزائد للمساجلات اللاهوتية، وقد كانت الفرصة سانحة ابتداءً من القرن الرابع، عندما بدأ آباء الكنيسة والفلاسفة بالتمعّن في شخصية السيد المسيح، وذلك بعد أن رفعته رسائل القديس بولس إلى مرتبة ابن الله، الذي أوفده الأب بفعل الروح القدس، بشكل إنسان، مخلصاً للبشر من الخطيئة.

وهذه الخصلة قصّها غريغوريوس النيسي، أي من مدينة نيسا في آسيا الصغرى، وقد رفعته الكنيسة بعد وفاته إلى مرتبة آباء الكنيسة، بشكل من الطرافة، لا تخلو من الانزعاج ممّا شاهده في العاصمة ذاتها من هذا القبيل، بقوله ما نصّه:

"إذا سألت أحدهم كم هو ثمن هذه السلعة فيجيبك بالمناقشة حول المولود وغير المولود، وإذا سألته عن ثمن الخبز أجابك "إنّ الأب أعلى والابن إنّما يأتي بالدرجة الثانية"، وإذا ما سألته عمّا إذا كان الحمام معداً، أجابك أنّ "الابن إنما هو مخلوق من العدم".

وكم كانت منتشرة الأفكار الجديدة حول طبيعة المسيح، هذه الأفكار التي أدّت بالنتيجة إلى الانقسامات، التي اتسم بها تاريخ المسيحية في الشرق.

ومن هذه "الهرتقات"، كما تصفها الكنيسة الرسمية برزت ثلاث نظريات رئيسية، في غمرة من الهرتقات العديدة، وقد لعبت دوراً حاسماً في الانشقاقات المسيحية، وهي الآرية، والنسطورية، والمنوفسية، مع ما كان لهذه الأخيرة من صيغة فرعية تجلّت بالمنوثلية، التي أراد صانعوها بابتكارها إيجاد حل وسط لتقريب المنوفسية من مذهب الكنيسة الرسمية.

* الآرية:

وهي البدعة التي ابتكرها الكاهن آريوس، في الإسكندرية، وكان من أصل ليبي، وذلك في القرن الرابع، وكان قد أعلن وحدانية الله، وأن المسيح لم يكن سوى كلمة الله المخلوقة، فأوفده الله إلى البشر رسولاً ونبياً.

إلا أن هذه الفكرة، التي كان من شأنها تقويض الإيمان الأساسي بالثالوث المقدس، الذي اعتنقته وعلّمته الكنيسة، دانها المجمع المسكوني، الذي انعقد في مدينة نيسيا، في شمالي غربي آسيا الصغرى، عام 325، برئاسة الإمبراطور قسطنطين شخصياً، فكان من نتيجة هذا المجمع إزالة هذه العقيدة من الشرق، إزالة تامّة، وبخاصة تحديد الإيمان بالثالوث الأقدس تحديداً قاطعاً نهائياً.

ومنذ ذلك الحين تحوّلت الآرية إلى القبائل الجرمانية في أوروبا، إلى أن توصّلت الكنيسة الرومانية إلى القضاء عليها قضاءً مبرماً – لكي تظفر في النهاية في القرآن والإسلام.

* النسطورية:

أمّا النسطورية فهي العقيدة التي تحمل اسم صاحبها، نسطور السوري الأصل الذي شغل مدّة سنوات، كرسي بطريريكية القسطنطينية، وأخذ يعلن وذلك بتأثير من الآرية على ما يبدو، أن المسيح، إذا ما كانت في شخصه قد اتحدت الطبيعتان، الإلهية والبشرية، فهذا الاتحاد لا يعني أنّ عذاب الصليب قد نال من الطبيعة الإلهية، بل إنّ هذا العذاب قد اقتصر على الطبيعة البشرية وحسب، وهي عقيدة كان من شأنها أن تجعل من الإيمان بأن الله قد بعث بابنه لتخليص البشر، إيماناً

بدون أساس، طالما أنّ عذاب الصليب لم يشمل شخص المسيح بطبيعتيه المتحدتين، الأمر الذي يجعل عندئذ السيدة مريم أم المسيح الإنسان، وليس أم الله، كما يأتي اسمها بصلاة مريم.

وأثر الاحتجاجات المدوية التي قامت من كل جانب على البطريرك نسطريوس، ولاسيما من شعب القسطنطينية، الذي كان متعلّقاً جدًّا بالقديسة مريم أم الله، قضى المجمع المسكوني الثالث، المنعقد في أفسوس، عام 431، بالهرتقة على هذا المذهب، وبخلع نسطوريوس عن كرسيّه وإرساله منفياً إلى شمال الجزيرة العربية – لجهة البتراء التي كانت واقعة تحت سيادة الإمبراطورية البيزنطية – حيث توفّي منسيًّا.

إلا أنّ أتباعه الكثر قد اضطرّوا من جهتهم إلى الهجرة فلجأوا إلى بلاد فارس، ولاسيما في بلاد بين النهرين، في نصّيبين والرّها، حيث ازدهرت الكنيسة النسطورية ازدهاراً عجيباً، لدرجة أنّها تمكّنت، خلال العصر الوسيط، من إرسال البعثات التبشيرية إلى أقطار آسيا الوسطى، وإلى مملكة التتر أو المنغول، وحتى إلى الصين، حيث تألفت على أساس مذهبها جاليات عديدة وضخمة.

* المنوفسية:

ولكن المذهب الذي لعب دوراً حاسماً في الانشقاقات الكنسية، إنما كان عقيدة الطبيعة الإلهية الواحدة، الموصوفة بالمنوفسية.

وأوّل من بشّر بها كان ناسكاً ورعاً في القسطنطينية، اسمه أتويشيوش، وذلك في أوائل القرن الخامس، ولكن مؤسس هذه العقيدة إنما كان في النهاية ساويروس الكبير، بطريرك إنطاكية في القرن السادس.

وهذه العقيدة كانت تقول بالطبيعة الإلهية الواحدة بالمسيح دون الطبيعة البشرية، التي زالت من الوجود بفعل تجسّد ابن الله في هيئة إنسان.

وقد انتشرت هذه العقيدة على الأخص في سوريا، ومصر، وحتى إنّ أرمينيا ذاتها قد اعتنقتها، ولكن بإضفاء تفسير خاص عليها.

وكان لا بدّ للكنيسة الرسمية من أن تثير حيال هذه العقيدة ردّة فعل قاسية، فتجلّت ردّتها بادئ ذي بدء، في المجمع المسكوني الذي انعقد في مدينة خلقيدونية، في شمال آسيا الصغرى، بقرب العاصمة، عام 451، حيث صدر القرار بإدانتها وتحريمها، وإعلان عقيدة الكنيسة الرسمية، أي الكاثوليكية – الأرثوذكسية، المبنية على الإيمان باتحاد الطبيعتين، الإلهية والبشرية، في شخص المسيح، اتحاداً غير قابل للانفصام.

الكنائس المنوفسية:

لقد كان مجمع خلقيدونية فاتحة الانشقاق العميق بين الكنيسة الرسمية والكنيسة السريانية في سوريا، والكنيسة القبطية في مصر، كما كان هذا المجمع منطلقاً حافلاً بالاضطهادات من جانب الدولة البيزنطية وكنيستها الرسمية، كما أنّه قد أثار في سوريا ومصر موجة من السخط ضدّهما.

المؤرّخون، على اختلاف نزعاتهم، من شرقيين وغربيين، ومن كاثوليك وسريان، وصفوا الأشكال الفظيعة التي اتخذتها هذه الاضطهادات من مذابح جماعية، وتقتيل فردي بالسيف والنار، ومن تشريد خارج المدن والأديرة، إلى ما هنالك من أنواع التعذيب التي تقشعرّ لها الأبدان، وكل ذلك

باسم يسوع الناصري، رسول المحبّة والرأفة، وهي حالة حدت كاتباً سورياً كبيراً، أميانوس مارسلانوس، على القول:

"لم يرَ التاريخ بهائم متوحشة أشد افتراساً وقساوة من المسيحيين، بعضهم لبعض".

وكان من أثر هذه الأعمال أن تأسست في بلاد الشام الكنيسة السريانية، وفي وادي النيل الكنيسة القبطية، وهو عمل جبار يعود الفضل بالمبادرة به وإنجازه، إلى كاهن سرياني، يعقوب البراذعي، أي في السريانية ذو الثياب الرثة والممزقة، التي كان يرتديها، للتخفّي عن أعين الشرطة البيزنطية، التي كانت تلاحقه في كل مكان.

ولا غرو أنه كان من أثر هذه الاضطهادات، ليس فقط إنشاء كنيسة وطنية في سوريا، وهي الكنيسة السريانية، وكنيسة وطنية في مصر، هي الكنيسة القبطية، وذلك بجانب الكنيسة الرومية، الرسمية، بل وعلى الأخص انبثاق شعور عميق من العداء والكراهية للسلطة البيزنطية، هذا الشعور الذي سيمهّد الدروب للفتح العربي في القرن السابع.

وأمام هذه الانتفاضات التي ظهرت في الشام ومصر قبيل الإسلام، تساءل المؤرّخون الغربيون، أمثال الروسي فاسيليف، والروماني نقولا يورغا، والفرنسي شارل ديل والفرنسي أرنست رينان، والإنجليزي ألفرد بتلر، والنمساوي أرنست شتاين، وعدد كبير من سواهم، عمّا إذا كانت هذه الحالة النفسية التي هيمنت على أهل الشام ومصر إزاء الحكم البيزنطي، بل هذه الانشقاقات التي قضت على وحدة الكنيسة الشرقية في القرنين الخامس والسادس، عمّا إذا كانت وليدة الاختلافات في العقيدة حول شخصية المسيح فحسب، أم أنّ ثمّة عوامل أخرى قد ساهمت في انطلاقها، وهو الوجه من تاريخ المسيحيين في الشرق، الذي وجد فيه المؤرّخون الغربيون الذين ذكرنا، أنّ لتلك الانتفاضات أسباباً قومية، كانت سوريّة في سوريا، وقبطية في مصر، وإنّها ارتدت وقتئذ شكل الحركات الدينية، لأنّ الدين إنما كان الرداء الذي كانت تتجلّى به في ذلك العهد، كما سيجري بعدئذ في الإسلام، الحركات السياسية والاجتماعية.

وهي نظرة إلى حقيقة تلك الحركات، يقتضي توضيحها بالعودة إلى الجذور العرقية التي تمتّ إليها شعوب هذه المنطقة، الموصوفة اليوم بـ"الشرق الأوسط".

ثانياً: الأصول السامية

ممّا لا شكّ فيه أنّ معظم الشعوب القاطنة في الوقت الحاضر الأقطار التي يتألف منها الهلال الخصيب، وهو التعبير الذي أوجده، في أوائل هذا القرن، المؤرّخ الأثري الأميركي، جيمس بريستد، بوصفه الأقطار المحيطة بالجزيرة العربية بالهلال الخصيب، إنّما هي محض سامية في أصولها.

والساميون الذين ورد ذكر جدّهم الأعلى، سام بن نوح، في التوراة، إنّما يؤلفون مجموعة واسعة من الأقوام التي تربطها صلة النسب من جهة، وعلاقة التربة من جهة أخرى، وهذه الأقوام، التي ظهرت منذ فجر التاريخ بشكل قبائل وعشائر، هي التي استوطنت بلاد الشام والعراق – ولربما أيضاً، وعلى حد قول بعض العلماء، مصر ونوبيا والحبشة.

والإشكال الذي أثار الاهتمام منذ أوائل القرن الماضي كان في التحرّي عن المحيط، الذي كانت تنطلق منه الأقوام السامية.

للجواب عن هذا السؤال، توصّل الألماني أدولف شبرنغر في أواسط القرن التاسع عشر، إثر دراسات وتحرّيات معمّقة، إلى القول الجازم "إنّ الساميين جميعهم عرب"، لأنّهم قد نبتوا من الجزيرة العربية، فتبعه بهذا الرأي، استناداً إلى أدلة جديدة، عالمان ألمانيان أخوان، شرادر وفنكلر، ولهذا الأخير عبارة معروفة، وهي "أنّ منبت الساميين الأصلي إنّما هو الجزيرة العربية".

وهذا الرأي قد تحوّل إلى نظرية علمية بفضل العلامة الإيطالي ليوني كايتاني، صاحب "حوليات الإسلام" الضخمة. ففي هذا المؤلّف، وبخاصّة في مؤلّف آخر بعنوان "دراسات في التاريخ الشرقي"، قد توصّل إلى الدلالة على أنّ القبائل كانت تنفر، تباعاً، خلال الأزمنة الغابرة ومنذ أكثر من خمسة آلاف سنة قبل المسيح، من الجزيرة العربية منذ زمن بعيد جداً بسبب تحوّلها إلى صحاري رملية وبوادٍ عارية من النبات، وتزايد الأعداد البشرية في القبائل، تزايداً مستمراً، الأمر الذي كان يدفعها إلى اجتياز الجزيرة، لكي تنصبّ على الأقطار المجاورة، فتغمرها كمياه الأنهار الصاخبة، وتحتل أراضيها، وتشيد فيها الممالك والإمبراطوريات، التي كانت جميعها سامية في أصولها العرقية، باستثناء قبائل سومر التي ما زال العلماء مختلفين حول تعيين أوطانها الأصلية (انظر إلى تثبيت الأصل العربي للسومريين من قبل الدكتور أحمد الداوود في الجزء الأول من هذا الكتاب، إ. ع).

وهكذا كاد اليوم الإجماع أن يتمّ بينهم على أنّ الساميين قد وردوا، تباعاً، خلال الأزمنة الغابرة، من الجزيرة العربية، وإن كانت آراؤهم برحت متضاربة حول الأسباب التي كانت تدفعهم، دورياً، إلى اجتياز شواطئ الجزيرة والفيض على أقطار الهلال الخصيب.

وهذه النتيجة لتحرّيات وأبحاث طويلة، فقد لخّصها المؤرخ الفرنسي ألكساندر موريه بخمس من الأمواج السامية الآتية جميعها من الجزيرة العربية، على الوجه التالي:

- بلاد عقاد أو أكاد، في جنوبي العراق، وهي متاخمة لحدود الجزيرة العربية في الألف الرابع قبل المسيح.

- الكنعانيون، وهم فئتان؛ فئة كنعانيي سواحل بلاد الشام، الذين أسماهم الإغريق بالفينيقيين، مع العلم أنّ مدنهم الدولية (بفتح الدال) بمعنى الدولة – المدينية، كانت تتسمّى بالكنعانيين. وفئة كنعانيي الداخل، الذين امتدّ انتشارهم إلى فلسطين وبعض أقسام من سوريا الوسطى، وذلك حوالي عام 2900، أي في أواخر الألف الثالث.

- الآراميون في سوريا من شمالها حتى دمشق، والعبريون في فلسطين، قريب عام 1500، أي في أواسط الألف الثاني.

- الأنباط بجوار عام 500، وذلك كله بالطبع قبل الميلاد.

- وفي القرن السابع، بعد الميلاد، اندفعت الموجة الأخيرة، التي أتت بالعرب، تحت راية الإسلام.

وهي موجات قد توقفت ظاهراً، منذ الفتح العربي، بشكلها العنفي، لكي تتحوّل إلى حركات تسلّلية، كانت تغذّي بصورة متواصلة، سكان سوريا الساميين، بدم قبائلها، فكان منها من يبقى على حياة البادية والرحّل، وسواها على الحياة الحضرية في أنحاء سوريا كافّة، كما أثبت ذلك المؤرّخ الفرنسي رينه دوسو في كتابين معروفين.

وهذا مع الإشارة إلى أنّ الجغرافي الإغريقي، سترابون، قد أشار في مؤلفه المسمّى "بالجغرافيا" أنّ جبل لبنان كانت تقطنه، في القرن الأول من الميلاد، قبائل وعشائر عربية وإيتورية (علماً بأنّ الإيتوريين هم أيضاً من العرب)، وأن هذه الأقوام كانت تعيش من الغزو وسائر وسائل الحياة البدوية.

في ضوء هذه المعطيات التاريخية، قد نستطيع إجراء المحاولة للتحرّي، على وجه التقريب، عن الأصول العرقية لأهالي بلاد الشام، قبيل الفتح العربي في القرن السابع – مع الملاحظة أنّه من العسير تطبيق الطريقة ذاتها على أقباط مصر، الذين نبقيهم خارج بحثنا الحاضر، لأسباب عدّة ومنها على الأخص لأنّ للشعب القبطي المصري، الذي تحوّل إلى الإسلام فيما بعد، لكي لا يبقى منه في الوقت الحاضر سوى ستة أو سبعة ملايين فقط، جذوراً عرقية ممتزجة بالسامية والحامية السوداء، التي لمّا يتوصّل العلم إلى توضيحها (أنظر مادة محمد عزة دروزة التي تثبت عروبة الأقباط القديمة في جزء سابق من هذا الكتاب، ومادة د. عكاشة الدالي حول نفس الموضوع في جزء لاحق - إ. ع).

ثالثاً: المسيحيون في سوريا والعراق

نحصر البحث بسكان سوريا والعراق، علماً بأن سوريا التاريخية إنما تشمل أيضاً فلسطين، وبالطبع لبنان – تاركين خارج هذا الإطار الأقباط في مصر، الذين كان يتألف من كثرتهم الساحقة شعب مصر قبل الإسلام.

فمن المسلّم به إذن أن الجماعات التي كانت قاطنة في سوريا والعراق، قبل الفتح العربي، كانت مسيحية برمّتها، كما أنّه من المتّفق عليه بين المؤرخين أنّ هذه الجماعات كانت منتمية إلى المنوفيسية في سوريا، وإلى النسطورية في العراق، وذلك بجانب جماعات كان لها أيضاً قيمتها العددية، مؤلفة من الروم، الخاضعين للكنيسة الرسمية في سوريا، ومن المنوفيسيين أتباع كنيسة إنطاكيا اليعقوبية، في العراق، وكان بعضهم في سوريا من أصل إغريقي والبعض الآخر من الآراميين، بينما كانوا في العراق، بمعظمهم على الأقل، من الآراميين ومن غير الفرس الإيرانيين.

المسيحيون في سوريا والعراق توسّموا الخير والخلاص على يد الفاتحين العرب

إلا أنّ في شمال سوريا، وبالتخصيص في مدينة خوروس، الواقعة قرب مدينة عزار، وكذلك حول دير كان كائناً على العاصي قرب مدينة أفاميا، وهو المكان المعروف اليوم بقلعة المضيق، تكوّنت جماعة الموارنة، الذين تسمّوا باسم مار مارون، منشئ هذه الجماعة، وقد عاش ناسكاً في القرن الرابع.

وحول العقيدة التي انبثقت عنها هذه الجماعة، التي هي آرامية في أصول أتباعها، تضاربت الآراء. فهنالك شبه إجماع لدى المؤرخين والمبشرين الغربيين، على أن هذه الجماعة قد نشأت بوحي وعلى أساس المنوثيلية، القائلة بأن للمسيح مشيئة واحدة في طبيعته الإلهية والبشرية، في حين أنّ المؤرخين والأحبار والكهنة من الموارنة إنما ينكرون بشدة ما يعتدّونه وصمة في "أرذوكسيتهم الدائمة".

ومهما كان الأمر، فالواقع أن هذه الجماعة كانت في وطنها الأصلي وليدة تربته مما يعني أنها كانت، ولم تزل، آرامية بعرقيتها، وإذا ما انتقلت، ابتداءً من القرن التاسع، على أغلب الظن، إلى

أعالي جبال لبنان الشمالية، فإنما بقيت محافظة على وحدتها، وبالطبع على أصولها، مما يدعو إلى القول بأنها، هي أيضاً، سامية الأصل، وعربية المنشأ.

إلا أن في الواقع كانت تلك الجماعات في سوريا والعراق خليطاً من الآراميين والعرب، فكان العنصر الآرامي سائداً في المدن الساحلية والداخلية، وعلى الأخص في القرى والأرياف، بينما كان العرب، وهم كانوا وما زالوا منضوين في إطاراتهم القبائلية والعشائرية، متوطنين، منذ الأزمنة البعيدة، بأعداد كثيفة، في المناطق الشرقية من سوريا والمناطق الغربية والشمالية من العراق.

وهكذا نشأت وازدهرت في تلك البوادي إمارة الغساسنة في سوريا، وكانوا يعتنقون المذهب اليعقوبي، ومملكة اللخميين في الحيرة من أعمال العراق، التي كان ملوكها ورعاياها من النسطوريين، - مع الملاحظة أن دولاً عربية قد نشأت أيضاً في تلك الأصقاع، قبل القرنين الخامس والسادس، اشتهرت منها جمهورية البتراء في الأردن، ومملكة تدمر (بالميرا) في سوريا.

هذا وقد كانت الآرامية اللغة المهيمنة في ذلك العهد، وقد بقيت الآرامية منتشرة، مدة ستة قرون على الأقل، لدرجة أنها غدت اللغة الدولية، وأيضاً الرسمية حتى في المملكة الفارسية - وكانت هي اللغة الدارجة في فلسطين، بدلاً من العبرية التي اندثرت كلغة محكية ومكتوبة، فانزوت في طقوس العبادة لدى اليهود – ومن المعروف عن المسيح أنّه بشّر بالآرامية وليس بالعبرية، وأن آخر كلماته على الصليب إنما لفظها بالآرامية (ليست العبرية إلا لهجة آرامية في الواقع – إ. ع).

غير أنه بجانب الآرامية، كانت العربية اللغة الدارجة في بوادي الشام والعراق، وأيضاً في المدن والقرى المتاخمة، وعلى الأخص في حمص وقنسرين وفي وادي الأردن وفي الشام، وفي الأنبار والمدائن والموصل والرها ونصيبين إلخ، في العراق والجزيرة. وذلك كله بجانب اللغة الإغريقية، لغة الدولة والدواوين في سوريا، والفارسية لغة الساسانيين في العراق.

ومن المعلوم أن اللغة إنما تؤلف أحد المؤشرات الدالة على الأصول العرقية، بل هي المؤشر الأكبر في الجماعات الدولية، لدرجة أنه بفضل اللغة القديمة جداً في الهند، والمعروفة بالسانسكريتية، قد توصّل العلماء إلى كشف الغطاء المجهول الذي كان يحجب أصول الشعوب الآرية الموصوفة أيضاً بالهندو-أوروبية، أو الهندو-الآرية.

فإذا كانت الآرامية الممتزجة بالعربية اللغة العامية والأدبية في الوقت ذاته، في جماعات سوريا والعراق المسيحية، فلأن هذه الجماعات إنما كانت متحدرة من أصل سامي، وأن أصولها القريبة والبعيدة، كانت متصلة بالجزيرة العربية، وذلك إثر الموجات البشرية الكثيفة التي ما فتئت، مدة أربعة أو خمسة آلاف سنة، تجتاح أقطار الهلال الخصيب.

رابعاً: القابلية النفسية للفتوحات العربية

وكان من الطبيعة الإنسانية أن تولد تلك الانقسامات اللاهوتية، والاضطهادات الدينية، نفوراً وكراهية وعداء في سوريا ومصر، حيال الإغريق في بيزنطيا، كما كانت عليه الحالة النفسية في العراق تجاه الساسانيين الفرس، الذين لم يمتنعوا هم أيضاً عن اللجوء إلى العنف وسفك الدماء لإخضاع المسيحيين، من نساطرة ويعقوبيين، إلى سياستهم المجوسية.

وكان لا بدّ للأصول السامية من أن تهيئ النفوس لهذا النفور نحو المملكتين العظميين في ذلك الحين، وهي التي دفعت سكان سوريا والعراق على الأخص، إلى أن يتوسّموا الخير وينشدوا

الخلاص على يد الفاتحين العرب، ليس فقط من محنتهم الدينية، بل أيضاً من ظلم الضرائب وكثرتها التي كانت تثقل كاهل المكلفين في أقطار الهلال الخصيب ووادي النيل.

وهذه المعطيات أجمع المؤرخون على أنها ساهمت كثيراً بتسهيل سبل النصر للفتوحات العربية، لدرجة أنه جزموا بأن سكان هذه الأقطار قد تقبلوا العرب بقلوب رحبة، لأنهم رأوا فيهم محرّرين لا غزاة.

وحسبنا الاستشهاد ببعض الأقوال من هذا القبيل، كميخائيل السرياني، بطريرك السريان الأرثوذكس في القرن الثاني عشر، أي بعد خمسة قرون من الفتح، وفي تاريخه الطويل نجد عبارات استهجان لسياسة الروم، كالتالية:

"لأنّ الله هو المنتقم الأعظم، الذي وحده على كل شيء قدير، والذي وحده إنما يبدّل ملك البشر كما يشاء، فيهبه لمن يشاء، ويرفع الوضيع بدلاً من المتكبّر، ولأنّ الله قد رأى ما كان يقترفه الروم من أعمال الشر، من نهب كنائسنا ودياراتنا، وتعذيبنا بدون أيّة رحمة، فإنما قد أتى من مناطق الجنوب ببني إسماعيل، لتحريرنا من نير الروم... وهكذا كان خلاصنا على أيديهم من ظلم الروم وشرورهم وحقدهم واضطهاداتهم وفظاعاتهم نحونا".

وهي شهادة رهيبة، نجد مثلها، مما يتعلق بأقباط مصر، في تاريخ يوحنا النيقوسي، الذي تولى أسقفية نيقو في دلتا النيل، بعد فتح مصر بقليل، وكذلك في تاريخ ساوروس الأشموني، الذي جاء من بعده، وهي شهادة لا شك بأنّها تدل على ما كان عليه مسيحيو مصر وسوريا والعراق من الشعور نحو البيزنطيين والفرس من جهة، وحيال العرب المسلمين من جهة ثانية.

ولأنهم قد تحققوا من هذا الوضع النفساني، الذي كان عاملاً حاسماً في إنجازات الفتح العربي، بسرعة مذهلة، فقد توافق المؤرخون الغربيون في عصرنا على إعلان هذه الحقيقة، أمثال الهولندي دي غوج، والبريطاني ألفرد بتلر، والفرنسي أرنست رينان وعدد كبير من سواهم.

ونكتفي في هذا المضمار بإيراد مقطع من دي غوج، في بحثه العميق حول فتح سوريا، الصادر في أوائل القرن الحالي، وفي معرض تذكيره بالتبعة التي يتحملها الإمبراطور هراقليوس، أو هرقل، في ضياع سوريا، بسبب سياسته الخرقاء، بفرض تعاليم المجتمع الخلقيدوني والمنوثلية، بوسائل شتى من الاضطهاد، وذلك مع إشارته إلى ازدياد الضرائب التي أثقلت كاهل سكان سوريا، مما حدا هؤلاء السوريين على اليقين بأن سلطان العرب سيكون أكثر رحمة وأشد حرية لمعتقداتهم. يقول هذا المستشرق الهولندي أن العرب والسوريين معاً كانوا يرون في بلاد الشام، جزءاً لا يتجزأ، مكملاً من الجزيرة العربية، وذلك بقوله ما نصّه:

"منذ أبعد الأزمنة، كانت سوريا موطناً للعرق السامي، وعلى الرغم من أن الحكومة كانت، في عهد بيزنطيا، متمركزة في القسطنطينية، فإن الشعب كان بمعظمه سامياً وحتى عربياً، ولذلك لم يكن من أثر الفتح العربي الاستيلاء على قطر غريب، الغاية المباشرة منه جباية الضرائب من سكانه، وإنما تحرير جزء من الوطن العربي الذي كان رازحاً تحت طغيان الاحتلال الأجنبي، وبالتالي استعادة عدد عظيم من المواطنين المهيئين نفسياً لإشراكهم بالدفاع عن مجد الله ونبيه".

ولا غرو أن السياسة التي اتبعها العرب المسلمون منذ أول فتوحاتهم قد أعدّت تلك الجماهير في البلاد التي دانت لهم، إلى تقبل سلطاتهم، وهي سياسة كانت، هي أيضاً، فتحاً بذاتها، في عالم الفكر

والدين. ومن المعلوم أنها استندت إلى آيتين كريمتين، الواحدة التي تقضي أن "لا إكراه في الدين"، والثانية أن على أهل الكتاب، الذين يختارون البقاء على دينهم، أن "يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون".

فمن الممكن وبدون مبالغة القول بأن الفكرة التي أدّت إلى انتجاع هذه السياسة الإنسانية "الليبرالية" إذا جاز استعمال هذا الاصطلاح العصري، إنما كانت ابتكاراً عبقرياً، وذلك لأن للمرة الأولى في التاريخ انطلقت دولة، هي دينية في مبدئها، ودينية في سبب وجودها، ودينية في هدفها، ألا وهو نشر الإسلام، من طريق الجهاد، بأشكاله المختلفة، من عسكرية ومَثَلية وتبشيرية، إلى الإقرار في الوقت ذاته بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانهم، أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وطراز حياتها – وذلك في زمن كان يقضي المبدأ السائد إكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم، بل وحتى على الانتماء إلى الشكل الخاص الذي يرتديه هذا الدين، كما كان الأمر عليه في المملكتين العظميين اللتين كان يتألف منهما العالم القديم.

هذه القاعدة التي لم تندثر في البلاد الغربية إلا بفضل الثورة الأميركية والثورة الفرنسية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

وكان لا بدّ إذن لهذه السياسة الإسلامية، المتحدرة عن القرآن، من أن تسفر عن نتيجتين حاسمتين ما لبثت آثارهما ماثلة في الشعوب العربية، وهما قيام الطوائف المسيحية على أساس النظام الطائفي من نحو، ودخول سكان الأقطار التي فتحها العرب في دين الإسلام من نحو آخر.

فتلك الجماهير الكثيفة، التي تشكل كثرة أهالي سوريا ومصر والعراق، إنما كانت تدين بالمسيحية، وقد اعتنقت الإسلام بأفواج متلاحقة، منذ القرن الأول من الهجرة بملء حريتها، في حين أن من بقي من هؤلاء النصارى، موزعين إلى طوائفهم المعروفة بتسمياتها المختلفة إنما هم شهود عدل، عبر التاريخ، ليس على سماحة الإسلام – وهو تعبير لا يفي بالواقع، لأن وجودهم كأهل ذمّة في الماضي، إنما كان مبنياً على قاعدة شرعية وليس على شعور، من طبيعته أن يتضاعف أو أن يضعف – وإنما على إنسانية هذا الدين العربي الذي أنزله القرآن.

وهو الدين الذي أقرّ لغير المسلمين، ليس فقط بحقوقهم الفردية والجماعية الكاملة، بل وأيضاً بالمواطنية الشاملة في عصرنا الحاضر، الذي زال فيه نظام الذمّة، لكي يحل محله نظام الحريات العامة، المنطوية، لزاماً، على مبدأ المساواة التامّة في المواطنية.

ألم يكن الرسول العربي الذي قال في حديثه الشهير:

"ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلّم بالعربية، فهو عربي".

الجزء الخامس: مقولات علماء وفلاسفة العرب

في العصر العباسي والعصور الوسطى في القومية العربية واتصال العروبة قبل الإسلام وبعده

مقتطفات من كتاب د. عبد العزيز الدوري "التكوين التاريخي للأمة العربية، دراسة في الهوية والوعي"، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1985. ص: 99 – 112.

تقديم

تكمن أهمية هذه المادة في أنها تثبت الوحدة المتصلة للوجود العربي، والصلة الوثيقة بين العروبة قبل الإسلام وبعده، وبالتالي بين العروبة القديمة وما تلاها، على لسان بعض كبار العلماء والمفكرين العرب في العصر العباسي، مما يعطي بعداً آخر لرسالة هذا الكتاب، ومما يثبت أيضاً أن وجود العروبة القديمة ليس بدعة معاصرة بأي حالٍ من الأحوال. بالإضافة إلى ذلك، نلاحظ أن أولئك الكتاب بنوا العروبة على الثقافة واللغة والجغرافيا، لا على النسب، وهو ما ينفي المفهوم العرقي للقومية، كما شرحنا في كتاب "أسس الفكر القومي: مختارات لرؤية نقدية". ونلاحظ أيضاً أن أولئك الكتاب ميزوا بين مفهوم الأمة على أساس بشري، ومفهومها على أساس ديني (الملة) – إ. ع.

في القرن الثالث الهجري قامت الإمارة الطاهرية وتلتها الصفارية والسامانية. وفي ظل هذه الإمارات بدأ النثر والشعر باللغة الفارسية الحديثة، وكان هذا التطور بداية للانقسام في الثقافة الإسلامية ولإحياء الهوية القومية. فاستعمال لغة ثانية غير العربية في الأدب والثقافة كان تطوراً خطيراً بذاته، أحدث انفصاماً في الثقافة ولكنه من جهة ثانية أدى إلى تحديد مفهوم العروبة الثقافي.

وهنا نلاحظ أن الحركة الشعوبية (التي بدأت في القرن الثاني وتجاوزت القرن الثالث) جوبهت من قبل أنصار العربية والإسلام بالتأكيد على أن العربية لغة وثقافة كانت قاعدة العروبة وأساسها.

إن الحركة الشعوبية تنطوي على وعي بعض شعوب الخلافة وخاصة الفرس لذاتها القديمة وتراثها ووقوفها في وجه الثقافة العربية الإسلامية وفي وجه السلطان العربي (يقول الجاحظ: إنّه لم ير "كاتب قط جعل القرآن سميره، ولا علمه مسيره، ولا التفقه في الدين شعائره، ولا الحفظ للسنن والآثار عماده..." ويستطرد ليقول أن أحدهم إذا "روى لبزرجمهر أمثاله ولأردشير عهده ولعبد الحميد رسائله ولابن المقفع أدبه، وصيّر كتاب مزدك معدن علمه ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته" اعتقد "أنّه الفارق الأكبر في التدبير". والجاحظ يقصد الكتّاب المتحمسين للتراث الفارسي كما يبدو (1). وقد بدأت الشعوبية في وقت كان مفهوم الإسلام والعروبة واحداً. ولذا اقترنت أحياناً بالزندقة التي حاولت ضرب الإسلام من الداخل وتهديم القيم الإسلامية.

ولئن كانت للشعوبية جذور مستورة في العصر الأموي فإنها كشفت عن وجهتها في العصر العباسي، فوجهت هجمات إلى ماضي العرب ووصمته بالبداوة والانحطاط، وشككت في كيان العرب بأن طعنت في أنسابهم وادعت أنهم مجموعة قبائل متنافرة لا أمة واحدة، وحطت من الأخلاق والسجايا العربية. واندفعت إلى مجابهة اللغة العربية وإلى الطعن بالثقافة الغربية والتشكيك بقيمتها في حين ذهبت إلى تمجيد الثقافات الأعجمية وتراثها. وحاولت تشويه تاريخ العرب ودورهم

التاريخي لتمجد مقابل ذلك مآثر وأمجاد الشعوب الأخرى. بل وذهبت إلى التشكيك بالإسلام لأن العرب حملوه، وحاولت نسفه من الداخل(2).

1- انظر: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ثلاث رسائل، تحقيق يوشع فنكل (القاهرة: المطبعة السلفية، 1915) ص 42-43.

2 - (انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج 3، ص 14. أبو عمر احمد بن محمد ابن عبد ربه، العقد الفريد، شرحه ورتب فهارسه أحمد أمين، أحمد الزين وإبراهيم الأبياري، 7 ج (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1940-1953)، ج 3، ص 405-412؛ أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة،صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، 3 ج (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1939-1944)، ج 1، ص 78-80 و81 ؛ ابن قتيبة، "العرب" في: رسائل البلغاء، ص 345-346، وبارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص 51).

ويلاحظ أن الشعوبية نشطت بالدرجة الأولى في العراق قلب الخلافة ومركز الثقافة العربية الإسلامية. والعراق مهد حضارة عريقة كونتها شعوب الجزيرة العربية وساحة صراع بينها وبين ثقافة أخرى آرية. وبعد قيام الإسلام وظهور دور العرب في التاريخ صارت ساحة صراع بين العروبة والأعجمية وبين الآراء الدينية المجوسية وبين الإسلام.

وكان لهذا الصراع الفكري أثره البعيد، إذ وجه الانتباه إلى مقومات الأمة العربية ودورها التاريخي وثقافتها وقيمتها. وبذلك أثار الوعي العربي وأدى إلى توضيح فكرة الأمة العربية وإلى تأكيد ذاتها على أسس أرحب عبر القرون. ويهمنا هنا بصورة خاصة أن نفهم كيف قابل العرب هذا التحدي لمقوماتهم وكيانهم ودورهم.

لقد أدت هجمات الشعوبية على التراث العربي إلى تكوين نظرة أشمل لهذا التراث عند العرب. فقد بدأوا بالتأكيد على أن الدراسات العربية الإسلامية هي صلب هذه الثقافة، ابتداء بدراسة القرآن وتفسيره، والفقه، وحفظ السنن ونقل الآثار، والعناية بالأخبار واللغات والأنساب. وأدت الهجمات على التراث العربي إلى العودة إلى هذا التراث من شعر وأمثال وحكم، وإلى العناية به، بجمعه وتيسيره ليكون عنصراً في الثقافة العربية، وزالت النظرة التي تريد تجزئة الثقافة العربية فلا ترى شيئاً قبل الإسلام وتهمل تراث العرب القديم. ويتمثل هذا في كتاب مثل البيان والتبيين للجاحظ – الذي يقدم صورة حية للتراث الثقافي العربي قبل الإسلام وبعده، وفي كتب الحماسة مثل حماسة البحتري وحماسة أبي تمام، وفي الأصمعيات والمفضليات للضبي، وهي تقدم مختارات شعرية وأدبية تظهر روعة الأدب والشعر وتقدمها للناشئين والمتأدبين لتعرفهم به.

وهكذا ثبت لأول مرة وبصورة واضحة فكرة الاستمرار الثقافي في حياة العرب، والوحدة الثقافية عندهم، أو التكامل الثقافي في حياة العرب قبل الإسلام وبعده. وهذا بدوره يؤكد أن العرب لهم أصول ثقافية عريقة، وأنهم أصحاب تراث قديم لا كما تزعم الشعوبية.

ولم يقتصر هذا الاتجاه على الأدباء بل ظهر لدى المؤرخين. وضع ابن قتيبة كتاب المعارف وتناول فيه صفحات متصلة متكاملة من تاريخ العرب وتراثهم الفكري قبل الإسلام وبعده، وجعله موسوعة

للمعرفة التاريخية والأدبية والثقافية عامة قبل الإسلام وبعده، وأراد له أن يكون قاعدة ثقافية تهيئ القدر الأدنى الضروري من هذه المعارف للمثقف والكاتب.

وأدى التركيز في الهجوم على العرب في الجاهلية إلى توضيح مفهوم الأمة العربية، إذ أفضى للدفاع عن العرب، حتى في الجاهلية، فأبرزوا مفاهيم المروءة عندهم، ونسبوهم إلى الكرم والحلم والإباء والنجدة واتخاذ المكارم، ونعتوهم بـ "صحة الفطرة وصواب الفكر وذكاء الفهم"، "وبالفصاحة وسعة اللغة"، "كل ذلك مع فقرهم وجدب بلادهم"(1).

ويقول ابن قتيبة: "وكذلك الأمم، فيها أمة كرم بلبانها كالعرب، فإنها لم تزل في الجاهلية تتواصى بالحلم والحياء والتذمم، وتتعاير بالبخل والغدر والسفه، وتتنزه من الدناءة والمذمة، وتتدرب بالنجدة والصبر والبسالة، وتوجب للجار من حفظ الجوار ورعاية الحق فوق ما توجبه للجميع"(2).
ورجعوا إلى تاريخ العرب قبل الإسلام ليبينوا أن لهم ملكاً عريضاً وحضارات قديمة، وأنهم ليسوا حديثي عهد بالدول، وأنهم لم يحتملوا ذلاً قط. وكمثال لذلك يذكر أن الأصمعي ألف كتاباً في تاريخ ملوك العرب في الجاهلية، كما تناول اليعقوبي في كتابة التاريخ، والمسعودي في مروج الذهب- إضافة إلى الطبري، تاريخ العرب قبل الإسلام جنب تواريخ الشعوب العريقة(3).

ويقول يحيى بن مسعدة في الرد على ابن غرسية الشعوبي: أما لك فيهم بعد الملوك العاربة، والكواكب الطالعة الغاربة، من الثمودية والعادية والطمسية والجديسية والوبارية والاميميمة (لعله: الأصبحية) ما يقرع صفاتك !..) (4).

1- (انظر: التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص82.

2 - انظر: ابن قتيبة، رسائل البلغاء، ص 282).

3 - أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي، تاريخ العرب قبل الإسلام، تحقيق محمد حسين آل ياسين (بغداد: مطبعة المعارف،1959)، والجاحظ، ثلاث رسائل، تحقيق فان فلوتن (ليدن،1903)، ص 44- 45.

4 - انظر: نوادر المخطوطات، تحقيق عبد السلام محمد هارون، 2 ج في 3 (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1951-1955)، ص286.

وذهبوا إلى إظهار دور العرب في التاريخ كمثال لذلك نذكر أن البلاذري ألف فتوح البلدان ليعبر عن حمل العرب برسالة الإسلام وجهادهم في مد رقعته وتكوين دولته بالفتوحات والتمصير ابتداءً بعصر الرسالة وحتى القرن الثالث الهجري. وهو نفسه ألف كتاب أنساب الأشراف فيتناول تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده ويبرز دور الأشراف في السياسة والإدارة والثقافة، ويعطيهم الدور الأساسي في تكوين هذا التاريخ واتصاله. وهو يتناول شخصيات متعربة ويظهر دورها في الحياة العامة في هذا الإطار. وهذا يشعر بتأكيد وحدة الأمة وباتصال مسيرتها في التاريخ.

وأدرك العرب أن تعرض بعض الشعوبية والزنادقة للإسلام لم يكن إلا بسبب العداء للعرب والكره للسلطان العربي "إذ كانت العرب هي التي جاءت به (الإسلام) وكانوا السلف" كما يقول الجاحظ (يقول الجاحظ: "فإنما عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية، فإذا أبغض شيئاً، أبغض أهله، وإنْ أبغض تلك اللغة (أي العربية) أبغض تلك الجزيرة (أي جزيرة العرب)، فلا

تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذ كانت العرب التي جاءت به وكانوا السلف"(1). وهذا طبيعي إذا تذكرنا أن العرب استمروا يشعرون بدورهم المركزي في الإسلام وبالترابط الوثيق بين العروبة والإسلام (يقول الثعالبي: ومن هداه الله للإسلام... اعتقد أن محمداً (ص) خير الرسل... والعرب خير الأمم...) (2).

---

1 - انظر: الجاحظ: البيان والتبيين ج3، ص 14).

2 -انظر: أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، ص3.

- ساد الاتجاه إذن بين رجال الفكر بأنّ العرب أمة واحدة. فابن قتيبة يتحدث عن العرب كأمة على أساس بشري؛ يشير إليها كذلك قبل الإسلام ثم يبين أن الله "ابتعث منها النبي (ص).. وجمع كلمتها... ومكّن لها في البلاد... وخاطبها وهي يومئذٍ لا عجم فيها فقال: ((كنتم خير أمّة أخرجت للناس))، فلها فضل هذا الخطاب والأمم طرا داخلة عليها فيه". ويؤكد الثعالبي أن العرب أمّة بين الأمم. وبيّن التوحيدي أن العرب أمّة لها خصائصها ومزاياها.

وما دام العرب أمّة واحدة، فإن القبائل شمالية وجنوبية، على اختلاف أنسابها ليست إلا أجزاء أو وحدات منها. ويلاحظ الجاحظ الاختلاف بين القحطانية والعدنانية بل وبين القبائل العدنانية أيضاً ويتساءل: "فكيف كان أولادهما جميعاً عرباً مع اختلاف الأبوة؟" فيجيب: "قلنا أن العرب لما كانت واحدة فاستووا في التربة، وفي اللغة والشمائل والهمة، وفي الأنفة والحمية، وفي الأخلاق والسجية، فسبكوا سبكاً واحداً وأفرغوا إفراغاً واحداً، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط، حتى صار ذلك أشدّ تشابهاً في باب الأعم والأخص وفي باب الوفاق والمباينة من بعض الأرحام، وجرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب، وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى"(1).. وهكذا يجيد الجاحظ اللغة، وفي الشمائل والأخلاق والسجايا، عناصر تكوين الأمة، فهي تعوض عن النسب، بل هي أسباب ولادة جديدة.

وقبل أن نتابع هذه المسألة ننظر إلى اللغة التي تعرضت بدورها للنقد ولمحاولة الغض من شأنها. كان العرب يعتزون بالعربية ويفخرون بالفصاحة والبيان، فأخذوا الآن يؤكدون على روعتها بجمالها وتصاريف كلامها وغنى مفرداتها وسعتها، وقد شرفت بالقرآن المعجز بفصاحته وبيانه. وهي بعد لغة الثقافة الحيّة إضافة إلى آدابها الرائعة، وإذا كان هناك هجوم أو تعرض لها فإنه ناشئ عن العجمة والحقد. وجرهم التحدي إلى التوسع في مزايا العربية وإلى التأكيد على أنها أجمل اللغات وأنصعها وأغناها (يقول التوحيدي: فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوع العربية.. ويتحدث عن "سعة لغتها وتصاريف كلامها في أسمائها وأفعالها وحروفها، وجولانها في اشتقاقها، ومآخذها في استعاراتها وغرائب تصرفها في اختصاراتها ولطف كنياتها في مقابلة تصريحاتها.."(2). وذهبوا إلى أن العناية الإلهية باركتها، إذ اختارها الله للتنزيل وشرفها، فاقترنت بالإسلام كما ارتبطت بالعرب، والناقدون هم أهل البدع والزيغ والإزراء بالعرب كما يقول الأنباري. ولذا فإنَّ من أحب العرب "أحب اللغة العربية التي نزل بها أفضل الكتب"، وإنَّ "من هداه الله للإسلام.. اعتقد أن... العربية خير اللغات والإقبال على تفهمها من الديانة" كما يقول الثعالبي.

1- الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج1، ص 10-11.

2- انظر التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج1، ص 76-77.)

واللغة العربية بعد هذا هي لغة العلوم العربية الإسلامية، وفي وعائها وضعت كافة المعارف، وخاصة وأنَّ الكلام في معظم أبواب الفقه وأصوله يستند إلى إعرابها، كما أن التفسير لا يفهم إلا بالرجوع إليها. يقول الزمخشري الذي أنكر هجمات الشعوبية عليها متعجباً من قلة إنصافهم: "وذلك أنهم لا يجدون علماً من العلوم الإسلامية، فقهها، وكلامها، وعلمي تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بين لا يدفع... ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنياً على علم الإعراب، والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائي والفراء وغيرهم من النحويين... والاستظهار في مآخذ النصوص بأقاويلهم والتشبث بأهداب تفسيرهم وتأويلهم، وبهذا اللسان مناقلتهم وتأويلهم، وبهذا اللسان مناقلتهم في العلم، ومحاورتهم وتدريسهم ومناظرتهم(1).

واتخذ الاعتزاز بالعربية عند العرب معنى اجتماعياً ودلالة تشعر بتأصل الوعي العربي. فقد رأوا في اللغة العربية رمز وحدتهم ورابطة أمتهم وقاعدة ثقافتهم. نعم كان العرب يفخرون بالأنساب، فكتبوا الكثير فيها وجهدوا في الحفاظ عليها (والرد على هجمات الشعوبية)، واستتد تصرفهم بشكل واضح ولفترة طويلة إلى دلالة هذه الأنساب، ولكن هذا لن يغفلنا عن بعض النقاط. فالنظرة القبلية الضيقة للأنساب كانت مصدر فرقة وجمود، وركون العرب إلى الحياة الحضرية، والتطورات الاجتماعية والاقتصادية، واستمرار التعريب، كلها حدت من دور الأنساب، فقد كان الديوان السجل الرسمي للأنساب العربية، فلما انتهى ذلك اقتصر الاهتمام على الأفراد والأسر، ولذا نجد كتب الأنساب التي وصلتنا تقف عند أواخر العصر العباسي الأول. وقد يكون هذا متأثراً أيضاً بتراجع أثر الانتساب في الحياة العامة.

لعل ما ذكر ييسر فهم ظهور الاتجاه الذي يجعل اللغة العربية الرابطة الأساسية بين العرب ليتدرج هذا الاتجاه فيجعل اللغة أساس العروبة.

ويبدو هذا الاتجاه واضحاً في الكتابات العربية منذ النصف الأول للقرن الثالث الهجري. فالجاحظ يوضح عروبة إسماعيل بقوله ((وقد جعلوا إسماعيل- وهو ابن أعجمين – عربياً، لأنَّ الله (تع) فتق لهاته بالعربية المبينة على غير التلقين والترتيب، ثم فطره على الفصاحة العجيبة على غير النشوء والتمرين، وسلخ طباعه من طبائع العجم... ثم حباه من طبائعهم (أي العرب)، ومنحه أخلاقهم وشمائلهم، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها.. وأشرفها وأعلاها... فكان أحق بذلك النسب..)) (2).

1-أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، المفصل في صنعة الإعراب، "الإسكندرية: مطبعة الكوكب الشرقي، 1874" ص2-3.

2 - الجاحظ: رسائل الجاحظ، ج1، ص31.

وهكذا يعتبر اللغة العربية لا النسب أساس عروبته، مضيفاً إليها الطبائع والأخلاق والشمائل. وبضوء هذا نفهم كيف اعتبر الجاحظ المولى عربياً فيقول ((وإذا كان المولى منقولاً إلى العرب في أكثر المعاني ومجعولاً منهم في عامة الأسباب، لم يكن ذلك بأعجب ممن جعل الخال والداً والحليف

من الصميم وابن الأخت من القوم)). ويستطرد في التوضيح ويقول: ((إنَّ المولى أقرب إلى العرب في كثير من المعاني لأنهم في المدعى وفي العاقلة وفي الوراثة، وهذا تأويل قوله (ص).. مولى القوم منهم، ومولى القوم من أنفسهم، والولاء لحمة كلحمة نسب. وعلى شبه ذلك صار حليف القوم منهم وحكمه حكمهم، وبذلك النسب حرمت الصدقة على موالي بني هاشم، فإنَّ النبي (ص) أجراهم في باب التنزيه والتطهير مجرى مواليهم)) (1).

وهكذا، وبهذا التحليل، يجعل الجاحظ العربية الرابطة الأولى للعرب، والأساس الأول للعروبة، بل ويحلها محل رابطة النسب في المفاهيم القبلية. وهو بذلك يعبر عن التطورات العامة (اجتماعية واقتصادية وسياسية) والتي أدت إلى هذا التحول في النظرة، وكان لانتشار العربية وللتعريب الدور الأول فيه.

وابن المقفع في حديثه عن العرب كأمة يتحدث عن سجاياها وأثر البيئة في طبائعها ويركز على لغتها وما تتميز به(2).

وللفارابي (ت 335/950) اتجاه مماثل في مفهوم الأمة. فهو يرى أن التجمع البشري ينتهي إلى الأمم. ويناقش الروابط في الأمة ليذكر رابطة النسب على رأي البعض، ويلاحظ أن مرور الزمن يذهب بها. ثم يورد الرأي الآخر وهو أن مقومات الأمة هي تشابه الخلق والشيم والطبيعة والاشتراك في اللغة واللسان، وأنَّ الأمم تتباين بحصول تباين في هذه الأمور الثلاثة (يقول الفارابي: "وآخرون رأوا أن الارتباط هو بتشابه الخلق والشيم الطبيعية، والاشتراك في اللغة واللسان، وأنَّ التباين بتباين هذه، وهذا هو لكل أمة... فإنَّ الأمم تتباين بهذه الثلاث"(3).

والفارابي يرجع إلى السمات الطبيعية، أي الخلق والشيم الطبيعية، إلى أثر البيئة الطبيعية والموقع الجغرافي (والفلكي) وما يتصل بذلك من مميزات في الهواء والحياة وأنواع النبات والحيوان. ومن الواضح أن اللغة واللسان هما من صنع الإنسان، أما السمات الطبيعية فهي نسبية. وبعد هذا يميز الفارابي بين الأمة (بمفهوم بشري) وبين الملة (أي أتباع ديانة) (4).

---

1 - المصدر نفسه، ج1، ص 12-13-، 30-31 و34، والجاحظ، ثلاث رسائل، تحقيق فان فلوتن، ص 6-7.

2 - التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 70-96. وهو يرى التدرج البشري كما يلي: أمة، طائفة، قبيلة، بيت.

3 - انظر: أبو نصر محمد بن محمد الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق وتقديم ألبير نصري نادر، ط2 (بيروت: دار المشرق، 1968) ص 154-155 و157).

4 - أبو نصر محمد بن محمد الفارابي، السياسة المدنية الملقب بمبادئ الموجودات، تحقيق وتقديم وتعليق فوزي متري النجار (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1964) ص 70-71، وناصيف نصار ،مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ: دراسة في مدلول الأمة في التراث العربي والإسلامي (بيروت: دار الطليعة،1975) ص 42 وما يليها.

ولاحظ المسعودي (345/956) أهمية العوامل الجغرافية في التاريخ، ولاحظ أن السمات الطبيعية والإمكانيات الفكرية تتأثر بالأوضاع الجغرافية والظروف المناخية.

تحدث المسعودي عن الأمم الرئيسية في التاريخ وعن مقوماتها، فذكر أنها تتميز بثلاثة أمور.. بشيمهم (الطبيعية) وخلقهم الطبيعية وألسنتهم، وأعطى البيئة الجغرافية الدور الرئيسي بالنسبة للميزتين الأوليين. وحين تحدث عن كل أمّة ذكر مساكنها (البيئة) وأوضح أن كلا منها كانت مملكة واحدة ولسانها واحد. ولكنه يلاحظ أن الوحدة السياسية قد تنتهي إلى تجزئة، إلا أن الأمة تبقى واحدة، وهذا يعطي اللسان المنزلة الأولى، رغم تقديره أن اللسان الواحد قد يحتوي على ((لغات)) تختلف في أشياء يسيرة. كما أنّه يميز بين الأمة (بمفهوم بشري) والملة (على أساس الدين).

والمسعودي يعطي الأهمية الأولى للسان حين يتحدث عن العرب. فهو يقرر أن لسان الكلدانيين واحد (أي سرياني) ((وهو اللسان الأول، لسان آدم ونوح وإبراهيم))، وان إسماعيل إنما تكلم العربية حين نشأ بين العماليق وجرهم بمكة. ولذلك يقرر المسعودي "إن إبراهيم لم يكن عربياً ولا إسحق ابنه، وإنَّ ابنه إسماعيل أول من نطق بالعربية وتكلم بها"، وبذلك يوضح عروبة إسماعيل ويجعل العربية أساس الانتماء إلى العرب. ويُلاحظ أن المسعودي يرى أن الأمة بمفهومها البشري تتكون من شعوب وقبائل، وهذا ينسجم مع نظرته التاريخية(1).

بعد هذا نجد التعريف التاريخي للعرب عند ابن منظور حين يقول "وكل من سكن بلاد العرب وجزيرتها، ونطق بلسان أهلها، فهم عرب يمنهم ومعدّهم"، ثم يضيف :"والعرب المستعربة هم الذين دخلوا فيهم فاستعربوا". وهو يدخل من "أقام بالبادية والمدن" في تعريفه، وبذلك يعطي المفهوم الشامل الذي استقر للعرب(2).

---

1 -انظر: أبو الحسن بن علي بن الحسين المسعودي، التنبيه والإشراف، تحقيق دي غوية (بيروت: مكتبة خياط، 1965) ص 75-78 و80.

2 - انظر: أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، 15 ج (بيروت: دار صادر، 1968)، "مادة عرب".

ويأتي ابن خلدون (808/1406) بنظرة تاريخية شاملة. فهو في حديثه عن العرب يراهم أمّة لها روابط بشرية، ويميزها عن "الملة" التي تنشدها رابطة الدين(1).. وهذا لا ينفي استعماله الكلمة "امة" في حالات معدودة ليشير إلى الأمة الإسلامية(2).

ونظرة ابن خلدون توجب الإشارة إلى أكثر من عامل لتحديد أساس الأمة. فهو يلاحظ أثر البيئة الطبيعية في تحديد نوع المعاش، وفي ألوان البشر وسماتهم، وفي عوائدهم وأخلاقهم، بل ويمتد هذا الأثر إلى أحوالهم الدينية.

ويبدأ ابن خلدون بالمفاهيم المألوفة ليتابع التطور التاريخي. فهو يرى أن الأمة العربية تتكون من شعوب وقبائل، ويشير إلى عراقتها إذ تمثل الملك في شعوب منها في التاريخ القديم مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير، إلى أن جاءت الدولة لمضر في الإسلام. وانهيار الدولة عنده لا يعني زوال الأمة، بل يعني زوال العصبية في شعب لتظهر في آخر الأمة، فالأمة باقية والدول تقوم وتزول.

ويعطي ابن خلدون تحليلاً تاريخياً لدور النسب. فهو يرى أن النسب يمكن أن يكون الرابطة الأولى في تكوين الأمة في مرحلة ما، كما هو بالنسبة لجيل العرب البدو (يقول ابن خلدون: "إن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين من العرب ومن في معناهم"(3)، وهو أساس العصبية. وهو يقدر

أن النسب لا يعني بالضرورة التناسل من أب واحد، فقد يحصل -في رأيه- تداخل في الأنساب بين القبائل بطرق مختلفة مثل الحلف والولاء والالتحاق، وفي جميع الحالات يكتسب الفرد أو الجماعة النسب الجديد والتزاماته، ولكن يبقى النسب مفهوماً أساسياً. ولكنه لا يقف عند هذا بل يرى أن الأنساب تضعف تدريجياً بالتحضر والاختلاط بالأعاجم، وتظهر روابط جديدة. وهو يلاحظ أثر نزول العرب في مناطق خصبة وما يؤدي إليه ذلك من اختلاط الأنساب، ويتناول استقرارهم في الأمصار بعد الفتح وما رافقه من تطور ليثير أهمية الاختلاط والمواطن. ويبدو أنّه انتبه إلى تطور أوسع تجاوز القبلية، إذ برزت فكرة الانتماء إلى المواطن في صدر الإسلام وظهرت مصالح ترتبط بها القبائل جنب النسب. ولكن هذا التطور يمثل مرحلة متوسطة عنده، إذ إنَّ الأنساب تضعف تدريجياً بالتحضر والاختلاط وما يرافق ذلك من تحولات إلى أن ينتهي الأمر إلى وضع تفسد فيه الأنساب بالجملة. وهكذا يعطي ابن خلدون النسب أهميته ودوره في مراحل معينة من تاريخ العرب كرابطة للأمة، ولكنه يرى أن التطور الحضري والاختلاط يفضيان إلى تلاشي دوره.

ويولي ابن خلدون اللغة أهمية خاصة. فهو يأخذ بالمفاهيم المألوفة ابتداء، ليذكر أن العرب بائدة وعاربة ومستعربة وتابعة للعرب، ويفسر عروبة هذه الطبقات على أساس اللغة العربية. ويعيد في تفسيره لعروبة العرب المستعربة ما قاله الجاحظ، فهم أولاد إسماعيل، وهو من أبوين أعجميين، إلا أنَّه اتخذ العربية لغته ونشأ عليها ذريته فصاروا عرباً، وبذلك يعتبر اللغة أساس الانتساب للعروبة.

ولا يكتفي ابن خلدون بهذا. فهو يربط بين صفاء اللغة والبداوة، ولكنه بنظر المؤرخ يلاحظ أثر الإسلام وقيام الدولة على العربية، فهي لغة الدين ثم لغة الشريعة، وهي لسان القائمين بالدولة مما يسر لها الانتشار فسادت في أراضي الخلافة وطمست لغات الأمم الأخرى وصارت "لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية " كما يقول.

ولكن اللسان العربي فسد بالاختلاط بالأعاجم وتكونت لغة حضرية هي غير لغة البدو التي "كانت أعرق في العروبية". وزاد الأمر تعقيداً بانتقال الملك إلى العجم في المشرق والمغرب، وخاصة بعد تملك التتر والمغول (وهم غير مسلمين) بالمشرق، ففسدت العربية "على الإطلاق". ولعل هذا لا يصدق على لغة المخاطب. ولكنه يبين أن اللسان العربي كاد يذهب نتيجة هذه الأوضاع، ألا إن "عناية المسلمين بالكتاب والسنة حفظ اللسان العربي وصار ذلك مرجحاً لبقاء اللغة العربية". وهكذا تبقى اللغة العربية أساس العروبة.

وهكذا يستند ابن خلدون إلى التحليل التاريخي. فهو يرى أن العرب أمّة تتكون من شعوب وقبائل، ويلتفت إلى الصلة بين الأمة والدولة ويبين أن الدولة قد تكون محدودة أو تزول، ولكن الأمة باقية. ويبدأ ببيان أهمية البيئة الطبيعية في تقرير أنماط المعاش والأخلاق والسجايا. ويرى أن النسب – حقيقياً أو فرضياً – مهم للبدو والفلاحين، أي في الفترة الأولى، ولكن دوره يتلاشى في المجتمعات الحضرية. ولكنه يولي اللغة أهمية كبيرة باعتبارها الرابطة الأساسية للأمة، ويلاحظ أثر الإسلام والسلطان العربي في انتشارها وفي التعريب. ولكن اللغة تتعرض للتدهور بتأثير الاختلاط والعجمة، إلا أن العربية الفصحى تبقى بتأثير القرآن والسنة. كل هذا يفضي إلى أن اللغة هي الرابطة الأساسية في الأمة، كما أن الأمة هي الكيان الدائم.

---

1 - أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تصحيح نصر الهوريني (القاهرة: بولاق، 1272 هـ)، ج1، ص 25 و317.

2 - انظر: المصدر نفسه، ص 319 مثلاً.

3 -المصدر نفسه، ص 109.

- وينتظر بعد هذا أن يتمثل التطور في مفهوم العروبة في الشعر والنثر. ففي الشعر الجاهلي لا نكاد نجد إشارة إلى العرب. وترد الإشارة إليهم في الحوار الذي يروى أنّه حصل بين النعمان بن المنذر وكسرى. ويرد ذكر العرب في الحديث النبوي، والأساس فيه النسبة للغة العربية، وفي إشارات من فترة الراشدين، مثل قول عمر بن الخطاب: "والأعراب الذين هم أصل العرب ومادة الإسلام"(1). وقال أبو بكر يخاطب الأنصار في السقيفة: "ونحن مع ذلك أوسط العرب أنساباً، ليست قبيلة من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة"(2). وقال عمر يخاطب الأنصار: "والله لا ترضي العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم"(3).

وفي العصر الأموي ترد إشارات إلى العرب، بمفهوم النسب، بينما يشير الشعراء عادة إلى القبائل أو إلى عدنان وقحطان. ولكن إشارات قليلة تقرن العروبة باللغة.

وفي العصر العباسي، وخاصة من أواخر القرن الثاني للهجرة وأوائل القرن الثالث، تتكرر الإشارة إلى العرب مقابل العجم، وإلى العروبة بمدلول ثقافي أساسه اللغة. فابن قتيبة يعرب عن دور اللغة في قوله: "والدليل على أن أصل اللسان لليمن، أنهم يقال هم العرب العاربة ويقال لغيرهم العرب المتعربة، يراد الداخلة في العرب المتعلمة منهم"(4). وقال عبد الملك بن صالح العباسي، حين أخبر عن قتل الأبناء (أولاد الفرس) في الأعراب، "وا ذلآه، تستضام العرب في دارها ومحلها وبلادها"(5).

وفي رسائل بديع الزمان الهمداني حوار حول العرب والعجم وتفضيل للعرب وتأكيد لسجاياهم وفضائلهم(6).

---

1 -الطبري، تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج1، ص2775.

2 - انظر: "الإمامة والسياسة " تحقيق سعيد صالح (رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1978)، ج1، ص5، والطبري، المصدر نفسه، ج1، ص 1823.

3 -"الإمامة والسياسة" ج1، ص7.

4 -ابن قتيبة، رسائل البلغاء، ج1، ص 278و282.

5 -الطبري، تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص873.

6 - بديع الزمان الهمداني، كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان، تحقيق الشيخ إبراهيم الأحدب الطرابلسي (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1890) ص 279 وما يليها.

وأكد الزمخشري نسبة العروبة إلى العربية وقال دفاعاً عن العربية: "والله أحمد، على أن جعلني من علماء العربية وجبلني على الغضب للعرب والعصبية"، ثم أضاف "ولعل الذين يغضون من العربية

ويضعون من مقدارها ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها، حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتاب في عجم خلقه ولكن في عربه"(1).

ولاحظ البيروني (443 هـ / 1051 م)، كالزمخشري، صلة العروبة، وارتفاع شأنها به، فقال: "ديننا والدولة عربيان، وتوأمان، يرف على أحدهما القوة الإلهية، وعلى الآخر اليد السماوية"، ثم يبين أن العربية لغة الإسلام والثقافة فيقول: "وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت في الأفئدة..."، وبعد أن يذكر أن كل أمّة تستحلي لغتها، ميز العربية قائلاً: "والهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية، وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسي كيف ذهب رونقه... وزال الانتفاع به.." (2). ويتابع البيروني حديثه منكراً محاولات من أراد إحلال الفارسية محل العربية، فيقول :"وكم احتشد طوائف من التوابع وخاصة منهم الجيل والديلم (الإشارة للبويهيين) في إلباس الدولة جلابيب العجم فلم يتفق لهم في المراد سوق، وما دام الأذان يقرع آذانهم كل يوم خمساً وتقام الصلوات بالقرآن العربي المبين... ويخطب به لهم في الجوامع بالإصلاح كانوا لليدين وللفم وحبل الإسلام غير منفصم وحصنه غير منثلم").

وفي الشعر العباسي ترد إشارات إلى العرب وتذكر بمزاياهم ومجدهم. فكثيراً ما تغنى المتنبي بالعرب وأشاد بهم، فهو يقارن بين العروبة والعجمة في شعب بوان قائلاً:

ولكـــن الفتـــى العـربـــي فيـهـــا

غـــريــــب الـــوجــــه واليـــد واللســـان

ويشيد بشجاعة العرب:

تهـــاب سيـــوف الهنـــد وهي حدائد

فكيـف إذا كـانـت نـزاريـــة عـربـــا

ويقول متبرماً بتسلط الأعاجم:

وإنمـــا الـنـــاس بالـملـوك ومـــا

يـفلـــح عــــرب ملـــوكهـــم عجـــم

وهو يمدح سيف الدولة لأن انتصاراته للعرب:

رفعـت بـك العرب العمـاد وصيـرت

قـمـم الملـــوك مـــواقــد الـنيـــــران

أنـــساب فخـــــرهـم إليـك، وإنمـــا

أنـــساب أصـلهـــــم إلى عدنــــــان

ويخاطب أبو الفرج الببغاء سيف الدولة، ناظراً إلى العرب:

إذا العـرب لم تجـز اصطنـاع ملوكهـا

بشكر تنادت في سياسها العـجـم

---

1 -الزمخشري، المفصل في صنعة العرب.

2 -البيروني، كتاب الصيدنة، تحقيق الحكيم محمد سعيد ورانا إحسان إلهي، 2ج (كراتشي 1973)، ص12.

وتستمر الإشارة إلى العرب والاعتزاز بهم وبمزاياهم في الشعر عبر العصور. يقول سبط ابن التعاويذي (583 هـ / 1118 م):

يا ابنة القوم كيف ضــاعت عهــودي

فيكم والوفاء فـــي العـــرب ديـــن

ويقول الأمير أبو المرهف نصر النميري في مدح الوزير ابن هبيرة (ت 588):

أذكى الوغـى وتصـلاهـا بـمهجتــه

حتى أقـام عمـودي دولـــة (العــرب)

ويخاطب الوزير الذي شفي من مرضه:

فلتشـكــر النعمـة العليــا لذاك علـى

إحيـائـها (العرب العرباء) و(العجـم)

ويقول صفي الدين الحلي (ت 752 / 1351 م) :

سلـــي الرمـاح العـوالـي عن معـالينـا

واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا

ويقول بعد البرم بالظلم :

إليـــــك رســـــول الله أشكـو جرائمـاً

....

وغـالـب ظنـــي بـل يقينـــي أنـهــا

ستمحـــى وان جلــت وأنـت سفيــرهــا

لأني رأيت العـرب تخفر في العصـا

وتحمــي إذا مــا أمـهــا مــستجيــرهــا

ويقول محمد صالح الكواز إثر حادث كربلاء سنة 1842 :

أيمـلك أمـــر العـــرب من لا أبــا له

ولـــم ينـســه منـــهم نـــزار وخنـــدف

....

ومـــــا لبنــــي الأحــرار إلا ابن حـرة

يغـــار عليــهم أن يضــامــوا ويــأنــــف

- وقد انسحب هذا المفهوم للعروبة ولمزاياها إلى الإطار الشعبي، كما يتبين من القصص الشعبي مثل سيرة (أو تغريبة) بني هلال، وبعض قصص ألف ليلة وليلة. وفي ألف ليلة وليلة تمجيد للعروبة، وتبيان لمزايا العرب وسجاياهم، وتنويه بفتوحاتهم.

ومن المنتظر أن تكون الصلة وثيقة بين الإسلام والعروبة في الثقافة الشعبية وأن تبقى كذلك.

سلسلة التثقيف القومي

الجزء السادس: عروبة السودان ثقافياً

الخضر هارون

تقـديـم

سبق أن أشرنا في جزء آخر من سلسلة التثقيف القومي إلى عروبة وادي النيل منذ بدء التاريخ، وهي عروبة لا يخل بها احتلال أجنبي، كما لا يسقِط الاحتلال اليهودي لفلسطين عروبتها، وكما لم يلغِ الاحتلال الفرنسي على مدى قرن وثلث للجزائر عروبتها، ولا يشطب الاحتلال المزدوج للعراق عروبته...

وقد كان خط الهجرات العربية القديمة يمر تاريخياً من الحبشة والقرن الأفريقي صعوداً، كما كان يمر بالاتجاه المعاكس أحياناً من منفذ صحراء سيناء غرباً وجنوباً. باختصار، عروبة وادي النيل، بشراً وثقافةً ولغةً، على عكس ما يدعيه البعض اليوم، ليست طارئة، بل هي قديمة قدم التاريخ نفسه. ولم يأتِ العربُ مصرَ كغزاة، حسب مزاعم البعض، مع الفتوحات الإسلامية فحسب. بل جاءت الفتوحات استكمالاً لعروبة قديمة، ونفضاً لغبار الاحتلالات المتعاقبة عن تلك العروبة القديمة التي سبقت الإسلام ومهدت له، وأعطتنا، فيما أعطتنا إياه، اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم.

من المهم التنويه هنا أن العروبة ليست كياناً متحجراً جامداً، لأنها مرت بأطوار تاريخية مختلفة. فالعروبة السابقة للإسلام مثلاً هي قاعدة حركة العروبة المسلمة، التي تمثل من وجهة النظر القومية حركة تحرير ووحدة ونهضة في المحصلة الموضوعية.

كما أن المجال الحيوي للعروبة، من الناحية الجغرافية-السياسية، كان يتقلص في مراحل الهزائم والضعف وصعود القوى المنافسة إقليمياً ودولياً، والعكس بالعكس، فالأمم المتجاورة في نفس المجال الحيوي تقوى الواحدة منها على حساب الأخرى بالضرورة. ولهذا فمن المفهوم أن يزدهر الوجود العربي القديم في الحبشة أو تركيا وإيران - في غير المناطق العربية المحتلة حالياً في هذه الدول الثلاث - في مراحل تاريخية ما، ليعود ويخفت حتى يكاد يختفي وينقرض، ولتقوم تلك الأمم باحتلال مناطق عربية خالصة بعدها. والجغرافيا السياسية تبقى أساس المعادلة التي حكمت التنافس على حوض البحر المتوسط، كمركز للعالم القديم، وهي التي تفسر الصراع بين "الشرق" و"الغرب" القديم، قبل اكتشاف العالم الجديد، هذا الصراع الذي تمثل بسعي اليونان والرومان لاحتلال المشرق وجنوب المتوسط، كما تمثل بسعي البطل العربي هنيبعل لغزو إيطاليا عبر الأندلس وجبال الألب. وما كان ما فعله موسى بن نصير وطارق بن زياد من فتح للأندلس إلا استمراراً طبيعياً لما فعله البطل العربي الكنعاني هنيبعل.

وعلى أساس هذا الفهم التطوري الحي المتفاعل للعروبة، يمكن أن نقول أن التواجد العربي في السودان، خاصة على الضفة الغربية للبحر الأحمر، بدأ منذ العصور السحيقة، لكن السودان بالذات، الذي كان يسمى أثيوبيا مع جزء كبير من الحبشة الحالية، لم يستكمل عروبته مع مجيء الفتوحات الإسلامية، مع أن التواجد العربي في السودان، بمعانيه الديموغرافية والثقافية واللغوية، تصاعد فيه

مع القرن السابع الميلادي... إذن الوجود العربي في السودان قديم قدم التاريخ نفسه، أما الدولة العربية الأولى في السودان، مملكة سنار، فلم تتأسس حتى بداية القرن السادس عشر (عام 1504)، ومن هنا فإن التواجد العربي في السودان يتمتع بخاصية فريدة هي أنه مثّل نقطة تماس وتفاعل واندماج ثقافية مع أفريقيا بما يتجاوز حدود السودان بكثير، وهو ما اسماه خالد الذكر أبو خالد بالدائرة الأفريقية، في كتيب فلسفة الثورة، كإحدى الدوائر التي توجد وتتحرك الأمة العربية ضمنها.

وتختلف التعددية الثقافية السودانية، من هذه الناحية، عن التعددية في أقطار عربية أخرى، في أنها تمت مع أقوام غير عربية الأصول، بينما الأمازيغ إلى الغرب مثلاً، والأقباط إلى الشمال، ينتمون لعروبة أكثر قدماً، كما بينا في أجزاء أخرى من سلسلة التثقيف القومي، مما خلق الأرضية لاندماج ثقافي أكثر عمقاً يحاول البعض أن يفك عراه ويدمره اليوم. وبالتالي يمكن التحدث عن تعددية دينية في مصر مثلاً، على قاعدة الانتماء لوطن واحد وأمة عربية واحدة، أما الحديث عن تعددية ثقافية، فمشروع تفكيك بدون أدنى شك. كما أن الزعم أن الأمازيغ يمثلون عرقاً وقومية أخرى غير العرب هو جزء من مشروع التفكيك نفسه، ناهيك عن الحالات التي تتم فيها محاولة تفكيك المغرب العربي باصطناع هويات مفبركة، مثل الصحراء الغربية، صفتها الوحيدة أنها كانت محتلة من الاستعمار الإسباني، بينما هي تاريخياً وجغرافياً جزء من المغرب العربي.

وقد تمثلت عملية تعريب السودان خلال القرون الماضية، ليس فقط بتدفق الهجرات العربية، وبانتشار الإسلام، وتجذر العروبة في الأرض، بل بتحول العربية نفسها إلى لغة التخاطب المشتركة بين أهل جنوب السودان أنفسهم، حتى منع المستعمرون تدريس العربية في مدارس الجنوب. ومن المهم التركيز هنا أننا نتحدث عن عملية سلمية، غير عنيفة، بالأعم الأجمل، بعد محاولتين فاشلتين لفتح السودان في القرن السابع الميلادي، باستثناء بعض الصراعات القبلية التي كان يجري مثلها وأكثر ما بين القبائل الأفريقية نفسها. لكن عملية التعريب نفسها استغرقت قروناً طويلة ومتأنية، ولم تستند إلى جهد منظم من دولة وظفت جيشها ومؤسساتها مثلاً لتحقيق ذلك الغرض بالقوة أو بوسائل القسر والإجبار الأخرى التي تمتلكها دولة. كما أن التعريب في السودان، على عكس التغريب، لم يكن بلا جذور، بل استند إلى تفاعل ثقافي وسكاني أقدم من الإسلام بكثير.

وهكذا، ازداد وزن المكون العربي تدريجياً في معادلة التعددية الثقافية السودانية. ويمكن أن نقول أن التعريب كان سيتجاوز جنوب السودان ثقافياً باتجاه قلب القارة لولا أن الاستعمار وضع حداً له بدرجة كبيرة من النجاح منذ القرن التاسع عشر. وفي سياق هذا الهجوم المضاد، تُطرح كل عروبة السودان على بساط البحث اليوم، ويتقدم مشروع التفكيك، خاصةً حيث تكثر الثروات النفطية وغير النفطية، سواء في الجنوب غير المسلم، أو في غرب السودان المسلم الذي يتكون من خليط عرقي عربي وغير عربي.

وهنا لا بد من التذكير: 1) أن مشروع تفكيك السودان يعكس حالة التراجع العام التي تعيشها الأمة، ولا يمكن فصله عن مشروع تفكيك المنطقة وإخضاعها، وبالأخص، لا يمكن فصله عن مشروع تفكيك مصر، 2) أن تفاقم نزعات التشرذم والانفصال والتشظي في السودان وغيره، يعكس فيما يعكسه أزمة الدولة القطرية العربية وفشل أنظمة التجزئة في التصدي للتهديدات المتزايدة للأمن القومي العربي، أو حتى لمشاكل المواطن العربي اليومية، 3) أن غياب مشروع قومي عربي صاعد ومناهض للإمبريالية هو الذي خلق الفراغ لتقدم المشروع المعادي، ولصعود قوى أخرى في المنطقة لها فينا أطماع حتى وهي تنافس الطرف الأمريكي-الصهيوني علينا، 4) أن إخفاق الدولة

المصرية في لعب دور إقليمي فعال بسبب ارتباطها بالطرف الأمريكي-الصهيوني هو من أهم العوامل في نجاح مشروع تفكيك السودان، مما يهدد الأمن القومي العربي برمته، وأمن مصر بالذات، سياسياً ومائياً.

حديثنا هنا عن تعددية ثقافية في السودان ليس دعوة للانفصال طبعاً، وليس اعترافاً بمشروعية الانفصال. على العكس، عندما يصبح الحديث عن التعددية ذريعةً للتفكيك، وللتدخل الأجنبي، ولخلق جيوب متواطئة مع الأجنبي لسرقة الثروات والهيمنة على الأرض والإنسان، فإن واجب كل أبناء الأمة المخلصين يصبح التركيز على القاسم المشترك، على ما يوحد، وليس على ما يفرق. كما أن "التعددية الثقافية" لا تتحول إلى دعاوى انفصالية ذات شأن إلا عند وجود قوى إقليمية ودولية صاحبة مصلحة في التفكيك، ولو كانت التعددية الثقافية ذريعة كافية للانفصال، لتم تفكيك الولايات المتحدة نفسها، وكثيرٍ من الدول الأوروبية إلى شذرات، ناهيك عن الدول المتكونة من عدة قوميات، مثل سويسرا أو كنداً أو بلجيكا. أما حيث تجد القوى الإمبريالية مصلحة لها في تفكيك بلدٍ ما، من روسيا إلى يوغوسلافيا السابقة إلى الدول العربية، فإن الحديث عن التعددية، بمعانيها الثقافية أو العرقية أو القومية، يصب مباشرة في طاحونة قوى الهيمنة الخارجية، ولا يعود برنامجاً ديمقراطياً أو تقدمياً بأي مقياس من المقاييس.

في السودان، وفي غيره، من حقنا أن نطالب الدولة باستحقاقات المواطنة، وبضرورة مكافحة سوء الإدارة أو الفساد، وبتنمية الأقاليم، والعمل على حل المشاكل الأساسية للناس، ولكن على قاعدة تقوية الدولة، لا على قاعدة إضعافها. فعندما نواجه مشروعاً للتفكيك، يصبح إضعاف الدولة المركزية، ولو كانت دولة قطرية عربية مأزومة أصلاً، تآمراً على الوطن والأمة كلها، لا على هذا القطر العربي أو ذاك فحسب. والسودان ليس الدولة الوحيدة في العالم الذي توجد فيه أقلية عرقية أو ثقافية.

عموماً، للمشككين بعروبة السودان، وللحريصين على وحدته وعروبته، وبمناسبة انفصال جنوب السودان، وتصاعد الحركات الانفصالية في البلاد، نقدم فيما يلي ورقة غنية جداً للكاتب والدبلوماسي السوداني الخضر هارون عن عروبة السودان ثقافياً.

محاضرة الخضر هارون/سفير السودان في واشنطن في مركز الحوار العربي - 28 أغسطس/آب 2005 عن الثقافة العربية في السودان

يلزم في البدء أن نعمد إلى تعريف ما نرمي إليه من كلمة (ثقافة) الواردة في عنوان هذه المحاضرة قبل الخوض في غمار موضوع الثقافة العربية في السودان ذلك لأن كلمة ثقافة حمالة وجوه ومفاهيم يعتريها بعض الاختلاف والتعارض في ميادين العلوم الاجتماعية فضلا عن كون الترجمة إلى العربية قد أسهمت ولا زالت تسهم في إضفاء المزيد من اللبس والغموض عليها. ونشير للتدليل على ذلك إشارة عابرة إلى كلمة مثقف حيث تعد في أغلب الترجمات المقابل العربي لكلمة (intellectual) الإنجليزية بينما تحتمل الكلمة الإنجليزية معانيَ أوسع مثل كلمة (مفكر) مثلا.

والتعريف الذي ألتزمُ به في هذه المحاضرة لكلمة ثقافة والذي أجده جديرا بأن يكون وعاء يتسع للجوانب المختلفة في موضوع هذه المحاضرة هو تعريف الأنثربولوجي البريطاني المعروف.Sir Edward Burnett Tylor، وهو مؤسس "علم الإنسان" أو الأنثربولوجي كعلم أكاديمي يدرس في الجامعات في العالم الناطق بالإنجليزية، حسب الأنثربولوجي الأمريكي مارفن هاريس. يقول

التعريف اختصارا إن الثقافة هي " كل ضروب السلوك الإنساني المكتسب" وتفصيلا هي: " ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة، المعتقد، الفنون، الأخلاق والقوانين والأعراف والقدرات الأخرى والعادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في مجتمع".

في ضوء هذا التعريف سأتناول تأثيرات الثقافة العربية في السودان في مفهوم الدولة وفي المعتقدات والتقاليد والأعراف والفنون والمعارف على النحو الوارد في التعريف المشار إليه آنفا. ونريد بالثقافة هنا مقابل الكلمة الإنجليزية culture)) حيث إنَّ الكلمة العربية لم تكتسب هذا المعنى إلا في العصر الحديث إذ كانت تعني في الماضي العمل بالسيف أي الخصام والجلاد كما قال صاحب اللسان، ويقيني أنكم على علم ببيتي عنترة:

ومدجج كره الكماة نزاله

لا ممعن هربا ولا مستسلم

جادت له كفي بعاجل طعنة

بمثقف صدق الكعوب مقوم

وتثقيف السيف تسويته من اعوجاج

بمثقف صدق الكعوب مقوم

ولكن قبل الغوص في لجج ذلك قد يثير العنوان "الثقافة العربية في السودان" بعض تساؤلات وأرجو ألا يثير حساسيات مردها كون السودان في قلب إفريقيا تماما من حيث الجغرافيا، وللمكان بما يحمل من مناخ وطقس وتضاريس وحياة برية دور في تشكيل الثقافة وتعديلها أيضا وهذه الحقيقة تفضي إلى حقيقة أخرى هي أن الثقافة العربية وغيرها من الثقافات الوافدة قديما وحديثا على السودان قد شوتها بالحرارات الشموس فصارت ثقافة سودانية. التسليم بذلك أدخل في باب المصالحات السياسية بل وفي التدابير اللازمة لبناء دولة عصرية تضم مختلف الأعراق والمعتقدات. وليس فيما سيأتي تحت عنوان هذه المحاضرة معارضة للمصالحات أو التدابير الضرورية لها لكن المبحث سوف ينصب على تاريخ دخول الثقافة العربية إلى السودان وتأثيرها عبر القرون على الثقافات التي كانت سائدة فيه خاصة وأن تلك الثقافة لم تفد إلى السودان بحد السيف وإنما دخلت سلما وتغلغلت في ربوع السودان المختلفة وفي ثقافاته العديدة طوعا لا كرها سيّما والخرطوم عاصمة السودان قد زفت في مطلع العام الميلادي خمسة وألفين عاصمة للثقافة العربية يتنادى إليها أهل الفنون والموسيقى والفكر والأدب من سائر أنحاء الوطن العربي على نحو ما فعلوا قبل آلاف السنين في أسواق عكاظ وذي المجاز وغيرها يتبارون في عرصاتها شعرا وغناء وفكرا يستعينون به على عاديات العولمة والاستهداف الثقافي والحضاري المحدق بساحاتهم. فلماذا سرت الثقافة العربية في يسر وسماحة في أوصال الجسم الثقافي للسودان رغم أن السودان لم يكن خلاء بلا حضارة أو ثقافة بل كان إحدى مناراتها المضيئة في وادي النيل ولمدى زمني بلغ زهاء تسعة إلى عشرة آلاف عام؟ هذا السؤال سيقودنا إلى محاولة سبر أغوار العلاقة الأزلية بين ضفتي بحر القلزم، البحر الأحمر. أي بين إفريقيا والجزيرة العربية. هل يسرت العلاقة التاريخية الضاربة في القدم بين الضفتين من انسياب الثقافة العربية دون عناء إلى هذا الجزء من إفريقيا؟

يتوسع البروفسور علي مزروعي في شرح هذه العلاقة بين الجزيرة العربية موطن الثقافة العربية وبين إفريقيا متسائلا ومشككا في موضوعية الاعتبارات التي جعلت البحر الأحمر حدا جغرافيا فاصلا بين إفريقيا وآسيا ملحقة جزيرة العرب بالقارة الآسيوية. ويتساءل في سفره القيم المصاحب لسلسلة حلقات برنامجه التلفزيوني الوثائقي الذي بثته القناة العمومية الأمريكية قبل نحو ثمانية عشر عاما تحت عنوان " الأفارقة: تراث ثلاثي الأضلاع " "The Africans"، "a Triple Heritage".

كيف اعتبرت مورشياص التي تبعد ألف ميل عن الساحل الإفريقي ومدغشقر التي تبعد خمسمائة أجزاء من القارة الإفريقية بينما اعتبرت عدن التي تقع حسب تعبيره على مرمى حجر من سواحل الصومال عبر باب المندب جزءًا من قارة أخرى هي آسيا؟ وقبل أن ينطلق من الجغرافيا إلى التاريخ الذي ربط الضفتين بأوثق رباط يورد ما أشار إليه بول بونان في كتابه " African Outline" الذي أشار فيه إلى أنه حتى من الناحية الجيولوجية البحتة فإن الجزيرة العربية والقارة الإفريقية لا تنفصلان. يشهد على ذلك تأثرهما بظاهرة جيولوجية واحدة هي الأخدود الإفريقي العظيم الممتد من هضبة الأناضول في تركيا عبر البحر الميت في وادي الأردن حتى بحيرة رودلف في كينيا. أما بالنسبة للقرابة التاريخية والثقافية بل والعرقية فيشير متسائلا من يكون الأمهر في إثيوبيا إن لم يكونوا من سلالة تحدرت من جنوب الجزيرة العربية وهو ما تشير إليه أيضا المصادر العربية بأنهم من سلالة قبيلة عربية تسمى حبشات؟ ثم يتساءل مجددا ماذا تكون اللغة الأمهرية إن لم تكن فرعا من فروع اللغات الأفرو-آسيوية؟

ونشير بدورنا إلى ما جاء في العهد القديم من إشارات إلى مملكة كوش وأنَّ موسى عليه السلام قد تزوج بكوشية وأن هاجر أم إسماعيل وزوج إبراهيم الخليل من تلك المنطقة أيضا وما سمعته من أن دمشق الاسم الذي تحمله عاصمة سورية الشقيقة وأقدم مدينة في التاريخ إنما هو اسم لخادم من الحبشة كان في خدمة سيدنا إبراهيم عليه السلام وإلى المعتقدات الإثيوبية المعاصرة بأن بلقيس ملكة سبأ كانت ملكة إثيوبية تزوجها سليمان عليه السلام وأنجب منها (منلك) جد الإمبراطور السابق هيلاسيلاسي الذي كان يلقب نفسه بأسد يهوذا في إشارة إلى تلك النسبة. ويعتقد كثير من المسيحيين أن الألواح المقدسة التي أوحيت إلى موسى تضمها إحدى كنائس منطقة أكسوم في إثيوبيا حيث يحج إليها آلاف المتدينين كل عام من كافة أنحاء الدنيا. ونشير هنا أيضا إلى أن ملك إثيوبيا" كالب" أو ربما "غالب" أو "كليب" المسيحي الديانة قد جرد جيشا لنصرة الأقلية المسيحية في اليمن التي تعرضت للتعذيب على يدي الملك الحميري الذي كان يعتنق الديانة اليهودية فيما يعرف بقصة أصحاب الأخدود حوالي عام 525 ميلادية بقيادة أبرهة الأشرم الذي استقل بملك اليمن حتى خلعه الفرس واستولوا على اليمن. وفي المقابل فقد أهدت اليمن لإفريقيا اسم أحد ملوكها ليصبح اسما للقارة وقد أطلق بادئ ذي بد على تونس التي ظلت تحتفظ به إلى ما بعد الفتح الإسلامي.

ويرى عدد من المؤرخين وعلماء الأجناس أن علاقات التصاهر بين شعوب المنطقتين قد بدأت قبل ظهور الإسلام ويرون أن البجا في شرق السودان والماساي في شرق إفريقيا من نتاج تزاوج عربي إفريقي. ويورد الدكتور فرنسيس دينق في كتابه "أفارقة عالمين" آراء للأنثربولوجي البريطاني المعروف السير إدوارد إيفانس بريتشارد وللقس الباحث في الشأن السوداني جون سبنسر تريمنغهام وسيلغمان تفيد بأن القبائل النيلية في جنوب السودان وهي الدينكا والنوير والشلك تحمل دماء قوقازية وحامية لذلك تعد متزنجة وليست زنجية. ويشير فرنسيس دينق في المصدر ذاته إلى عمق تأثر عقائد هذه القبائل بما جاء في الديانات السماوية الثلاث الوافدة من "الشرق الأوسط" (نتحفظ على

هذا التعبير الاستعماري الذي يكرس المركزية الأوروبية، فنحن لا نقول الغرب الأوسط والغرب الأقصى للإشارة لأوروبا وأمريكا – إ. ع)، وهي الإسلام والمسيحية واليهودية.

ويجدر بنا ونحن نتحدث عن التأثير المتبادل للمنطقتين على بعضهما البعض أن نشير إلى أثر إفريقيا ليس على "الشرق الأوسط" وحده عبر وقوع منطقة الشام بأسرها تحت حكم الفراعنة بل إلى أثر حضارة وادي النيل على اليونان القديمة إذ ثبت أن أفلاطون وأرسطو وأبو الفلسفة سقراط قد تتلمذوا على قدماء المصريين في مجالات الفلسفة والرياضيات الأمر الذي جعل الباحث البريطاني (مارتن بيرنال يؤلف سفرا قيما قبل نحو عقدين من الزمان أطلق عليه (أثينا السوداء...) أو Black Athena by Martin Bernal.

وبعد هذا الاستطراد نشير مجددا إلى كتاب البروفسور علي مزروعي آنف الذكر حيث وصف الثقافة الإفريقية المعاصرة بأنها نتاج تراث ثلاثي يتكون من الإسلام وبالطبع ما حمله من سمات عربية، والإرث الإفريقي المحلي (indigenous)، ثالثا الميراث الغربي المسيحي الذي جاء به الاستعمار الأوروبي إلى القارة، وهذا الأثر يظهر جليا في اللغات الكبرى السائدة في إفريقيا اليوم وهي العربية في الشمال والإنجليزية والفرنسية في مناطق أخرى بالإضافة إلى السواحيلية التي هي نتاج تلاقح بين العربية ولغات البانتو والبرتغالية وغيرها تشكل العربية فيها نحوا من ستين بالمائة وكذلك لغات الهوسا والفلاني في غرب إفريقيا المتأثرة باللغة العربية. هذه الحقيقة تجعل الثقافة العربية ليست وافدا أجنبيا على القارة بل واحدة من مكوناتها الثقافية.

ونسلط الضوء بعد هذه المقدمة على صلة السودان تحديدا بالعالم القديم المتمثل في جنوب أوروبا و"الشرق الأوسط" منذ سحيق الأزمان إلى بداية تدفق الهجرات العربية إليه خاصة بعد انتشار الإسلام. ونشير في عجالة إلى أن الإغريق والرومان من بعدهم قد أطلقوا على السودان اسم إثيوبيا ومعناها "أصحاب الوجوه المحروقة" ورغم أن الإغريق أطلقوا على جيرانهم من القبائل الأوروبية في الشمال أقذع النعوت فأسموهم البرابرة إلا أن هوميروس أطلق على النوبة أفضل الألقاب وكذلك ديودورس. قال هوميروس: "إنهم أبعد الأمم مكانا وأكثرها عدلا وأقربها مكانة وقبولا لدى الإله" وللمزيد يمكن الرجوع لكتاب ويليام آدمز "النوبة المعبر إلى إفريقيا" Nubia Corridor to Africa by William Y. Adams.

وقد ورد اسم إثيوبيا التي تشمل السودان الحالي وجزء من أكسوم في بلاد الحبشة زهاء ثمانية وثلاثين مرة في العهد القديم. وقد أرسل الإمبراطور البيزنطي جستنيان وزوجته ثيودورا الرسل لإدخال المسيحية إلى السودان عام 534 ميلادية وقد كان لهما ما أرادا ولا تزال الآثار الرومانية شاخصة حتى اليوم في مناطق كرمة في شمال السودان وما يسمى بالكشك الروماني في مناطق المصورات الصفراء ليس بعيدا عن الخرطوم.

أما عن صلة السودان بالجزيرة العربية فيشير الطبري في تاريخه إلى أن العرب كانوا يعيشون منذ القدم على ضفتي بحر القلزم. ويشير الجغرافيون العرب القدماء إلى أن عشائر من حضرموت في اليمن قد اختلطت بقبائل البجا في شرق السودان قبل ظهور الإسلام مكونة ما عرف بالحداربة ومفردها حد ربى ولعلها تصحيف لكلمة حضرمي وقد احتفظوا بلغتهم البجاوية حيث وصفهم المادح السوداني حاج الماحي قبل نحو مائة وخمسين عاما في وصفه لمشاهداته في رحلة الحج إلى الأراضي المقدسة في قصيدة بعنوان "أب جاها حوانا":

ننزل في سواكن لينا شانا

ومن سوق الحداربة أهل الرطانة

اتشهلنا من بيعنا وشرانا

كذلك عبرت مجموعة صغيرة من قبيلة هوازن البحر الأحمر إلى شرق السودان حيث استقرت في منطقة جبال التاكا واختلطت بقبائل البجا وتعرف اليوم بقبيلة الحلنقة.

وقد أشار الرحالة العربي ابن حوقل إلى أنه وجد عربا سودا في منطقة القضارف في شرق السودان.

لكن التاريخ الحقيقي للتغلغل العربي في السودان بدأ بحملة والى مصر الذي خلف عمرو بن العاص وهو عبدا لله بن سعد بن أبي السرح وهو من أقرباء الخليفة الثالث عثمان بن عفان وأخوه في الرضاعة فقد جرد حملة فيسنة 641 م لفتح بلاد النوبة المسيحية فلم تنجح الحملة في مسعاها لإخضاعهم بل تكبد المسلمون فيها خسائر مقدرة من رماة الرماح الذي أطلق عليهم العرب اسم "رماة الحدق" لمهارتهم في إصابة أهدافهم بما في ذلك عيون أعدائهم. وكرر ابن أبي السرح المحاولة بعد سنوات دون نجاح وأخيرا لجأ إلى مصالحة النوبة عبر معاهدة سميت معاهدة "البقط" ولعلها أطول معاهدة في التاريخ إذ ظلت نافذة على مدى ستة قرون. وفتحت هذه المعاهدة الباب لتدفق العرب المسلمين على بلاد النوبة في تؤدة وأناة بادئ الأمر وشكلت هذه المعاهدة مع معاهدة أخرى أبرمت عام 855 م مع قبائل البجا في شرق السودان وتلال البحر الأحمر أهم معلمين لبداية انتشار الوجود العربي والثقافة العربية في السودان وقد فتحت معاهدة المسلمين مع البجا في العام المذكور أول ما فتحت أرض البجا لتدفقات عربية كبيرة بدأتها قبيلة ربيعة التي كانت تعيش في نجد تنقيبا عن الذهب في منطقة وادي العلاقي في المنطقة الممتدة بين ميناء عيذاب وأسوان وبلاد النوبة ومنذ ذلك الحين احتدمت صراعات مريرة بين القبائل العربية المهاجرة المتنافسة على الثروة والملك في المنطقة وبين البجا والنوبة من جانب آخر وللاستزادة يرجع للمقريزي وفي كتاب المؤرخ السوداني ضرار صالح ضرار "هجرة القبائل العربية إلى وادي النيل مصر والسودان" توثيق جيد لذلك.

أما بالنسبة للتدفقات العربية إلى بلاد النوبة وبأعداد مقدرة فقد بدأت بوصول الخليفة العباسي المعتصم إلى الملك في بغداد ووصول أحمد بن طولون واليا على مصر 868 م كأول وال مسلم غير عربي حيث قام الخليفة المعتصم والذي كانت أمه من أصول تركية باستبدال الكتائب العربية في مصر بأخرى من المماليك والأتراك كما قام بقطع الأعطيات التي كانت تصرف من بيت المال على الجند العرب الذين منعوا منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب من الاشتغال بغير الجندية حفاظا على انضباطهم وجاهزيتهم العسكرية فكونوا طبقة حاكمة مميزة في مصر انحصر وجودها في أروقة الحكم وفي الحاميات والحصون العسكرية فظلت على بداوتها وتقاليدها العربية. وصحب قطع الأعطيات تضييق على الوجود العربي في مصر كان سببا في تدفق الهجرات العربية إلى بلاد البربر في الغرب وإلى بلاد النوبة في السودان. (للاستزادة أيضا راجع صفحة 160 من كتاب هارولد ماكمايكل (تاريخ العرب في السودان).

ومع تكاثر الوجود العربي وانتشار الإسلام تساقطت ممالك النوبة المسيحية الثلاث الواحدة تلو الأخرى ومع تزايد التصاهر بين العرب والنوبة انتشرت اللغة العربية. ويرجح ابن خلدون أن

العرب استفادوا من تقاليد النوبة في توريث الملك لأبناء الأخوات فتزوجوا أخوات الملوك حتى انتهى الملك إلى أبناء العرب من النوبيات فزاد ذلك من وتيرة التعريب في البلاد. وانتهت عمليات التصاهر بقيام أول دولة عربية إسلامية في السودان عام 1504 م أي قبل زهاء خمسمائة عام من يومنا هذا وهي مملكة سنار وتسمى أيضا دولة الفونج أو السلطنة الزرقاء وعرف رعاياها في المنطقة بالسنانير. قال المادح حاج الماحي يصف ترحاب أهل الحجاز بحجاج السودان على أيامه في قصيدة معروفة "احبو من صغير" :

قالو لنا حباب السنانير!

وأقام سلاطين مملكة سنار رواق السنارية في الأزهر الشريف في القاهرة حيث كانوا يبتعثون طلبة العلم إلى هناك وحثوا عددا من علماء الدين والمتصوفة من شتى بقاع العالم الإسلامي للمجيء للسودان بغرض الدعوة ونشر العلم. وأنشأ السلطان بادي الأحمر وقفا في المدينة المنورة لاستقبال الزوار من مملكته للإقامة المجانية هناك أثناء زيارتهم للحرم المدني، لا يزال جزء من أوقاف السودان هناك، وحذا حذوه بعد عقود السلطان علي دينار سلطان مملكة الفور. وفي هذه الفترة انتشرت الكتاتيب التي تعرف بالخلاوى في السودان لتحفيظ القرآن وعلوم العربية ومبادئ الحساب.

وتبع قيام هذه الدولة سلطنات إسلامية عديدة في المنطقة أسهمت بقدر واسع في انتشار اللغة والثقافة العربية في أجزاء واسعة من إفريقيا فأسس الجيلي أبو جريدة وهو من مناطق الجعليين في شمال السودان، مملكة تقلى العباسية في جبال النوبة وسليمان صولون (أي العربي) وهو حفيد أبو زيد الهلالي مملكة الفور التي استمرت حتى عام 1916 والتي كانت ترسل الكسوة للكعبة في مكة كذلك أسس رابح فضل الله السوداني مملكة امتدت في مناطق من تشاد والكميرون والنيجر وأطلق على عاصمتها اسم انجمينا وهى كلمة عربية معناها استرحنا مشتقة من الجمام. يقول أبو الطيب المتنبي:

يقول لي الطبيب أكلت شيئا

وداؤك في شرابك والطعام

وما في طبه أني جواد

أضر بجسمه طول الجمام

ومع سقوط دولة غرناطة في الأندلس كآخر معقل للعرب والمسلمين في الأندلس في عام 1492 حتى بدأت تدفقات جديدة من العرب المسلمين من تلك الأنحاء على السودان تشهد على ذلك عشرات القرى في منطقة الجزيرة والنيل الأبيض وولاية الخرطوم التي تنسب تلك القرى إلى المغاربة بالإضافة إلى العشائر التي وفدت من موريتانيا إلى ذات المناطق وإلى كردفان ويطلق عليهم اسم الشناقيط نسبة إلى مدينة شنقيط التاريخية هناك أو "المشايخة". ويشهد على ذلك الخط المغربي المميز في نواحي كردفان ودارفور وهناك المذهب المالكي الذي وفد على السودان من نواحي المغرب العربي الكبير بينما يسود المذهب الشافعي في الجارة مصر والمذهب الحنبلي في السعودية وهى جارة للسودان عبر البحر الأحمر وكذلك لفظة "مسيد" التي تطلق على المدارس الدينية والخلاوى الكبيرة والمستخدمة حتى اليوم في المغرب العربي كمرادف لكلمة مدرسة.

وتنتشر رواية ورش عن عاصم كإحدى روايات القرآن الكريم في أجزاء واسعة من غرب السودان وأغلب الظن أنها وفدت مع الهجرات التي ذكرنا. وهناك تنتشر الطريقة التيجانية القادمة أصلا من

منطقة عين ماضي في غرب الجزائر والتي انتشرت بعد هجرة مؤسسها الشيخ أحمد التيجاني إلى فاس في المغرب الأقصى. أما رواية القرآن السائدة في أنحاء السودان الأخرى فهي رواية أبي عمرو الدوري ولا توجد اليوم في غير السودان. وعن خصائص العامية السودانية فقد ألفت كتابا تجرى طباعته الآن تحت عنوان "أشتات مجتمعات في الفصحى والعامية" وقد وجدت أنها تنتسب إلى كافة لهجات العرب المعروفة مشرقا ومغربا يغلب عليها طابع البداوة ومفردات الأبالة وقد حوت العديد من الألفاظ المحلية دون أنْ تفقد خصائصها كلهجة من لهجات العرب كما حوت ألفاظا تركية جاءت مع حكم أسرة محمد علي باشا للبلاد عام 1821.

وألف مؤخرا الباحث السوداني إبراهيم إسحاق إبراهيم مؤلفا عن صلة اللهجات المحلية في أقاليم دارفور باللهجات القديمة التي كانت سائدة في اليمن كاللغة الحميرية، وهذا دليل آخر على عمق وقدم الثقافة العربية في السودان حتى قبل انتشار الإسلام. ومن الجدير بالملاحظة أن المسعودي أشار إلى ملوك النوبة في عصر الممالك المسيحية أكدوا له أنهم ينحدرون من أصول حميرية.

كذلك تدفقت هجرات واسعة بعد ذلك على السودان قوامها الهلاليون وقبائل جهينة اليمنية استقرت في سهوب البطانة في وسط السودان والجزيرة وكردفان ودارفور حتى بلغت نواحي تشاد بينما تنسب القبائل التي تتحدث العربية دون غيرها في المنطقة الممتدة شمال الخرطوم إلى العرب العدنانية. هذا فضلا عن هجرات قبيلة الرشايدة من الجزيرة العربية قبل أقل من قرنين من الزمان ويبلغ تعدادهم اليوم قرابة نصف المليون نسمة.

وعن الموسيقى والغناء فقد تأثرت بالإيقاعات الإفريقية الصاخبة في بعض المناطق كما أن الطرق الصوفية قد وظفت هذه الإيقاعات في مجالات الدعوة عبر دقات الطبول والرقصات، وهذا أثر إفريقي بلا جدال كما يقول البريطاني جون سبنسر تريمنغهام. ويغلب على الموسيقى السودانية السلم الخماسي السائد في تخوم الصحراء الكبرى من موريتانيا وحتى الصومال ويمتد تأثير السلم الخماسي إلى ما وراء القارة الإفريقية إلى شبه الجزيرة الهندية والصين واليابان وتجد الموسيقى السودانية في حزام الصحراء الذي ذكرنا رواجاً منقطع النظير بينما لا تجد آذانا تطرب لها في ربوع الوطن العربي الكبير حيث تسود الموسيقى الشرقية والسلم السباعي الذي لا يوجد في السودان إلا لدى عرب كردفان ودارفور حيث الغناء عندهم مشابه للغناء التقليدي في الخليج العربي واليمن، قال عنه الباحث اليمني نزار غانم أنه مطابق في جرسه ومضامينه للغناء في اليمن ودونكم غناء الأستاذ عبد القادر سالم في أغانيه التراثية مثل "حلوة يا بسامة" وبعض غناء عمر احساس. ومن الآلات السائدة في شمال وشرق وجنوب السودان آلة الطنبور وهو آلة وجدت على النقوش الفرعونية القديمة وتستخدم الدفوف في أقصى الشمال مصاحبة للغناء بينما يقتصر استخدامها في مناطق السودان الأخرى على المدائح النبوية. أما الطبخ السوداني فهو في الغالب إفريقي في الأرياف مع مؤثرات عربية بدوية خاصة لدى الرعاة. أما المطبخ في المراكز الحضرية فهو بفعل الأثر التركي شديد الشبه بالمطبخ "الشرق أوسطي" (ما يسمى مطبخاً تركياً هو في الأساس مطبخ شامي، إذ إنّ القبائل التركية لم تكن قد أسست حضارة مستقرة يعتد بها قبل الإسلام، على عكس الفرس في الشرق. وقد أطلقت تسمية المطبخ التركي على الأكل العربي، والقهوة التركية على القهوة العربية، وأصل نبتتها يمني، خلال الاحتلال العثماني من قبل الأوروبيين – إ. ع).

وأعادت الثقافة العربية ما سبق أن أنتجته في جزيرة العرب، ففي الشعر انتشر شعر الدوبيت ومعناه من الفارسية بيتين بيتين وهو شعر عبارته عامية شبيه بالزجل في لبنان والشعر النبطي في الجزيرة

العربية. وأسوق الحديث التالي للشاعر السوداني الكبير عبد الله الشيخ البشير نقلا عن كتاب الأستاذ فرح عيسى محمد "فيض الذاكرة"، يروي الشاعر عبدا لله الشيخ البشير أنّه عمل معلماً في نجد في المملكة العربية السعودية يقول: "حصلت ألفة بيني وبينهم وجدت أنهم يشابهوننا في الكثير، بدأت أحفظ شعرهم العامي وهو يشبه شعر الدوبيت وإنْ كان يختلف في الوزن، صرت ألقي على الطلاب شيئا من الدوبيت فيحفظونه مثل الذي أرسل إلى أهله مع الطير:

يا طير إن مشيت سلم على الأمات

وقوليهن وليدكن في الحياة ما مات

الدار عيشت جابت تلات سلقات

المرة حلقت وجمله البسافر مات

بعد شرح الأبيات حفظوها وبثوها في نجد كلها. كذلك وجدت شبها في الأحاجي مثل حجوة " أم ضبيبينة" الحجوة التي لا تنتهي أبدا يسمونها "حجوة الذباب". ولهم ألعاب تتطابق مع ألعابنا تماما وقد لاحظت نبتة نحن نسميها في الشمال "الجتية" لما سألتهم عنها قالوا "الجثية".

ونقلوا عن العرب وشم الشفاه واللثة عند النساء حتى يظهر ذلك بياض الأسنان. قال طرفة بن العبد في معلقته يصف جمال محبوبته:

وتبسم عن ألمى كأن منورا

تخلل حر الرمل دعص له ند

سقته إياة الشمس إلا لثاته

أسف ولم تكمد عليه بإثمد

وانتشرت بين رعاة الإبل منهم ظاهرة سرقة الإبل كنوع من أنواع الفروسية وعرف أولئك لدى العرب الأقدمين بالصعاليك منهم عمرو بن معد كرب وكان بينهم شعراء فحول سمي هؤلاء في السودان بالهمباتة والظاهرة بالهمبتة ومن شعرائهم الطيب ود الضحوية.

وهكذا وعلى مدى قرنين أو ثلاثة شكل السودان منطقة جاذبة تدفق نحوها عشائر عربية من أجزاء الوطن العربي الكبير، الأمر الذي عمق غراس الثقافة واللغة العربية في أرضه ورغم أن الظروف المناخية في جنوب السودان قد حالت دون تدفقات كبيرة للقبائل العربية إلى هناك إلا أن الثقافة العربية قد تمكنت من الانتشار هناك لغةً وسماتٍ إلى درجة أصبحت فيها اللغة العربية منذ القرن التاسع عشر هي اللغة المشتركة بين قبائل الجنوب أو ما يعرف بـLingua franca لأكثر من مائة لهجة محلية ولغة ويعلق الدكتور فرنسيس دينق في كتابه المشار إليه آنفا إلى أنه وبعد أن اعتمدت الإدارة البريطانية المستعمرة سياسات محاربة التعريب والأسلمة في الجنوب كان مما يسترعي الاهتمام أن العربية ظلت هي لغة التخاطب المشتركة بين قبائل الجنوب خاصة في المراكز الحضرية وما ظهور ما يعرف بعربي جوبا إلا أبلغ دليل على ذلك. يقول جون سبنسر ترمينغهام في كتابه "التناول المسيحي للإسلام في السودان" أنه قبل وصول الاستعمار كانت أسواق الجنوب في مدن واو وغيرها قد أصبحت مثل أسواق الشمال تماما ويشيد بقرار الإدارة البريطانية تنفيذ قرارات مؤتمر الرجاف عام 1928 التي قضت بمنع تدريس اللغة العربية في مدارس الجنوب قائلا إنّه لولا

ذلك لما وقف عائقٌ في وجه انتشار الإسلام في إفريقيا! علما بأن الإدارة البريطانية قد أغلقت الجنوب على مدى ثلاثين عاما في وجه الشماليين عبر قانون المناطق المغلقة الذي ضم جبال النوبة وأجزاء من دارفور وجنوب النيل الأزرق وصل حد طردهم من الجنوب واستبدالهم بالطليان واليونانيين ومنع الجنوبيين من لباس الجلباب والطاقية وتسمية أبنائهم بالأسماء العربية.

ومثلت فترة الحكم التركي منذ عام 1821 وحتى قيام الثورة المهدية وانتصارها في 1885 بداية ارتباط وثيق بين الثقافة العربية في مصر ونظيرتها في السودان ذلك أن العهد التركي (المقصود طبعاً عهد محمد علي باشا وذريته، رائد النهضة العربية الحديثة – إ. ع) أقام عددا من المدارس العصرية في السودان أرسل إليها أعلاما في تاريخ التعليم في مصر أمثال رفاعة رافع الطهطاوي. كما عمدت الإدارة التركية إلى إقامة مؤسسة دينية فعينت مفتيا وقاضياً للقضاة سعيا منها لمراقبة الدين الشعبي الذي قد يؤدي لاشتعال الثورات وهو ما حدث بالفعل في نهاية المطاف بقيام الثورة المهدية. هذا رغم أن العهد التركي حارب العربية في مصر والسودان وجعل التركية لغة التدريس في كليهما (كم يتناقض هذا القول مع النهضة الثقافية الكبيرة، باللغة العربية، التي أنشأها محمد علي باشا في مصر، والتي كان الطهطاوي رائداً لها! لكن الحقيقة تبقى أن محمد علي باشا، بالرغم من كل إنجازاته ومحاسنه، لم يكن عربي الأصل، وكان يحكم مصر كأجنبي، وليس كـ"ابن بلد" في النهاية – إ. ع). وقد يبدو غريبا الإشارة إلى أن اللغة العربية أعلنت لغة رسمية في مصر فقط عام 1862 لكن ربط مناهج التعليم في البلدين ساعد في المستقبل على توثيق الصلات الثقافية بينهما خاصة وأنَّ الطباعة قد ازدهرت في مصر لاحقا فتوفر الإنتاج المصري من الكتابات والكتب للمدارس والمكتبات في السودان.

في هذه الفترة أيضا بدأ الشعر المقفى ينافس الشعر العامي الذي كان منتشرا مثل شعر الحاردلو في بوادي البطانة:

الشم خوخت بردت ليإلى الحرة

والبراق برق من منا جاب القرة

شوف عينى الصقير بجناحو كفت الفرة

تلقاها أم خدود الليلة مرقت برة

وخوخت أي ضعفت ليس بمعنى أنها أصبحت مثل ثمرة الخوخ لأن الخوخ لا يعرف في السودان ولكن خوخة معناها في الفصيح الباب الصغير بين بابين ونسميه في السودان (النفاج) أو كوة صغيرة يدخل منها الضوء وتحرير المعنى أن الشمس صغرت وضعف حرها ربما بسبب الخريف وغزارة المطر. يقول القاص العالمي الطيب صالح أن شعر الحاردلو في مضامينه أشبه ما يكون بشعر ذي الرمة. ومن جميل المقفى في القرن التاسع عشر قصيدة الشاعر محمد عمر البنا في مدح الإمام المهدي:

الحرب صبر واللقاء ثبات

والموت في شأن الإله حياة

قوم إذا حمى الوطيس رأيتهم

شم الجبال وللضعيف حماة

ولما كانت هذه المحاضرة ليست في سرد تطور الشعر السوداني نكتفي بأن نحيل من أراد التوسع في ذلك إلى كتاب الدكتور عبده بدوي "الشعر الحديث في السودان" وكتاب المرحوم السفير عبد الهادي الصديق "أصول الشعر السوداني" ونكتفي بالإشارة إلى أن مدارس الشعر الحديث والتقليدي في مصر قد كانت لها انعكاساتها على المدارس الشعرية في السودان. ويجدر بنا الإشارة هنا إلى عدد من شعراء وأدباء السودان الفحول الذين استطاعوا أن يزاحموا نظراءهم في الصالونات الأدبية في مصر نذكر منهم معاوية محمد نور الذي رثاه الأستاذ عباس محمود العقاد بقصيدة عند موته وكذلك الشعراء حمزة الملك طمبل ومحي الدين فارس ومحمد الفيتوري وتاج السر الحسن ومحمد سعيد العباسي.

إلى جانب ذلك فقد تأثر السودان بكافة المدارس الفكرية والسياسية التي نشأت في العصر الحديث فقد انتقلت حركة الإخوان المسلمين من مصر منذ أيام الشيخ حسن البنا إلى السودان على يد عدد من الطلاب السودانيين في مصر منهم الشيخ صادق عبد الله عبد الماجد المرشد العام الحالي للجماعة في السودان، وكذلك الحركات الشيوعية منذ حركة (حدتو) وقد أفرد الأستاذ أحمد سليمان سفير السودان الأسبق لدى الولايات المتحدة، والذي تلقى تعليمه الجامعي في مصر حيث كان منخرطا أيضا في الحركة الشيوعية هناك ضمن الطلاب السودانيين، كتابات هامة في هذا الشأن وكيف رعى هنري كورييل في مصر مجموعة الطلاب السودانيين الشيوعيين الأوائل وللدكتور محمد نوري الأمين أستاذ العلوم السياسية بحثا عن دور الحزب الشيوعي المصري في تكوين الحزب الشيوعي السوداني باللغة الإنجليزية. كذلك تلقى عدد من رموز الحركة الاتحادية العلم في مصر نذكر منهم الأستاذ أحمد خير المحامى وزير خارجية السودان الأسبق والدكتور أحمد السيد حمد أحد رموز الحزب الاتحادي الديمقراطي. كذلك كان للحركة الناصرية دور في الحركة الطلابية في السودان زاد من ذلك الأثر وجود البعثة التعليمية المصرية في السودان ووجود فرع لجامعة القاهرة في الخرطوم وكان لهذا الأثر صداه الثقافي في ميادين الشعر والغناء والثقافة بوجه عام وقد ذكر الرئيس جمال عبد الناصر في إحدى خطبه الأثر البالغ الذي تركه استقبال السودانيين الحافل له عقب هزيمة 1967 عندما جاء إلى الخرطوم وكيف أن ذلك قد أثار غضب الإعلام الغربي الذي قال "الخرطوم تستقبل القائد المهزوم". تأسست في السودان أيضا فروع لحزب البعث العربي الاشتراكي بشقيه السوري والعراقي وهي تشكل الآن روافد من الحركة اليسارية في السودان وفي فترات سابقة نشط رافد لحزب التحرير الإسلامي الذي أسسه النبهاني في فلسطين ومر زمان في حقبة الستينات من القرن الماضي كان يقال فيه إن القاهرة تكتب وبيروت تطبع والخرطوم تقرأ وقد شهدنا في صبانا الباكر كيف استقبلت الخرطوم ومدينة ودمدنى الشاعر الفذ نزار قباني استقبال الفاتحين. ولا ننسى في هذا السياق عددا من القيادات السياسية والفكرية التي تلقت تعليمها الجامعي في الجامعة الأمريكية في بيروت إبان تصاعد حركات التحرير والمقاومة ضد الاستعمار، الأمر الذي أتاح لها الاحتكاك بالكثير من التيارات الفكرية والسياسية العربية نذكر من أولئك الزعيم الراحل إسماعيل الأزهري رئيس أول حكومة سودانية ونصر الحج علي أول مدير لجامعة الخرطوم وعدد من أساتذة الجامعات كالدكتور مالك بدري والدكتور محمود عبدا لله برات والشاعر والأستاذ الجامعي السر دوليب.

ونود أن نشير في خواتيم هذه المحاضرة إلى أن قيام الدولة السنارية كنتيجة طبيعية للتغلغل العربي والإسلامي عبر قرون وما صاحبه من تمازج الدماء العربية والنوبية والزنجية والحامية قد وضع إطارا لتطور السودان لم يعد العرق عاملا أساسيا فيه بل أصبح الأنموذج السناري دالة على يسر التلاقح بين الثقافتين العربية والإفريقية بحيث لم يفضِ إلى شوفونية عنصرية عربية كانت أم زنجية إذ يعد من خطل القول الحديث عن نقاء عرقي في السودان أو في غيره. لكن غلب في ظن بعض المثقفين السودانيين في ستينيات القرن الماضي وبسبب تنامي المشاعر العربية في خضم الصراع العربي "الإسرائيلي" من جهة والمواجهات مع بريطانيا وفرنسا في قناة السويس وحرب التحرير الجزائرية أن صوت المكون العربي في الثقافة السودانية قد تنامى بما قد يخل بالمرجعية السنارية القائمة على فكرة توازن عربي إفريقي؛ ذلك أن دولة سنار تأسست بقيام تحالف بين قبائل القواسمة العربية الجهنية بقيادة شيخ العبدلاب عبد الله جماع وبين زعيم قبائل الفونج عمارة دنقس وهو أفريقي مسلم من مناطق جنوب النيل الأزرق. وهذا التحالف اعتمد اللغة العربية كلسان للثقافة السودانية دون كبير تعويل على عرق أو عنصر وهو تدبير غير مكتوب أسهم إلى حد كبير في صهر الأعراق والأجناس. قلنا إن عددا من المثقفين أحسوا في بدايات ستينيات القرن الماضي بما يشبه الإخلال بالتوازن الذي جاء به الأنموذج السناري فأسسوا ما عرف بمدرسة الغابة والصحراء حيث ترمز الغابة للبعد الإفريقي والصحراء للبعد العربي ومن رموز تلك المدرسة الشاعر الراحل محمد عبد الحي والشاعر النور عثمان والسفير الشاعر محمد المكي إبراهيم الذي أرجو أن يكون ضمن حضور هذه المحاضرة ليلقي المزيد من الضوء على هذه المدرسة. ومما وجد حفاوة عند رواد هذه المدرسة أشعار الشاعر الكبير محمد المهدي مجذوب إبان فترة عمله في جنوب السودان من ذلك أبياته المشهورة:

وليتني في الزنوج ولي رباب

تميد به خطاي وتستقيم

وأجترع المريسة في الحواني

وأهذر لا ألام ولا ألوم

وأصرع في الطريق وفي عيوني

ضباب السكر والطرب الغشوم

طليق لا تقيدني قريش

بأحساب الكرام ولا تميم

وقد أفرد الدكتور عبد الله علي إبراهيم فصلا جديرا بالقراءة في كتابه "الثقافة والديمقراطية في السودان" لهذه المدرسة عنوانه "تهافت الآفرو-عربية أو تحالف الهاربين".

وعلى كل فإن العبرة من أنموذج سنار أنه قام وأقام دهرا ولا يزال على التراضي لا القهر وعلى التلاقح بين المكونات المختلفة للمجتمعات السودانية دون إقصاء وحري بتدابير المستقبل أن تسعى لإذابة الفوارق وتقوية الأواصر على النسق ذاته بحيث تتنافس الثقافات الفرعية تنافسا حبيا شريفا في إثراء الثقافة الوطنية الجامعة و في ذلك فليتنافس المتنافسون.

* ملاحظة: للأستاذ خضر هارون، كما جاء في محاضرته أعلاه، كتاب بعنوان "أشتات مجتمعات في الفصحى والعامية" يدرس فيه الأصول العربية والقبلية العريقة للهجات السودانية. والكتاب المذكور منشور على الإنترنت، ويوجد تعريف له على موقع مقامات. ومما جاء فيه:

يلاحظ هنا أن الفارسية التي تكتب بالحرف العربي مثلها مثل الأردية لم تفقد رغم اشتمالها على آلاف الكلمات العربية على خصائصها المميزة لها كإحدى اللغات الهندو-أوروبية وكذلك اللغات الحبشية كالتقرينقا والأمهرة والمهرة وسوقطرة في اليمن رغم ما طرأ عليها من حروف وتراكيب من لغات أخرى ظلت ضمن منظومة اللغات السامية جنبا إلى جنب مع العبرية والعربية.

والعامية السودانية رغم ما حوت من ألفاظ نوبية ونوباوية وبجاوية لم تفقد خاصيتها كلهجة عربية مثل سائر لهجات العرب المعاصرة بدليل سهولة ويسر انداياح السودانيين في المجتمعات العربية. والعربية الفصحى نفسها قد عربت ما لا يحصى من الألفاظ الهندية والفارسية دون أن تصبح لغة هجينة، وكلمة (مصحف) وهى من أهم الكلمات للوجدان المسلم العربي استعارتها العربية من اللغة الحبشية حيث تعني في الأمهرية (كتاب) وكذلك كلمة (صلوات) الواردة في الذكر الحكيم ومعناها كنائس "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت بيع..." وأصلها من كلمة (صلوثا) السريانية وقد ذهب الزمخشري إلى كونها عبرية.

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أن اللهجات العربية الدارجة لم تنشأ بسبب ضعف الفصحى أو بدخول الأعاجم في الإسلام وانتشارهم ومخالطتهم للعرب في حواضر الدولة الإسلامية بل كانت هناك على الدوام لغة مخاطبة يتخفف الناس فيها من ضوابط النحو الثقيلة وهى لهجات تختلف من إقليم إلى إقليم وكانت على الجملة تختلف من لغة الكتابة في مادتها اللغوية، وهذا ما ذهب إليه كثيرون نذكر منهم الدكتور إبراهيم السامرائي في سفره القيم "فقه اللغة المقارن". وقد نبه الجاحظ قراء (البخلاء) إلى اشتماله على اللحن وغير المعرب من الألفاظ حيث أراد لما كتبه أن يكون قريبا من لغة المخاطبة المتحررة من قيود النحو والإعراب. قال: "وإنْ وجدتم في هذا الكتاب لحنا أو كلاما غير معرب ولفظا معدولاً عن وجهته، فاعلموا أنا تركنا ذلك، لأن الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه من حده إلا أن أحكى من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هارون أشباهه"..

تبقى الإشارة إلى أن هذا الكتاب ليس كتابا دراسيا كما أنه ليس معجما لألفاظ العامية السودانية وأنتهز السانحة لأحيي الأستاذ الدكتور عون الشريف قاسم على الجهد الكبير الذي بذله في رد مفردات العامية السودانية إلى أصولها العربية وغير العربية وكتابه لا غنى عنه لمن أراد دراسة تلك العامية السودانية دراسة علمية مستفيضة. تبقى إشارة أخرى هامة هي أننا لم نعتمد في ترتيب الكلمات موضوع الدراسة والبحث فيه الترتيب القاموسي الذي يقوم على ترتيب حروف الهجاء العربية بل جاء الترتيب هكذا وفق حضور الكلمات في الذاكرة اتفاقا بغير تدبير.

سلسلة التثقيف القومي

الجزء السابع: عروبة مصر القديمة

د. عكاشة الدالي -مواد أخرى

تقديـم

نقدم أدناه ثلاث مواد عن عروبة مصر: 1- مقالة لإبراهيم المازني من عام 1935 عن القومية العربية، موجهة للمصريين أساساً، 2- مقتطفات قصيرة عن عروبة مصر من كتاب صدر عام 1970 عن الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر لعلي حسن خربوطلي بعنوان "التاريخ الموحد للأمة العربية"، 3- مادة قيمة وموثقة بعنوان "عروبة مصر القديمة" للدكتور عكاشة الدالي.

عروبة مصر 1:

تقديم: نشرت المادة أدناه في مجلة "الرسالة" في 26/8/1935، أي قبل حوالي ثلاثة أرباع القرن، أي قبل الناصرية وعبد الناصر. ونعيد نشرها هنا للتأكيد على عراقة الاتجاه القومي العربي في مصر في العصر الحديث مع التحفظ على تعبير "أمم عربية" الوارد في النص، وهو مصطلح مخترق لا مكان له من الإعراب، تماماً مثل تعبير "شعوب عربية" في نصوص أخرى لكتاب آخرين. فنحن أمة عربية واحدة وبالتالي شعب عربي واحد بالضرورة. لكن هذه الهفوة، أو الخطأ الشائع بالأحرى، لا يقلل من أهمية النص الجميل أدناه، ولا من كاتب النص إبراهيم المازني. والمازني كاتب مصري معروف، وشاعر مجدد، وروائي ومترجم وصحفي كبير.

ويلاحظ من النص أنه استخدم تعبير "أمم عربية"، الذي سجناه عمداً بين مزدوجين، بمعناه الفضفاض في اللغة العربية، أي للإشارة لطائفة من الكائنات يجمعهم قاسم مشترك، دون أن يحمل ذلك بالضرورة، أو يستثني، المعنى القومي لكلمة أمة، كما في كتاب "كليلة ودمنة" حين يسمي عبد الله بن المقفع كل جنس من أجناس الحيوانات "أمة"، أو كما كان يقول العرب "أمة الروم"، أو كما نقول اليوم في كلامنا اليومي مثلاً: "أمة لا إله إلا الله" عند الحديث عن ذيوع أمر ما بين الناس. ومما يؤكد أن إبراهيم المازني لم يكن يستخدم تعبير "أمم عربية" للزعم أنهم أمم مختلفة، بدلاً من أمة واحدة، قوله نصاً أنّه يؤمن بالقومية العربية، واحتجاجه: "هذا الشرق العظيم الذي تقسمونه اليوم أمماً وشعوباً وتقولون هذا مصري وذاك فلسطيني أو شامي أو حجازي...". لكن إطلاق تعبير "أمم" على العرب اليوم بات يتخطى هذا الوصف اللغوي الصرف ليحمل شحنة سياسية ناسفة للرابط القومي بين العرب، ولذلك اقتضى التنويه.

النقد الوحيد على المادة القيمة أدناه أنها تتحدث عن الشرق، والدول العربية في الشرق، مهملةً المغرب العربي ودوله، مع أنه يمثل ثقلاً حقيقياً في الأمة العربية، وكذلك لم يتم ذكر السودان، وبالرغم من ذلك، فإن ما قاله إبراهيم المازني عن مصر والحجاز وبلاد الشام والعراق ينطبق بالضرورة على السودان ودول المغرب العربي، ولعله كان يذكر ما ذكره من الدول العربية على سبيل المثال لا الحصر.

النقطة الأخيرة هي أن المازني كان يتعامل مع العروبة والإسلام كمرادفين، وهو ما نعيده للعلاقة العضوية الراسخة بينهما التي لا تحتاج منا إلى تعليق... بغض النظر عن كثرة التفاصيل).

القومية العربية (حديث موجه للمصريين)

إبراهيم عبد القادر المازني

كثيراً ما يسألني الشبان الذين لم يشهدوا الثورة المصرية – لأنهم كانوا أطفالاً-: "هل كانت حقيقةً رائعة؟".

فأقول: لقد بلغت غاية الروعة – في حدودها. ولم يكن في الوسع أن تكون فوق ما كانت؛ ولكنها فشلت – مع الأسف – لأنا أحطنا قوميتنا بمثل سور الصين العظيم".

ذلك أني أؤمن بما أسميه "القومية العربية" وأعتقد أن من خطل السياسة وضلال الرأي أن تنفرد كل واحدة من "الأمم العربية" بسعيها غير عابئة بشقيقاتها، أو ناظرة إليها، ويحنقني ويستفزني أن أرى أحداً ينظر إلى مصر كأنها من أوروبا وليست من الشرق. وعندي أن الجنسية الشرقية هي أساس حياتنا وتاريخنا، وأن هذه النظرة تفسد مزايانا الشرقية – إذا لم تفقدنا إياها – ولا تكسبنا مزية من مزايا الغرب؛ والعلم يُنقل، وقد نقل من الشرق إلى الغرب، ومن اليسير أن ينقل من الغرب إلى الشرق من غير أن يحاول الشرق أن يغير جلده أو يخسر خصائصه.

***

وقد اعترض علي شابٌ ذات مرة، ونحن في حديثٍ كهذا، فقال: "وما الرأي في القومية؟ أليست حقيقة تاريخية تفرق بين هذه الشعوب والأمم التي تريد أن تجمعها وتربطها برباط واحد؟".

فقلت له: "إن هذه القوميات العنيفة الضيقة الحدود، حديثة من الوجهة التاريخية، وهي بحدتها الحاضرة، بنت العصر الحديث، أو إذا شئت فقل أنها وليدة الحرب العظمى، وإن كان صحيحاً أنها سبقت الحرب بنصف قرن تقريباً، بل إن فكرة الإمبراطورية البريطانية نفسها ليست إلا بنت القرن العشرين. ولعل أكبر مسؤول عن بث هذه الفكرة هو الشاعر كبلنغ. ما علينا من هذا، ولنرجع إلى حديث الشرق: لقد كانت هناك وحدة وثقافة إسلاميتان دان لهما الشرق، أو ما يعنينا منه، وظلت هذه الوحدة قائمة على الرغم من انحطاط الثقافة، ولم يمنعها أن تظل قائمة أنَّ ثورات نشبت، وحروباً استعرت، فإن هذه أشبه بالفتن الداخلية والحروب الأهلية؛ وقد كان العلماء والأدباء والفقهاء يرحلون من بلدٍ إلى بلد، ولا يحسون أنهم تركوا أوطانهم وتغربوا، ولا يشعرون أنهم اجتازوا حدوداً، وتخطوا تخوماً، تفصل بين أقطار، وتعزل أمة عن أمة. ولا يزال الحال هكذا؛ ولو جبتم هذا الشرق لما شعرتم أنكم في غير مصر – إلا من حيث التقدم المادي – وكانت اللغة العربية هي اللسان الذي لا تحتاجون إلى اتخاذ غيره حيثما تكونون من هذا الشرق العظيم الذي تقسمونه اليوم أمماً وشعوباً وتقولون هذا مصري وذاك فلسطيني أو شامي أو حجازي، وعلى أن القومية هي اللغة لا سواها. ولتكن طبيعة البلاد ما يشاء الله أن تكون، ولتكن الأصول البعيدة المتغلغلة في القدم ما شاءت، فما دام أن أقواماً لهم لغة واحدة فهم شعبٌ واحد. ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يفكر – إلى الآن على الأقل – إلا بالألفاظ. هي وحدها أداة التفكير، فلا سبيل إليه من دونها، ومن المستحيل – الآن – أن نتمثل معنى مجرداً من ألفاظ تعينه. ولكل لغة أساليبها وطرائقها، فأساليب التفكير وطريقة التصور خاضعة للأساليب التي يتألف على مقتضاها الكلام في اللغات المختلفة؛ ومن هنا يتفق ويتشابه أبناء كل لغة، ويختلفون عن أبناء كل لغة أخرى؛ وهذا فرق ما بين الإنكليزي والفرنسي، وما بين الإنكليزي والهندي؛ وهذه في ما أظن، حقيقة علمية، ومتى كان الأمر كذلك فكيف نكون إلا عرباً

كالعراقيين، والسوريين، والفلسطينيين، والحجازيين، واليمانيين، مع اختلاف يسير تحدثه طبائع هذه البلاد؟".

فعاد الشاب يسألني: "وأصلنا المصري؟ وتاريخ الفراعنة ومدنيتهم؟"

فقلت له: "أكرم بهذا الأصل! وإنها لمدنية باهرة تلك التي كانت للفراعنة؛ وإن العالم كله لمدين بأكثر مما يعرف لهذه الحضارة القديمة، ولكنها بادت واندثرت، ولم يبق منها إلا الأثر المدفون في التراب، الذي لا يمكن أن يؤثر في حياتنا الحاضرة إلا من طريق واحدٍ – هو إشعارنا العزة، وحثنا على استحقاق هذا الميراث الجليل، كما يكون الأب كريماً فيخجل الابن أن يكون كزاً لئيماً وأن يفعل ما ينافي كرم آبائه وطيب أرومتهم؛ ولكن المدنية العربية – أو قل الإسلامية إذا شئت – لم تفنَ، ولم تُبد، ولم تندثر، ولم تفقد إلا القوة ومظاهر السلطان، وهذه تُكتسب وتستفاد؛ ولكنها في ما عدا ذلك، بقيت حية، وأبقى ما بقي منها لغتها بكنوزها المختلفة، فهي – أي المدنية العربية – عاملٌ مؤثرٌ بوجوده – لا بذكراه كالعامل الفرعوني. ومن الممكن هدم هذه الحواجز المفتعلة التي يقيمها الغرب ويرفع منها سدوداً بيننا وبين إخواننا".

***

وكثيرٌ ممن أحدثهم هذا الحديث يقتنعون، ولكنهم يرون أنفسهم شباناً، ويستهولون أن يوكل إلى أسنانهم الغضة توثيق ما أوهنه تفريط الشيوخ أو ضيق إدراكهم، ولكني أنا أؤمن بقدرة الشباب على المعجزات، لأن خياله أنشط، وجرأته أعظم وعزيمته جديدة لم تنل منها الخطوب والخيبات، وآماله فسيحة. وإذا كان الشاب لا يقدم، فمن ذا عساه يفعل؟

ولو أن هذه القومية العربية لم تكن إلا وهماً لا سند له من حقائق الحياة والتاريخ، لوجب أن نخلقها خلقاً، فما للأمم الصغيرة أمل في حياةٍ مأمونة، وما خير مليون من الناس، مثلاً؟ ماذا يسعهم في دنيا تموج دولها بالخلق، وكيف يدخل في طوقهم أن يحموا حقيقتهم ويذودوا عن حوضهم؟ إن أية دولة تتاح لها الفرصة تستطيع أن تثب عليهم وتأكلهم أكلاً بلحمهم وعظمهم. ولكن مليون فلسطين، إذا أضيف إليهم مليونا الشام وملايين مصر والعراق مثلاً يصبحون شيئاً له بأسٌ يُتقى. وهذه البلدان ما انفكت زراعية على الأكثر، وجل اعتمادها على حاصلات الأرض، والصناعة فيها ساذجة محدودة، وضيقة النطاق، والزراعة لا تغني الأمم كما تغنيها الصناعة، والمال عصب الحياة وسر القوة، وأخلق بهذه الأقطار العربية أن تظل صناعاتها ضئيلة ما بقيت هي مقسمة موزعة، لأنه لا يوافق الدول الغربية التي لها فيها سلطان أو نفوذ أن تدع صناعاتها تنشط وتنهض، ولا سبيل إلى نشاطها إلا إذا فتحت أسواق مصر، لجاراتها الشرقية، وأسواق الجارات لمصر، ومعقول أن تشتري منا دول أوروبا حاصلاتنا الزراعية أو ما يزيد على حاجتنا منها، ولكن صناعتنا لا يعقل أن تجد لها أسواقاً في أوروبا، فما بها حاجة إلى ما نصنع بالغاً ما بلغ التجويد فيه، وإنما يتسع الميدان لصناعتنا إذا وجدت سبيلها إلى الشرق، ومثل هذا يقال عن البلدان العربية الشرقية.

قد يقال: ولكن هذا ليس إلا حلماً، فنقول نعم إنه الآن حلم، لا أكثر، ولعله لا يتراءى إلا لآحاد يعدون على الأصابع في كل بلد، وعسى أن تكون العقبات المعترضة والصعاب القائمة قد صرفت كثيرين عنه بعد أن دار زمناً في نفوسهم، ولكنه على كونه حلماً، ليس أعز ولا أبعد منالاً مما تحلم به أمم أخرى في هذا العصر؛ وبالأمم حاجة إلى الأحلام، وإلى الإلحاح على نفسها بها حتى تخلد إليها وتتعلق بها ولا تعود ترى للحياة قيمة أو معنى إذا لم تسع إلى تحقيقها، وإلا فإلى أية غاية تسعى؟

وماذا تطلب من الدنيا؟ وماذا عسى أن يكون مرامها في الحياة إذا لم تحلم بأمل؟ أيكون كل ما تبغي أن تأكل هنيئاً، وتشرب مريئاً، وتنام ملء جفونها؟ وهيهات أن يتيسر لها ذلك إن هي قصرت وكفّت عن الأحلام والتأمل وما يغريان به من السعي، وغيرنا يحلم بنا إذا كنا نحن لا نحلم بشيء، وحقيق بنا إذا سلمنا إلى حين أن نعود فريسة لأمة من الأمم الطامعة الحالمة.

والأحلام ضرورة من ضرورات الحياة، للأفراد والجماعات، وبغيرها يمتنع السعي وتنقطع الحوافز، وتركد الدنيا ويأسن العيش، ومن لا حلم له، لا أمل له، ولا مستقبل، فلماذا يعيش إذن؟

عروبة مصر2:

عروبة مصر القديمة/ د. عكاشة الدالي

(تقديم: نقدم فيما يلي مادة الدكتور عكاشة الدالي التي تربط العروبة بمصر منذ آلاف الأعوام قبل الميلاد، ونعتبرها تتمة لمادة محمد عزة دروزة في جزءٍ سابق من هذا الكتاب التي تغوص في تاريخ مصر القديم لتظهر أن العلاقة بين العروبة ومصر القديمة لم تكن مجرد روابط، كما الروابط بين بلدين متجاورين مثلاً، بل أن ثمة ما يدل أن مصر عربية منذ بدء التاريخ، وأن حضارتها القديمة هي حضارة عربية بالأساس. ونقدم مادة د. الدالي أدناه لأنها تثبت مفهوم عروبة مصر القديمة، وتظهر مدى عناية علماء العرب في العصور الوسطى بحضارة مصر القديمة من هذا المنطلق – إ. ع).

أولاً: إن العرب لم يكونوا أغراباً عن مصر فلهم حضورٌ موثَّقٌ فيها يرجع إلى فترة تكوين الحضارة المصرية نفسها، وقد عُثر على رسوم صخرية في طرق الأودية التي تربط بين ساحل البحر الأحمر وبين النيل تصور مراكب وهجرات عبرت البحر من شبه الجزيرة العربية فيما قبل التاريخ، كما عُثر أيضاً على رسوم صخرية تمثل الفيلة في الصحراء المصرية وعُثر على نسخ منها في شبه الجزيرة العربية. وقدً عُثر في المواقع المصرية التي تعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد على قطع من (الاوبسديان) مستوردة من جنوب الجزيرة العربية، وكذلك قطع من الإسفلت المستورد من البحر الميت. كما تشير الوثائق المصرية منذ عهد الأسرة الثانية عشرة على الأقل إلى العرب بنفس الاسم، وعُثر في الدلتا على بقايا مقاصير لعبادة الآلهة العربية مثل اللات، وعُثر في ميت رهينة (ممفيس) على تابوت عليه كتابة بالخط المسند وهو خطٌ يمني قديم يخص تاجراً يمنياً اسمه "زيد الله" استقر في المنطقة وعمل في معبدها خلال الحكم البلطمي في مصر، وفي أواخر هذا العصر استعانت الملكة كليوبترا السابعة والتي كانت تجيد العربية (وهي كليوبترا المشهورة) بفرقة من العرب لاستعادة عرشها أثناء النزاع الأسري على عرش مصر، أي أن العرب كان لهم وجود دائم في مصر منذ بداية تاريخها، وكذلك أهل مصر كان لهم وجود دائم في بلاد العرب، فحين هرب "سنوهي" من مصر أوائل الأسرة الثانية عشرة لقي من أهل الشام من تعرّف عليه وتحدث معه بلغة أهل مصر، كما عُثر على وثائق من جنوب الجزيرة العربية تحمل أسماء زوجاتٍ مصرياتٍ تزوجن من أهل اليمن وصارت لهن وطنا. ومن الطريف أن زوجة الملك النوبي "بعنخي" من الأسرة الخامسة والعشرين كانت تدعى "خنساء" وهناك عدد كبير من الأسماء المصرية القديمة العربية أيضاً نجدها في قاموس العالم الألماني "رانكه" عن أسماء الأعلام المصرية القديمة ومنها: كريم، عبدو، رجب، برعي، يحنس، بنا، يكن، يونس، عطية، سمير، سوسن، عابر... الخ، إضافة إلى أسماء أخرى من وثائق الدولة الحديثة مثل "خالد"، وبالمقابل حمل العرب أسماء يعتبرها البعض

مصرية خالصة مثل ذلك الأمير اليمني الذي يدعى "أحمس" والذي جاء ذكره في تاريخ الأصمعي، أما عن وجود العقائد والأرباب المصرية في بلاد العرب مثل بس و أيزيس وأوزوريس وحورس ونوت وآمون وغيرهم فحدث ولا حرج، ولدينا مسلة من تيماء كرست لكاهن مصري، وكذلك مدن مصرية على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر.

وربما كانت أوضح الدلائل على اختلاط العرب والمصريين هي الواقعة التي أشار إليها المؤرخ الواقدي (توفي 919 م) في كتابه "فتوح البهنسا الغراء" أثناء فتح المسلمين للبهنسا التي تقع في محافظة المنيا على بحر يوسف (190 كم جنوب القاهرة) حيث ذكر أن عدداً كبيراً من المحاربين إلى جانب الروم كانوا عرباً من قبائل لخم وجذام، والتي يبدو أن عدداً من بطونها قد استقرت في مصر منذ زمن بعيد، وأشار الواقدي أيضا إلى أنه عقب إحدى المعارك اختلط قتلى المسلمين بقتلى الأعداء وبات من الصعوبة تمييز هؤلاء من أولئك دون الكشف على علامة الصليب المرسومة على أيدي الجانب الآخر، وإنْ دل هذا على شيء فإنما يدل على وحدة الأصل الجنسي للمقاتلين على الجانبين باستثناء الروم.

ومن المهم أيضاً أن نذكر هنا أن العرب ينسبون إلى إسماعيل ابن هاجر المصرية، حتى إنَّ المصادر القديمة والحديثة كثيراً ما تشير إلى العرب باسم "أبناء هاجر" أو" الهاجريون"، ولعل هذا ضمن أشياء أخرى منها ما عناه النبي محمد عليه الصلاة والسلام حين أوصى المسلمين بأهل مصر خيراً حين يدخلونها فإنَّ لهم بهم صلة رحمٍ وقربى، كما كان هو نفسه متزوجا من مارية القبطية التي أنجبت له ولده الوحيد إبراهيم.

وإحدى المشاكل التي تواجهنا هي الفكرة الشائعة بأن العرب الذين يشار إليهم في المصادر المصرية هم مجرد بدو رُحل لم يعرفوا المدنية، وهي الفكرة التي أشاعها عمداً بعض المستشرقين وتبعهم مع الأسف بعض المثقفين المصريين وغيرهم على سبيل إبراز عراقة تمدين المصريين مقابل بداوة العرب، والواقع يشهد بقيام ممالك عربية لها أيضا حضارات عريقة ازدهرت جنوب الجزيرة العربية كسبأ ومعين وحمير وغيرها، أما في شمال الجزيرة العربية فظهرت ممالك عربية في سوريا والأردن، وبعضها حُكمت أحيانا بواسطة ملكات مثل زبيبة وبلقيس وغيرهما.

والأهم أن بعض هذه الممالك كمملكة الأنباط شهدت في القرن الأول الميلادي حكومةً ملكيةً ديمقراطيةً بالمعنى الحقيقي للكلمة طبقاً لما رواه الجغرافي "سترابو".

ثانياً: قصة عمرو بن العاص نفسه معروفة كتاجر تردد إلى مصر، واطلع على مكانتها وغناها قبل أن يأتيها فاتحاً. إن عدد جنود حملة عمرو على مصر كان نحو أربعة آلاف، وحتى إذا وضعنا في الاعتبار هجرة عدة آلاف أخرى من القبائل العربية وخاصة من اليمن لظل كل هؤلاء العرب كمجموعة اثنية مميزة قطرة في محيط المصريين من حيث العدد، إلا أنهم سرعان ما اختلطوا بالمصريين حتى ذابوا فيها كسابقيهم ولاحقيهم، وهذه الهجرات تحدث من قبل الإسلام وتستمر بعده مثل الغزوة الهلالية في القرن العاشر الميلادي أثناء العهد الفاطمي إلى شمال أفريقيا.

ثالثا: تحول أغلب نصارى مصر بالتدرج إلى الإسلام لأسباب عديدة، وإنْ بقيت أغلبية أهل البلاد في مصر مقارنة بأهل فارس مثلاً الذين لم يتخلوا أبداً عن لغتهم بالرغم من احتضانهم للإسلام، ألا أن السِر يكمن ببساطة في أن اللغة العربية واللغة المصرية القديمة والتي تمثل القبطية آخر أطوارها ترجعان إلى أصل لغوي مشترك مما سهل التحول إلى العربية.

والواقع أنّه لم ترد في أذهان نصارى مصر على الإطلاق فكرة نقاء دم عنصر معين من أهل مصر كممثل للدم المصري القديم، بل إنَّ هذه الفكرة من بنات العقلية التبشيرية في أواخر القرن التاسع عشر، فحين فشل المبشرون في تحقيق نجاح ملموس بين أوساط المسلمين اتجهوا بتبشيرهم نحو النصارى من أهل البلاد في مصر والشام، إلا أن الفشل كان من نصيبهم أيضاً، فبدأوا في لبنان على وجه الخصوص كما تذكر "هيلين صادر" نقلاً عن "أسامة مقدسي" في مقالة حديثة لها بأن المستشرق الفرنسي "رينان" كان من دعاة فكرة أن المارونيين هم أحفاد حضارة الفينيقيين العظماء، وأن العرب والمسلمين مجرد غزاة دخلاء، ولا شك أن الأمر نفسه تكرر في مصر مع أقباطها، إلا أن قبط مصر كانوا أكثر وعياً من جيرانهم فلم يبلعوا الطعم / السُم مدركين أن كل أهل مصر هم من سلالة واحدة حتى إنَّ واحداً من أكثر الحاقدين على الشعب المصري وهو "اللورد كرومر" المندوب السامي البريطاني الذي عبّر عن حزنه لتمسك مسلمي مصر بإسلامهم واحتضان نصارى مصر للثقافة الإسلامية مع تمسكهم أيضاً بالكنيسة القبطية، وهو ما أصابه بخيبة أمل، يقول في كتابه "مصر الحديثة": إن الفارق الوحيد بين القبطي والمسلم أن الأول مصري يتعبد في كنيسة مسيحية بينما الآخر يتعبد في مسجد مُحمدي (يقصد إسلامي)".

يتضح من كل ما سبق أن أغلب أهل مصر الآن هم نفس التركيبة السكانية منذ أقدم العصور، دون النظر إلى كونهم مسلمين أو نصارى، وهذه إحدى محاسن وقيم الشعب المصري الذي بلغ من كرمه على مر العصور لجوء المضطهدين إليه من كل جنسٍ وملة بما فيهم اليهود أنفسهم، كما تشهد المعابد اليهودية الكثيرة المكتشفة في مصر من القرن الخامس قبل الميلاد في جزيرة الفنتين وطموه وغيرها، كما وفرت مصر البيئة الملائمة للعالم اليهودي الجليل موسى ابن ميمون الذي لجأ إلى مصر على عهد صلاح الدين الأيوبي هرباً من الاضطهاد، فلقي بمصر حفاوة، ورُقي بها أعلى المناصب كطبيب لصلاح الدين مما مكنه من إنجاز بعض أهم النصوص الدينية عند اليهود على مر عصورهم مثل "دلايل الحائرين".

وأخيرا يجب التنبه لحقيقة واضحة وهي أن الشعب المصري منذ القدم اعتبر المصري هو من شرب من نيل مصر، وسكن أرضها، وتحدث بلسان أهلها، وهذا المفهوم الإنساني النبيل للجنسية هو أرقى ما وصل إليه شعب من الشعوب، لذا نجد في ألقاب المؤلفين العرب في العصور الوسطى فلاناً من العراق على سبيل المثال فإذا استقر بمصر أضيف إلى لقبه المصري، مثل الكيميائي الشهير من القرن الثالث عشر الميلادي "أبو القاسم العراقي المصري".

*** انتهى ***

ملحق

محاولات العلماء العرب في العصور الوسطى

اكتشاف مغاليق الكتابات المصرية القديمة

د. عكاشة الدالي

مقدمـــة:

تعرض هذه الورقة لاهتمام العلماء العرب / المسلمين في العصور الوسطى بالكتابات المصرية القديمة، وتلقي الضوء على محاولاتهم لكشف أسرارها. وتعتمد هذه الدراسة أساساً على المصادر العربية المخطوطة للبحث أيضا عن أسباب الاهتمام العربي بالخط الهيروغليفي تحديدا وتقصي مدى هذا الاهتمام.

ومن المؤسف أنه لا توجد حتى الآن دراسات منشورة في حقل الآثار المصرية تشير من قريب أو بعيد إلى إسهامات العلماء العرب في مجال الكشف عن أسرار الخطوط المصرية القديمة، بالرغم من أن هذه الإسهامات العربية معروفة بالفعل للعديد من العلماء الأوروبيين في حقل الدراسات الاستشراقية. فعلى سبيل المثال نشر المستشرق النمساوي جوزيف همرفون برجسترال في عام 1806 بمدينة لندن النص العربي مع ترجمة إنجليزية لكتاب ابن وحشية "شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام" والذي يعود إلى آخر القرن التاسع الميلادي. كما نشر بلوشيه عام 1909 وما بعدها سلسلة مقالات حول الغنوصية الإسلامية (مذهب العارفين بالله) والتي بين فيها نجاح بعض العلماء العرب في التوصل لمعرفة بعض الحروف الهيروغليفية.

استمرار الاهتمام بالخطوط المصرية القديمة:

هنالك دراسات مستفيضة تبين اهتمام الكتاب اليونان والرومان بخطوط مصر القديمة، تدل في مجملها على اعتقاد هؤلاء الكتاب بأن العلامات الهيروغليفية كانت رموزا يمثل كل منها مفهوما محددا، وقد ساد هذا الاعتقاد حتى بدايات المحاولات الأوروبية الحديثة لحل أسرار العلامات الهيروغليفية.

ومن المهم إدراك خطأ المقولة الشائعة بموت الاهتمام بتاريخ مصر القديمة مع دخول المسيحية والإسلام إلى مصر، وهي المقولة التي اكتسبت صفة المسلمات نتيجة كثرة ترديدها عند جل العلماء في الغرب والشرق على السواء.

وليس أدل على ولع أهل مصر بدراسة الهيروغليفية حتى بعد ثبات أركان المسيحية في مصر من تلك الإشارة التي وردت في نصوص نجع حمادي القبطية الغنوصية حيث ينصح هرمس تلميذه بأن يكتب ما يتعلمه من الحكمة على " لوح من الفيروز بالحروف الهيروغليفية". ويبدو أن هذا الاهتمام أصبح مدعاة للقلق لدى آباء الكنيسة، إذ نجد الراهب القبطي المشهور شنودة يصدر تحذيرا شديد اللهجة ضد دراسة الكتابة الهيروغليفية (منتصف القرن الخامس الميلادي) وهذا الاهتمام بين عامة

الأقباط بكتابات جدودهم يأتي بالرغم من موقف الكنيسة المصرية آنذاك الذي كان ينظر بعين الريبة إلى حضارة مصر القديمة باعتبارها حضارة وثنية.

وعلى أية حال أدى اهتمام القبط بحفظ بعض ما بقي من تراث أجدادهم سواء في أصوله المصرية أو مترجما إلى القبطية أو اليونانية إلى شيوع فكرة أن الرهبان الأقباط هم أمناء على حكمة ومعرفة الكهنة الأقدمين. بل ويذكر ابن الدواداري في القرن الرابع عشر أن من بين المصادر المتداولة عن مصر القديمة أحد الكتب القبطية يسميه "الكتاب القبطي" أشار إلى استخدام الرحالة المسعودي له في القرن العاشر الميلادي.

وليس هناك أكثر دلالة على احتفاظ مصر القبطية بتراثها المصري الأقدم من انتشار العناصر الفرعونية في التعاويذ السحرية القبطية بل ووجود أسماء الآلهة المصرية القديمة بها جنبا إلى جنب مع أسماء المسيح والقديسين المسيحيين. والواقع أن أغلب هذه الكتابات السحرية قد وجدت طريقها أيضا إلى المصادر العربية حيث انتشرت برموزها المصرية القديمة في السحر العربي.

فإذا عدنا إلى آباء الكنيسة نجد أن قلقهم من تدهور رعيتهم للكتابة القبطية منذ القرن الحادي عشر قد أدى إلى ظهور كتب تعرف بالسلم هي عبارة عن شرح لقواعد اللغة القبطية باستخدام اللغة العربية، فتركوا لنا تراثا ثريا من الدراسات القبطية باللغة العربية أصبحت هي المصدر الرئيس فيما بعد للدراسات الأوروبية فنرى كرخر (Kircher) في منتصف القرن السابع عشر الميلادي يستخدم مجموعة من المخطوطات العربية كان قد أتى بها إلى أوروبا الرحالة الإيطالي ديلا فيل، وتمكن كرخر عن طريقها من كتابة أول كتاب في أوروبا عن قواعد اللغة القبطية بادئا بهذا العمل الخطوات التي كللت بنجاح شمبوليون في الوصول إلى سر الكتابة المصرية.

والواقع أن كرخر في كل ما كتبه عن اللغة المصرية مثل كتابه الشهير (Oedipus Agyptiacus) كان دائم الإشارة ليس إلى مصادره العربية فحسب بل كان يضع نصوصه العربية كاملة مع ترجمتها اللاتينية. وفي هذا الكتاب استخدم أكثر من أربعين مصدرا عربيا مثل ابن وحشية وابن الرجال وأبو البركات وجلال الدين السيوطي.

أما في العصر الإسلامي فقد انتشر الاهتمام بالكتابة الهيروغليفية بين العديد من العلماء وخاصة علماء الكيمياء وبين المتصوفة لأسباب تتعلق بشيوع الاعتقاد بأن الكتابات المصرية القديمة تحمل أسرار علوم الكيمياء وتحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، هذا من ناحية علماء الكيمياء. أما المتصوفة فقد وجدوا في هذه الأشكال الهيروغليفية ما يثير نهمهم إلى استجلاء غوامضها، ولجابر بن حيان وابن عربي رسائل بالغة الأهمية تدور حول المعاني المرتبطة بأشكال الحروف وليس أكثر إثارة للاهتمام في هذا الخصوص من الأشكال الهيروغليفية الزاهرة. يضاف إلى ما سبق الاهتمام الطبيعي عند العلماء العرب بالكتابات القديمة منذ القرن الأول الهجري.

والواقع أن العلماء العرب كانوا على دراية بالكتابات المختلفة للغة المصرية القديمة فها هو ابن فاتك (القرن العاشر/ الحادي عشر الميلادي) يشير إلى معرفة فيثاغورس العميقة باللغة المصرية القديمة بخط العامة (الديموطيقي) وخط الخاصة وخط الكهنة (الهيراطيقي) ثم خط الملوك (الهيروغليفي). وربما يكون المصدر الذي استقى منه ابن فاتك مثل هذه المعلومة هو كليمنت الإسكندري المتوفى في سنة 220 ميلادية.

ومن المصادر الأخرى التي كانت ربما عوناً للعلماء العرب الآثار التي يوجد عليها نص بأكثر من لغة كتابة واحدة مثل حجر رشيد، ولا شكَّ أنه كان بوسع العديدين من العلماء العرب قراءة القبطية واليونانية. ونظرا لعدم حماسة المصريين تحت الحكم اليوناني / الروماني لتعلم اليونانية اللغة الرسمية للدولة فقد انتشرت عادة إخراج النصوص المصرية الهيروغليفية بكتابة أصواتها بالحروف اليونانية. وهناك العديد من الآثار المصرية ثلاثية اللغة والكتابة والتي تشمل الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية. بالإضافة إلى إمكانية اعتماد العلماء العرب على معرفة بعض أهل مصر من القبط باليونانية والقبطية وربما اللاتينية أيضاً، مثل ديوسكورس من أواخر القرن السادس الميلادي الذي ترك لنا قوائم كلمات باليونانية والقبطية وهو ما يسر دون شك دراسة النصوص متعددة اللغات، وهناك تمثال للملك الفارسي دارا الأول عثر عليه في سوسة بإيران على قاعدة مصرية الطراز وعليه كتابات باللغات الأكدية والعيلامية والفارسية القديمة والمصرية الهيروغليفية.

وليس أدل على شدة ولع العلماء العرب بالكتابات المصرية القديمة من تعدد أسماء الخطوط المصرية لديهم مثل: القلم البرباوي، قلم الطير، القلم الكاهني، القلم المسند، القلم الحميري، القلم القبطي، القلم المصري، قلم هرمس، قلم السيمياء، قلم النيرنجات، قلم الطلمسات، قلم القلفطريات، القلم اللقمي.

وأدرك العرب الصلة بين المصرية القديمة والقبطية فسموا الأولى "القبطية الأولى" كما أدركوا أن القبطية هي خليط من المصرية واليونانية.

الكُتّاب العرب الذين ساهموا في حل رموز الخطوط المصرية القديمة:

أول عالم عربي قيل أنه كتب في هذا الموضوع هو العالم الكيميائي الشهير جابر بن حيان الذي عاش في النصف الأخير من القرن السابع الميلادي والنصف الأول من القرن الذي يليه. ويبدو أن كتابه "حل الرموز ومفاتيح الكنوز" الذي لم أتمكن من العثور عليه كان دراسة مفصلة لعدد من اللغات القديمة حسبما يتبين من إشارات من جاؤوا بعده من العلماء إلى أهميته (على سبيل المثال ابن وحشية) ومعروف عن جابر ولعه باللغات قديمها وحديثها بل استخدامه للكثير من الكلمات في لغاتها الأصلية كما نرى في كتابه المعنون "الحاصل".

ثم يأتي بعد ذلك العالم المصري أيوب بن مسلمة الذي صحب الخليفة العباسي المأمون خلال زيارته لمصر سنة 831 م وقيل أنه قرأ له النقوش المصرية القديمة على جدران الآثار بما له من معرفة حل أشكال حروف "الأقلام البرباوية". وقد لاحظ الإدريسي أنّه لو كانت تلك النقوش باليونانية أو بالسريانية لما حرص المأمون على صحبة أيوب بن مسلمة لكثرة من يعرفون تلك اللغات بين مرافقيه. وهناك مخطوط ينسب إلى أيوب بن مسلمة بعنوان "أقلام المتقدمين" عبارة عن دراسة لعدد من الخطوط القديمة منها المصرية إلا أنّ حالة المخطوط السيئة جعلت الإفادة منه محدودة كما أنّه توجد لدي دواعي للشك في نسبته أصلاً.

ثم نأتي إلى معاصره الأشهر ذي النون المصري (توفي منتصف القرن التاسع) وهو صوفي ولد بأخميم وقيل أنه ترعرع في معبدها وكان ضليعا في العلوم القديمة، كما كان يجيد النصوص التي ازدانت بها جدران المعابد، وكان بعض معاصريه قد كادوا له عند الخليفة العباسي في بغداد واتهموه بأنه "أحدث في الإسلام ما ليس فيه" بإدخاله "علم الأحوال والمقامات" إلى الفكر الصوفي،

وقد ترك لنا ذو النون عددا من الرسائل في أبواب شتى، منها الكيمياء والشعر والتصوف، وكتابه المعنون "حل الرموز وبرء الأرقام في كشف أصول اللغات والأقلام" يعرف من نسخة فريدة تشمل دراسة لأكثر من ثلاثمائة كتابة قديمة، ومنها بطبيعة الحال الهيروغليفية والديموطيقية والقبطية، وقد لاحظت أنّه يمكن للمشتغلين بحل الخطوط القديمة التي لا تزال غير معروفة مثل لاينير بـ ((Linear محاولة الإفادة من هذا الكتاب وهو ما آمل أن يتم في المستقبل القريب، وتتميز دراسته بأنَّ الصفحة بها القيمة الصوتية للحروف يتبعها رسم أشكالها إلا أن نهاية المخطوط مفقودة.

أما العمل الأهم في مجال حل رموز الكتابة الهيروغليفية فهو الكتاب القيم لابن وحشية النبطي من أهل العراق من أوائل القرن العاشر وهو أصلا من المشتغلين بالكيمياء، وله دراسة مطولة في الفلاحة بعنوان "الفلاحة النبطية" ذكر فيها أنّه ترجمها عن لغة أسلافه الأقدمين.

وهناك نسختان من كتابه "شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام" إحداهما فقدت الآن وهي التي درسها ونشر نصها العربي مع ترجمة إنجليزية المستشرق النمساوي جوزيف همرو، هي المشار إليها سابقا وذلك في لندن سنة 1806 أي قبل أن ينشر شمبوليون رسالته الشهيرة سنة 1822 التي بين فيها نجاحه في حل رموز الهيروغليفية.

وقد حصلت على النسخة الأخرى للمخطوط ويتضح من دراستها أنَّ عدد الخطوط القديمة التي وردت فيه أكثر من تلك الموجودة في النسخة التي ترجمها همر، ويتمثل الإنجاز الرئيسي لابن وحشية في مجالين: أولاً: تعرفه على عدد كبير من حروف الكتابة المصرية مع توصله إلى القيمة الصوتية الصحيحة لبعضها. ثانياً: وهو الأهم توصله إلى أن بعض الأشكال الهيروغليفية هي مخصصات تستخدم لتحديد المعاني وقد أورد الكثير منها مع معانيها التي ثبت صحة معظمها حين مقارنتها بقائمة جاردنر.

ثم نأتي أخيراً إلى عالم عراقي الأصل أيضا وهو مثل سابقيه من المشتغلين بالكيمياء من القرن 13/14 م هو أبو القاسم العراقي المصري في كتابه "الأقاليم السبعة" نجد لوحات لنقوش ورسوم مصرية قديمة وأيقونات قبطية يتضح منها بذله المجهود في نسخها، وتوج أبو القاسم عمله برسم جدول للحروف البرباوية أي الهيروغليفية يمكن التعرف فيه على عدد من الحروف التي توصل إلى قراءتها الصحيحة، والأهم هو حفظه لنا لوحة للملك امنمحات الثاني من الأسرة الثانية عشرة لكل من له معرفة باللغة المصرية القديمة قراءتها بيسر.

وقد أدى هذا النشاط العلمي الكثيف عند العلماء العرب إلى حرص مؤرخ كبير كالمقريزي على إيراد ترجمة لبعض نقوش لوحات مصرية، إذ يذكر المقريزي بشيء من التفصيل قصة هدم باب البحر أحد أبواب القصر الفاطمي الذي بناه الحاكم بأمر الله أواخر القرن العاشر وجرى هدمه سنة 1273 م على عهد الظاهر ركن الدين بيبرس، ويتبع المقريزي في إيراده ترجمة نص اللوحة نفس القواعد العلمية المتعارف عليها الآن في نشر مثل هذه النصوص مثل وصف اللوحة وذكر ظروف العثور عليها وموضع الكشف والسياق ثم ترقيم السطور وملاحظة بداية ونهاية كل سطر والإشارة إلى الفجوات Lacunae الموجودة في النص إما بسبب تهشم موضعها أو محو الكتابة فيه وأخيرا محاولة تفسير النص ونقده.

أسس

العروبـة القديمة



فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان – الأردن – تلفاكس ٤٦٥٠٨٨٥ ٦ ٩٦٢+
Fadaat For Publishing & Distribution
Amman - Jordan . dar_fadaat@yahoo.com